مجلة فصلية يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

السنة الثالثة - العدد الثامن - مارس ٢٠٢٢م

القراءة معراجُك إلى التّألّق

مفهوم الشّعر عند ذي الرّمّة

«السّحابة الشّرقيّة» تَسُحُّ شعرًا جميلًا

المعجم السّياحيّ والتّنمية اللغويّة

سيرةُ كائنٍ اسْمُه الشِّعْرً

مُحاولات تيسير النَّحو العربيّ

نسخة بي دي إف (PDF)

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

الترشّح لـ :

جائزة الألكسو.الشارقة للدراسات اللغوية والمعجمية

الدّورة الخامسة 2021-2022

وهبت نفسي للغة العربية

صاحب السموّ الشيخ الدكتور

سلطان بن محمد القاسمي

عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة - الرئيس الأعلى لمجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

مجلة أدبيّة لغوية تصدر عن

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السنة الثالثة - العدد الثامن - مارس ٢٠٢٢ م

رئيس التحرير

د. امحمد صافي المستغانمي

أعضاء التحرير

أ.د. بن عيسى باطاهر

د. فكري النجار

أ. شيماء عبد الله

أ. هبة هشام

منسق العلاقات العامة

أ. ماجد الهولي

التصميم والإخراج

محمد خيّال

المراسلات

هاتف: 400 60 51 6 971+

فاكس: 410 60 51 6 971+

ص.ب: الشارقة، 1973

البريد الإلكتروني: info@alashj.ae

الموقع الإلكتروني: www.alashj.ae

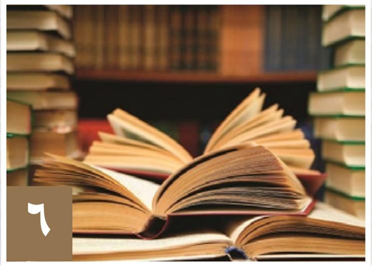

المحتويات

افتتاحية العدد ٦

مجمع اللغة العربية بتشاد ١٤

إرهاصاتُ التأليفِ المُعجميِّ عندَ العرب ١٨

«السّحابة الشّرقيّة» تَسُحُّ شعرًا جميلًا ٢٢

الحَذْفُ المُقَدَّرُ في القُرآنِ الكريم ٢٦

تجدُّدُ الرُّؤيةِ في قصيدةِ حافظ: رجعْتُ لنفسي ٣٢

المصاحبة اللفظيّة وجماليّات التّعبير القرآنيّ ٣٨

المعجم الرّقميّ المنشود ٤٢

حَفاوَةُ الرَّبيع ٤٨

المعجم السّياحيّ والتّنمية اللغويّة ٥٠

الطّريق إلى اللُّغة العربيَّة الفصحى للأطفال ٥٦

المحتويات

ذِكرَى خَديجَةَ الكُبرَى ٦٢

تعليمُ اللُّغةِ العَربيّةِ للنّاطقينَ بِغيرِها ٦٤

سيرةُ كائنٍ اسمُه الشِّعْر ٧٠

ما كان مُستَقبلُ عربيّةِ الجاهليّةِ دونَ القُرآنِ الكريم؟ ٧٢

مُحاولات تيسير النَّحو العربيّ ٧٨

لكَ الحمدُ ٨٤

معنى الغريبِ في اللُّغة واشتقاقه ٨٦

مفهوم الشِّعر عند ذي الرِّمَّة ٩٢

مفهوم اللغة: قراءة المفكّر المغربي عبد الكريم غلاب ٩٦

لغتنا الزاهرة ١٠٠

الهُويّة والتحوّل الحضاري في شعر حبيب الصايغ ١٠٢

أهميّة التّعالق الدلالي في الخطاب ١٠٨

غلاف العدد

السنة الثالثة - العدد الثامن - مارس ٢٠٢٢ م

مجلة فصليّة يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

مجلة أدبية لغوية تعنى بقضايا اللغة العربية وآدابها

لمشاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التواصل على البريد الإلكتروني shayma.ab@alashj.ae

لزيارة موقع مجمع اللغة العربية بالشارقة امسح رمز الاستجابة السريع بكاميرا الهاتف

القـــراءة معراجُـك إلـى التّـألّـق

هيَ أوّلُ كلمة التقَتْ فيها السّماءُ بالأرض، واهتزَّتْ لها الأكوانُ. إنَّها جوهرةُ أفعالِ الأمر في القرآن: اقرأْ.

في ليل جاهليَّة حالك، وبين دياجير جهالة وظُلُمات مهالك، وفي بحر شرك تتلاطمُ أمواجُه، وجهل تعدَّدت مصادرُه، وسُلطان غابٍ زمجرَتْ أغوالُه وهزابرُه، وفي حيرة كانت تحياها الإنسانيَّةُ، ومفاوز ضلال تاهَ فيها العقل العربيُّ، فُتِحَت السَّبعُ الطِّباقُ، ونزلَ الوَحيُ السَّلسَلُ الرَّقراقُ، وقال جبريلُ: اقرأْ.

د/ امحمد صافي المستغانمي
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

عندما عمَّت الجهالةُ الجهلاءُ، وتحكَّمت أعرافُ الجاهليّة الصّمّاء البَكماء، وانطمست معالِمُ الدّين الحَقّ أو كادتْ، عندما هـوت الأخـلاقُ في مهاوي الحقد والضَّغناء وتـردَّت، وغـارت الفضائل، وشاعت الـرَّذائلُ، وعـمَّ الكفرُ، وتفشّى الظُّلم، ووقعَ الضَّعيفُ بين أنياب القويّ، وخانَ الأمانةَ الوليُّ الوَفيُّ، استيقظت الإنسانيَّةُ على نداء السَّماء: اقرأْ.

ما أجملها كلمةً! وما أبهاها جملةً، جبريلُ رَوّاحٌ بها غدّاءُ.

أفعالُ الأمر في القرآن الكريم كثيرةٌ، ولكنَّ العِنايةَ الإلهيَّةَ الحكيمةَ اختارتْ: اقرأْ.

فما يُغني غَناءَها كلمةُ «سبِّحْ»، وقدْ ورد الأمرُ بها: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، ولا يُغني غَناءَها «اعبُدْ» وقد ورد الأمرُ بها: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، ولا يقومُ مقامَها فِعلُ الأمر «صلِّ»، وقدْ ورد الأمر بالصّلاة بصيغٍ متنوِّعةٍ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]. ولا يفي بمَدلولها فعل الأمر ﴿استقِمْ﴾ وقد ورد الأمر بالاستقامة في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [هود: ١١٢]، ومثلُ ذلك جميعُ أفعال الأمر في الذِّكر الحكيم لا تُغني غَناءَ: اقرأْ.

ماذا يعني كلُّ هذا؟

مِن معاني هذا الأمر الإلهيّ الجازم أَنَّ مهارةَ القراءة هي مِفتاحُ النَّجاح الأكبر، وهي مِفتاحُ الإيمان؛ والجسرُ المُوصِلُ إلى المعارف، وهي التي تُوضِحُ الحقائقَ، وتُجلّي جواهرَ الأشياء، وتُقرِّبُ البعيدَ منها من عقول القارئين، وتُوسِّعُ مداركَهم، والقارئُ يَكتسِبُ حِكَمَ السَّابقين، ويَتعلَّمُ أمثالَهم، ويَطّلِعُ على أخبارِهم، ويقتفي آثـارَهـم، ويستفيدُ من قَصَصِهم ومحطّات حياتِهم والمواعظ التي ترشَحُ منها.

بالقراءة يتعرَّفُ المُسلمُ على أركان الإيمان التي لا يصِحُّ إيمانُهُ إلاّ بالاعتقاد الجازم بها، وبها يتعرَّفُ على أحكام الشّرع، وأصول الأخلاق، ويقتفي سُنَّةَ خير الأنام.

بمهارة القراءة يتلو المسلمُ القرآنَ الكريمَ، ويعيشُ في رِحابه، يُخرِجُ الحروفَ من مَخارجها الصَّحيحة، وينطِقُها بصفاتها المناسبة، ويتفهَّمُ معانيه، ويتدبَّرُ أسرارَه وأحكامه.

مهارةُ القراءة هي مِفتاحُ النَّجاح في كلّ ميدان، في التَّديُّن والاعتقاد، ودُنيا السّياسة والاقتصاد، وفي مجال المال والأعمال، وفي قطاع التَّربية والتَّعليم، وفي تعلُّم الحِرف، واكتساب المِهن، وفي كلّ مجال.

والقراءة حقٌّ مشروع لكلّ إنسان، فكما أنّ كلّ إنسان له حقٌّ في الماء والهواء والغذاء، فإنّ القراءة حقُّهُ المستحقُّ، وغنيمته التي يحيا بها حياة سعيدة. ومُخطئٌ وواهمٌ مَنْ يدّعي أو يحسَبُ أنّ أمّةً ما تُحقِّقُ أعلى مستويات النّجاح، وتصنع حضارة بدون علم ولا قراءة وثقافة، ولا يكون إلاّ كناظر إلى سرابٍ يحسبه ماء.

القراءة حقُّ كلّ إنسان، ومن فرّط فيها فقد فرّط في خصّيصة من خصائص إنسانيّته؛ لأنّه «يا أخي الإنسان في المشرق والمغرب، وفي الشّمال والجنوب» مِن حقك أن تفهم الظّواهر من حولك، والكون الذي تعيش فيه، والمناخ الاجتماعي الذي تترعرع فيه. من حقّك أن تُطلّ على الآخرين، وتتواصل مع النّاس، وتتعرّف على الشّعوب والأمم، وتدرك فلسفات الشّعوب، وتَعْتَبِرَ بعِبر التّاريخ، ولن يتأتّى لك شيءٌ من ذلك كلّه إلاّ بمهارة القراءة.

وحين يُحدِّقُ أحدنا في الواقع الذي نحيا فيه، نجد أنّ أمّة ﴿اقرأ﴾ في مكانٍ قصيٍّ عن القراءة، والحالُ أنّ العصر الحديث الذي يُباغتنا كلَّ يوم بمولود جديد في مختلف العلوم والمعارف نظرا للتّطوّر التّكنولوجيّ الرّهيب، لا يستطيعُ أن يُواكبه وأن ينسجمَ معه إلاّ من يمارسُ القراءةَ في كلّ لحظة.

كلّ الشّعوب والمجتمعات اليوم تُسابقُ الزّمن لاستيعاب مفرزات العصر، ومتابعة الإنتاج المعرفيّ الحديث لأنّ كلّ ذي أثارة من عقل، ومِسْكةٍ من تفكير سديد يعلمُ أنّه لا مكان في دنيا النّاس اليوم لمن لا يقرأ، ولا يكتب، ولا منزلة لمن لا يدرس ولا يُناقش، ولا حظ لمن لا يُحلّل ولا يستنبط، ولا كِفلَ لمن لا يبتكر ولا يُبدع.

وعندما نستنطِقُ تاريخَ الأمـم والـدُّول، ونتدارسُ أحـوالَ الحضارات وأحداثَ الشّعوب، ونتصَفّحُ تراجم العُظماء وسِيَرَ النّاجحين، ونَقِفُ عند محطّات المُؤثِّرين الذين تركوا بصماتهم في شتّى الفُنون والعُلوم، والمجالات والتّخصُّصات، فإنّنا نلفي أنّهم كلَّهم دون استثناء ولا إقصاء، تميَّزوا، وأتقنوا مهارةَ القراءة.

فهذا ابنُ تيميَّةَ الحرّانيُّ الدِّمشقيُّ، شيخُ الإسلام والمُسلمين في عصره، – مهما اختلف فيه مُقدّسوه وذامّوه – كان لا يرفَعُ رأسَه عن كتابٍ، ولا يُخلي فترةً من قراءة، حتّى إنَّه كان يبخَلُ بوقت خروجِه إلى الخلاء، فكان يطلُبُ من أحد تلامذِته أن يقرأ عليه بعض المسائل اللغوية أو الأدبيّة.

وهذا بَحرُ الفقه والحديث، أبو زكريّا النَّوويّ، مُنظِّرُ الفقه الشّافعيّ ومُهذِّبُه، ومُنَقِّحُه ومُبَوِّبُه، زادت مُؤلَّفاتُه وربَتْ عن شهوره وأعوامه، نازعه أحدُ جلسائه في مسألةٍ في كتاب الوسيط في الفقه الشافعي لحجّة الإسلام الغزالي، الذي يقع في سبعة مجلّدات، فقال: يُنازِعُني في الوسيط، وقد طالعتُهُ أكثر من أربعمائة مرّة!!

إنَّها لَهِمَّةٌ عظيمةٌ علياء، وذُروةٌ تُناطِحُ الجوزاءَ في القراءة والمُطالعة أوتِيَها هؤلاء الجهابذةُ الأفذاذُ.

وإذا جئنا إلى العصر الحديث، في مصر العلوم والآداب والفُنون، التي خرَّجت عباقرةً وعُظماءَ في شتّى التّخصُّصات، يُطالِعُنا اسمُ العَقّاد، الذي ملأ سمعَ الزّمان والمكان، وطارت شُهرتُهُ في السُّهول والجبال والوديان. ملأ الإعلامَ، وهيمنَ على النَّقد، وملك مقاليدَ الكتابة والأدب، والفلسفة والفِكر.

وحين تقتفي آثارَ سيرته الوضّاءة، تجدُ أنَّه لم يُكمل دراستَه الابتدائيّة! ولك أن تتساءَل: مِن أينَ اكتسبَ كلَّ هذه العلوم والآداب التي أتقنها، وتميَّزَ على أترابه وأقرانه فيها؟!

إنَّ الجوابَ المُختصَرَ البليغ هو أنَّهُ امتلك مهارةَ القراءة وشُغِفَ بها؛ فكان لا يَترُكُ كتابًا إلاّ وطالعه من الغلاف إلى الغلاف، ولا يترُك شاردةً ولا واردةً فيه إلاّ أحصاها وأحاط بها عِلما.

استمِعْ إليه وهُوَ يُعيدُ فضلَ تفوُّقِه ونُبوغه ونجاحه إلى القراءة قائلا: «هذه النّدْرة من الكتب التي تيسّرت لي أيّامَ التّلمذة وما بعدها، علّمتني دستورا للمطالعة أدينُ به إلى الآن، خلاصته: أنّ كتابا تقرأُه ثلاث مرّات، أنفعُ من ثلاثة كتب تقرأ كلاًّ منها مرّة واحدة».

نَعَمْ، إنَّها مهارةُ القراءة، ومفتاحُ الإصرار عليها. القراءة التي تجعلُ المُثَقَّفَ المُلتَزِمَ يعيشُ في فضاءٍ واسعٍ من السّعادة، ينتقلُ من مقالٍ إلى مقال، ومِن فِكرةٍ إلى فِكرة، سابرًا أغوارَ فكر صاحبها، مُتذوِّقًا جمالَ نفعها، وحلاوةَ طعمِها، كتنقُّلِ النَّحلة من زهرةٍ إلى زهرة، مُشتفَّةً أريجَ رحيقِها، وشذى عبيرها.

ثُمّ إنَّ القراءةَ تختصرُ إليك طرُقًا طويلةً شاقَّةً، سارَ فيها العُظماءُ، وتُلخِّصُ لك سيرًا وتراجم، وتُعرِّفُك محطّاتٍ ومراحلَ قطعها أصحابُها من أجل نيل قصب السَّبق، وتحقيق أعظم الإنجازات.

فالقارئُ الشَّغوفُ يكتسِبُ خبراتٍ وتجاربَ من حياة مَنْ يقرأُ لهم، يُضيفُها إلى رصيد تجاربه ومعارِفه، تُسَهِّلُ له التَّغلُّبَ على عوائق الطّريق، وتُمكِّنُهُ من تجاوز المُنعطفات الخطرة بيُسرٍ وسُهولةٍ؛ فليسَ مَنْ يعلمُ كمن لا يعلم.

يقول العقّاد: «لستُ أهوى القراءةَ لأكتب، ولا أهوى القراءة لأزداد عُمرًا في تقدير الحساب، وإنّما أهوى القراءة لأنّ عندي حياةً واحدة في هذه الدّنيا، وحياةٌ واحدةٌ لا تكفيني، ولا تُحرِّكُ كلَّ ما في ضميري من بواعث الحركة، والقراءةُ دون غيرها هي التي تُعطيني أكثر من حياة في مدى العمر الواحد؛ لأنّها تزيدُ هذه الحياةَ من ناحية العُمق، وإن كانت لا تُطيلها بمقدار الحساب.

إنّ القراءةَ تُضيفُ إلى عمر الإنسان أعمارا أخرى، هي أعمارُ الكتّاب والمفكّرين والفلاسفة الذين يقرأ لهم».

هذا، وللقراءة ثمراتٌ لا تُضاهى، ومُخرَجاتٌ لا تُدرَكُ بالدِّرهم والدّينار، ولا بالوجاهة والسُّلطان.

سأروي لك « قارئي الكريم » قصَّةَ تلميذٍ تركت بصماتها في كياني ووجداني، منذُ قرأتُها في كتاب مدخل إلى القراءة، أحد الكتب المقرَّرة في كليّات اللغة الإنجليزية بالجامعات الأمريكيّة، ولِفَرْط إعجابي بالعِبر التي تتضمَّنُها، والفوائد التي تشتملُ عليها، قرَّرتُ أن أضعها بين يديك بلغةٍ سهلةٍ ميسورةٍ مُشابهةٍ للأسلوب الذي رُويَتْ به بشيءٍ من التَّصرُّف والاختصار رغبةً في تعميم الفائدة والنَّفع.

«بين كارسون» هو اسمُ بطلِ هذه القصَّة، وهو الآنَ يشغَلُ منصبَ مُدير قسم جراحة الأعصاب في مستشفى «جون هُوبكِينز» في مدينة «بلتيمور» بمنطقة «ميريلاند» بالولايات المتحدة الأمريكية.

استطاع لفرط ذكائه، وصبره وجلَده على القراءة، وتفوُّقِه في دراسته، وعُلُوِّ كَعبه في جراحة الأعصاب أَنْ يتمَّ تعيينُهُ، وهو في سِنِّ الثالثة والثلاثين، رئيسًا لقسم الجراحة العصبيّة في قسم الأطفال المتعلّقة بفصل الأجِنَّة التي تولَدُ ملتصقة، ولا يخفى على أحدٍ ما يتطلَّبُهُ فصلُ جنينين ملتصقين على مستوى الرّأس من دِقَّةٍ ومهارةٍ وعلمٍ دقيقٍ بالجراحة العصبيَّة.

عندما تقرأُ سيرةَ الجرَّاح «بين كارسون» في فترة صباه الأوَّل، لا أحدَ يستطيعُ أن يتوقَّع، بل لا يستطيع أن يتخيَّلَ أَنَّ هذا التّلميذَ الرّاسبَ الذي كان رُفقاؤُه يلقِّبونه دُميةَ الصَّفِّ، لفرط همومه

وجموده وكثرة رسوبه، كيفَ أصبحت حياتُه بهذا الإشراق، وفي هذا المستوى الرَّفيع من التَّألُّق المِهني المُذهل.

يذكُرُ عن نفسه في كتابه: الصورة الكبيرة (The Big Picture) أَنَّه كان في الصَّفِّ الخامس الابتدائي راسِبًا في جميع الموادّ في امتحانات نصف العام الدّراسي، وكذلك كان أخوه، يُعاني من الرُّسوب في التَّحصيل الدّراسي.

كانت والِدتُه شبهَ أُمِّيَّة، لديها مستوى الثالث الابتدائي، فقيرةَ الحال مُعدمةً، تعملُ خادمة نظافة في عدد من البيوت لتَسُدَّ رَمقَها، وحاجيات أولادها، كانت تُعاني شَظفَ العيش، وقِلَّةَ ذات اليد، وكانت تدعو وتتضرَّعُ لخالِقِها كلَّ يومٍ أَنْ يرزُقَها حكمةً تخرُجُ بها مِن سجن حياة الإملاق والمَسكنة إلى حياة العاديين البُسطاء الذين ينعَمون بِنعمة الحياة الكريمة.

تُرى ما الحكمةُ التي فَجَّرَ **الله** جلَّ ثناؤُهُ ينابيعها في قلبها؟ اهتدتْ إلى سلاحٍ جبّار هو عدم تشغيل جهاز التَّلفاز في البيت خلال الأسبوع كاملا، ما عدا فترتين قصيرتين تسمحُ فيهما لِوَلَدَيْها بِمشاهدة برنامجين مِمّا يُفضِّلان، وفي الوقت نفسه بدأت معهما في تطبيق مشروع القراءة المستمرّة.

من البَدهي أَنَّ هذا التَّصَرُّفَ من الأُمّ لم يكنْ من الحكمة في نظر وَلَدَيْها بل كانَ نِقمةً، ويروي ابنُها «بين كارسون» أَنَّ جاراتٍ لها كُنَّ يَلُمنها، ويقلْنَ لها: إِنَّ الأطفالَ خُلِقوا للّعب والاستمتاع بأوقات فراغهم، دعيهم يخرجون مع رفقائهم، ولكنَّ الأُمَّ كانت عن أحاديثهنَّ في صَمَمٍ.

المُهِمُّ أَنَّ مشروع القراءة الذي صمَّمت هذه المرأةُ خطوطه لولَدَيْها أخذ حيِّزَه من التَّنفيذ، يقول: شرعتُ في القراءة، لم تكنْ قراءتي في بداية الأمر مُيَسَّرةً أو غزيرةً، ولكِنَّني بدأتُ.

الشَّيءُ الجميلُ في الأمر أَنَّ أُمّي لَم تكنْ تُملي علينا ما نقرأُ، كانت تترُكُ لنا حُرِّيَة الاختيار، ولمّا كنتُ مُولَعًا بِحبِّ الحيوانات « كما هو الشّأنُ لدى غالبيّة الأطفال » قرأتُ كلَّ الكتب المتعلِّقة بالحيوانات التي كانت مكتبة ديترويت العامَّة تضمُّها بين خزائنها، ثُمَّ عرَّجتُ على كتب النَّباتات.

ولمّا كُنّا نقطنُ بيتًا بسيطًا جِدًّا في أفقر أحياء قريتنا، وكانت تُحيطُ بِبيتِنا الأحجارُ والصُّخورُ من كلِّ جانبٍ، وكُنتُ أُعايِشُها في ذهابي وإيّابي، لفت انتباهي أَنواعُها وألوانُها واختلافُ أشكالها ومُكوِّناتها، فانتقلتُ إلى دراسة كل الكتب المتعلِّقة بالصُّخور والجيولوجيا فقرأتُها كتابًا كتابًا، حتّى أَتقنتُ مُكوِّنات كلِّ صخرةٍ، وطريقةَ تشكُّلها، وخصائصها، وجمعتُ أنواعًا منها في بيتنا، وكانت تلك هوايتي.

وذات مرَّةٍ، دخلَ إلى حُجرة الصّفِّ مُعلِّمُ العلوم حاملا بين يديه صخرةً صغيرةً سوداء، ثمَّ سأل: مَنْ منكم يعرف ما هذه؟ وأشار إلى الصَّخرة.

ولمّا لَمْ يَكنْ من شأني أَنْ أُجيبَ عن سُؤالٍ، أو أن أشارك في المُحاورات والمناقشات التي تدور داخل الصَّفِّ – بحكم كوني دُميةَ الصّف– انتظرتُ أَن يُجيبَ عن سؤاله الأذكياءُ، فلَمْ يَنبِسْ أحدٌ منهم بِبنت شفةٍ؛ فقلتُ في نفسي لَعلَّ أحدَ المُتوسِّطين أو الضِّعاف يستطيعُ الإجابةَ؛ فلم يرفَعْ أحدٌ منهم يدًا.

عندها قلتُ في نفسي: هذه فرصتي الكبيرة، ورفعتُ يدي، فَفُوجِئَ الجميع! دُميةُ الصَّفِّ تتحرَّك، انظروا، انظروا! كارسون يرفعُ يده ليُجيبَ عن السُّؤال!! إنَّها لَمُفاجأَةٌ عظيمةٌ!

حتّى المعلِّمُ قال مُتعجِّبًا: كارسون!؟ وعلامات التَّعجُّب والذُّهول على مُحيّاه.

فقلتُ: هذه الصّخرة تسمّى أوبسيديان (Obsidian).

فسكت الجميعُ، وأطبقَ على الصَّفِّ صمتٌ مُخيفٌ، وسُقِطَ في أيدي الطُّلّاب. لم يكونوا على بيِّنةٍ من الأمر.. هل الجوابُ خطأٌ فيضحكون ويهزأون، أَم صحيحٌ فيَعجبون!؟

ثُمَّ قطعَ المعلِّمُ الصَّمت وقال: هذا صحيحٌ.

فأردفتُ أشرح حقيقةَ تلك الصَّخرة، وطريقةَ تكوُّنها، وكيف أَنَّها تتشكَّلُ مع ثوران البراكين، وخروج الحِمم المُلتهبة، فتلتقي بالأجواء الباردة فتتجمَّد بسرعة ثُمَّ تتشكَّل خصائصها إلى غير ذلك من المعلومات الخاصّة بها.

لا أحدَ يستطيعُ أَن يتصوَّرَ كيفَ كان شعوري وإحساسي وقتها، عندها كسرتُ حاجزَ الخوف والرَّهبة، وتحسَّنت صورةُ نفسي في نفسي، وشعرتُ باستعلاء العلم بين الجُهلاء، وأثبتُّ لهم أَنّني لمْ أَكنْ دُميةً، بل كنتُ عملاقًا يُخفي قُواه الكامنة.

ثُمَّ قلتُ في نفسي: يا كارسون، السَّببُ أَنَّك عرفتَ الإجابةَ السَّليمةَ لهذا السُّؤال، أَنَّك قرأت تلك الكتب التي كانت أُمُّك تحثُّك على قراءتها؛ فعزمتُ من ذلك اليوم أَن أقرأَ كتبًا في جميع الموادّ.

كنتُ أقرأُ كلَّ كتابٍ يقعُ بين يديّ، أقرأُ في الصّباح والمساء، في الليل والنَّهار، أقرأُ وأنا أنتظرُ الحافلة، في طريقي إلى المدرسة، في الصّفّ، في فترة الاستراحة، داخل حُجرة الحمّام... كنتُ أقرأُ معدَّل كتابين في الأسبوع إلى أَن منَّ **الله** عليَّ وأصبحتُ الأوَّلَ على الصَّفِّ، ومنذُ ذلك الحين شققتُ طريقي نحو التَّألُّقِ والنَّجاح.

وكذلك تفعلُ القراءةُ مع كلِّ إنسانٍ.

والآن نصلُ إلى لبِّ لباب الموضوع: أين الخلل في القراءة في عالمنا العربيّ؟

بادئَ ذي بدء أقـرّرُ بأنّي لست من الذين ينظرون بنظّارات سوداء قاتمة إلى الواقع العربيّ، ولكن في الوقت نفسه، فإنّه لا ينبغي أن نتغاضى عمّا نرى، والمشهد الثقافي العامّ اليوم لا يخفى على أيّ عاميّ بَلْهَ مثقّفٍ نبيهٍ، والمطلوب أن نجتهد في وضع حلول شاملة مُجديةٍ نافعة لمعضلة عدم القراءة، وابتكار أساليب تضعُ قطار أبناء الجيل المعاصر في المَهْيَع الصّحيح السّليم.

القراءة منحةٌ عظيمة، ونعمةٌ جسيمة، ولُقمةٌ سائغةٌ، ولذّةٌ لذيذة، ولا حياةَ كريمة من غير قراءة، وامتلاك ناصيتها ليس بالأمر الهيّن، وما سمع العالمون وما رأوا رضيعا وُلِد عالما متعلّما ناجحا متألّقا، بل الكلّ يعلم أنّه لا بدّ من الحبو قبل المشي، ومَنْ خطا يخطو، والعلمُ بالتّعلّم، والحِلمُ بالتّحلُّم، والذي لا يُخطئ لا يُصيب، والفارسُ المغوارُ يكبو، والجواد السّابحُ يتعثَّر؛ فلا أحد يُتقنُ مهارةً مهما كان نوعها من الوهلة الأولى.

فإذا كنتَ ترغبُ أَن تشُقَّ طريقَك إلى النَّجاح الظّاهر والتألّق الباهر في أيّ ميدانٍ، فاقرأْ، ثُمَّ اقرأْ، ثُمَّ اقرأْ؛ فإِنَّك سوف تجني ثمراتٍ تجِلُّ عن الوصفِ، وتقطِفُ مُخرجاتٍ تدِقُّ عن الإفصاح والكشف.

واعلم أنّك لا تجني ثمرات القراءة اليانعة الحلوة النّاضجة لتُدرك بعض أسرار الكون من حولك، وتعيش فعلا في مملكة **الله** في الأرض خليفة له سبحانه حتّى تُمارس القراءة خارج أسوار المدارس والجامعات.

وعليك أن تذكُرَ دائمًا أَنَّ أهمَّ القواعد على الإطلاق التي تقودُك نحو النَّجاح والتَّألُّقِ، أَنَّ بِوُسعِك أَن تتعلَّمَ أيَّ شيءٍ ترغبُ فيه من أجل أن تُحقِّقَ أيَّ هدفٍ ترسُمه، وما مِن وسيلةٍ هي أَحسنُ وأسرعُ توصيلاً لك إلى إدراك المعرفة بِموضوعك مِثل مهارة القراءة.

إِنَّ الذين يتلَقَّون الأُجورَ المُرتفِعةَ، والعوائدَ المادِّيَة العالية، لمْ يَصِلوا إلى تلك الدَّرجات العُلا في سُلَّم المادِّيات والرَّواتب، ولَم يَنعَموا بِمزايا الغِنى والثَّراء، ثُمَّ طَفِقوا يقروؤن للتَّسلية والتَّثَقُّف؛ إِنَّما سلكوا طريق القراءة أَوَّلاً، وانكبّوا على المُطالعة المُستمِرَّة في مجالات تخصُّصاتهم المُختلفة، وطبَّقوا المهارات والتِّقنيّات التي قرأُوها، وكانت النَّتيجةُ أَنْ جَنَوْا أحسنَ المُخرَجات التي هُم يَنعَمون بها الآن.

ولَمّا كانت القراءةُ هي السّبيلَ المُستقيمَ، والدَّربَ الهاديَ إلى ذُروة النَّجاح؛ فإنّي أسوقُ إليك، أخي القارئ، أختي القارئة، جملةً من الإجراءات العمليّة التي تُمكِّنُك بإذن **الله** تعالى من التَّنعُّم بثمارها اليانعة:

١ – اقرأ في البداية عنوان الكتاب وجزءًا مقتضبًا من سيرة كاتبه.

٢ – اطَّلِعْ على مُحتوى الكتاب عن طريق عناوين الفهرس بشكل عام.

٣ – تصفَّح الكتاب للمرَّة الأُولى، واقرأ فقرات متنوِّعة لتأخُذَ من خلالها فكرةً عن مدى أهمِّيَّة الكتاب، وجَودة الأفكار والمعاني التي يبسُطها، وتطَّلِعَ على مدى جودة الأُسلوب الذي يحمِلُ بصمات صاحبه.

٤ – ابدأ القراءة المتدبِّرة الواعية المستمرَّة من الصَّفحة الأُولى إلى الصّفحة الأخيرة من الكتاب، فقرةً فقرةً، وجملةً جملةً؛ فإنَّك إِن لَم تَكتسِبْ معانيَ جديدةً اكتسبتَ فصاحةً وبيانًا باللغة التي كتب بها الكتاب.

٥– خصِّص وقتًا يوميًّا للقراءة من ساعتين إلى ثلاث ساعات، وتزيدُ الساعات وتنقصُ حسب الهِمَّة والرَّغبة.

٦ – ضعْ خُطوطًا بقلم رصاص، أو ظلِّلْ بقلمٍ فسفوريّ تحت العبارات المُهمَّة، والجُمل المِفتاحيَّة، والأفكار المِحوريَّة التي تستوقِفُك.

٧ – عندما تنتهي من القراءة الأُولى، أَعِد قراءةَ ما وضعت تحته خطًّا؛ فإِنَّ ذلك سوفَ يُعطيك مُلخَّصًا رائعًا، ويُثَبِّتُ تلك الأفكارَ والمعانيَ في ذهنك.

٨ – دوِّنْ ما جمعتَ من أفكارٍ أحيانا بأسلوبك الخاص، وأحيانًا بأسلوب صاحب الكتاب؛ فإِنَّ ذلك سيزيدُ في رصيدك المعرفيّ والأسلوبيّ.

٩ – تعوَّد على القراءة الصّامتة السّريعة، ولا تجهرْ إلا بالعبارات التي تودُّ حِفظها وترسيخها في ذهنك؛ فإِنَّ القراءةَ الجهريَّةَ وتَكرارَها تُثَبِّتُ الحِفظَ وتُمكِّنُه في النَّفس.

١٠ – إذا كان الكتابُ مفيدًّا جِدًّا، ويحملُ أفكارًا رائعةً، وكُتِبَ بأسلوبٍ جذّابٍ وقويٍّ، فاقرأْهُ ثلاث مرّات إِنْ كنتَ تمتلِكُ إرادةَ العَقّادِ ورغبَتَه.

هذه الإجراءات العمليّة التي اقترحتها آنفا تخصّك أيّها القارئ المجتهد، واللّبيب يسأل: كيف نسعى إلى تغيير ذهنيّات جميع أفراد المجتمع، ونصل إلى مجتمع قارئ مثقّف؟

الجواب: سألخّصه في نقاط موجزة:

١ – لا شيء يتغيّر في الواقع ما لم نُغيّر ذهنيّة الأفراد. قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد:١١].

٢ – إعادة جدولة الأولويّات في ربوع العالم العربي؛ فإنّه حين تصبح ميزانيّات التّعليم والتّربيّة والثّقافة في بلادنا العربيّة تناهزُ وتُضاهي ميزانيّات المساكن والتّعمير، والنّشاط الرّياضي، وميزانيّات الانتخابات، فأبشرْ أيّها المواطنُ العربيّ فإنّ الفرج قريب.

٣ – القراءة والكتابة صِنوان لا يفترقان، ووجهان لعملة واحدة، ومتى كرّمنا الكاتب والمؤلّف العربيّ، أسهمنا في إعادة الثّقة بين القارئ والكاتب والمجتمع، وما وصلتنا حضاراتُ السّابقين والآداب العالميّة والكتب المقدّسة في شتّى الأديان إلاّ حين شمّر الكتّاب على سواعدهم، وكانت قيمة القلم بقيمة السّيف.

٤ – الشّروع من حيث انتهت إليه المعرفة البشريّة اليوم، وما ازدهرت العلوم والمعارف لدى الغرب إلاّ حين ترجم علماؤه ما جادت به العقليّة الأندلسيّة الخصبة المعطاءة.

٥ – بناء المواطن العربيّ القارئ المثقّف ليس مستحيلا، ولا ضربا من الخيال ولا نسجًا من الأحلام؛ لأنّه إذا تضافرت الجهود، وتآزر أهل العلم، وربابنة التّربيّة، وقادة الفكر، وتكاتف أصحابُ الأقلام؛ فإنّ الصّرح القرائيّ العربيّ ليس ببعيد.

٦ – الاستثمار في بناء الإنسان أهمّ وأعظم من العناية بالبناء والعمران.

٧ – تحبيب البحث العلميّ والإنتاج المعرفيّ إلى ذهن العربيّ وقلبه، ولا يُصبح أيّ إنسانٍ منتجًا للمعرفة إلاّ إذا تصاهر مع القراءة، واتّخذ الكتاب خليلا.

٨ – واعلم، أخي طالب العلم، أنّ اليابان دُمّرت عن بكرة أبيها في الحرب العالميّة الثانية، واستطاعت في فترة وجيزة أن تتربّع على عرش الحضارات المعاصرة بالعلم والبحث التّقني، وها هي ذي اليوم تقطفُ جنًى حلوا لذيذا دانيا بتصدّرها دول العالم في القراءة. ولا داعي يُحوِجُنا إلى إجراء مقارنات بين نسبة القراءة لدى القارئ العربيّ، وبين نسبة القراءة لدى القارئ اليابانيّ لأنّ الفوارق مخيفةٌ مرهبةٌ مُفزعة مهولة.

وأخيرا وليس آخرا، إذا كانت القُرونُ الخاليةُ، والعُصورُ الغابرةُ، عرفَتْ أنواعًا من السُّلُطات الحاكمة، والقوى المُهيمنة القائمة على قُوَّة السّلاح والبَطش، وقُوَّة الجاه والمال، وإذا كان القرنان الماضيان التّاسع عشر والعشرون قدْ شَهِدا هَيمنةَ القُوَّة الصِّناعيّة، وتسلُّط الشَّركات الكُبرى القائمة على تصنيع المُنتجات المُتنوِّعة وتسويقِها، واستخراج النّفط وتصنيعه وتسويقه؛ فإِنَّ القرنَ الحادي والعشرين هُو قرنُ سُلطة المَعرفة.

البشريَّةُ اليوم تعيشُ عصرَها الذَّهبيَّ، والسُّلطةُ الأُولى هي سُلطةُ المعرفة، مَنْ ملك زمامَ المعرفة في هذا القرن، وأحاط علمًا بميدان تخصُّصِه إلى حدِّ الإتقان، وتفرَّدَ بمزايا دقيقةٍ لا يستطيعُها إلاّ أفرادٌ قلائلُ في مجال عمله؛ فإِنَّه يُكوِّنُ هالةً مَغناطيسيّةً حولَ شخصه تَجتَذِبُ إليه العُيون، وسوفَ تشرَئِبُّ إليه المُؤسّساتُ، وتتطلَّعُ إلى علمه المُنظّماتُ، ويهفو إلى مجال إتقانه الرَّاغبون.

ولله درُّ القائل: قيمةُ المَرء ما يُحسِنُهُ، ولا تُتقنُ أيّها الإنسان شيئا من ألوان المعارف وأفنان العلوم إلاّ بالقراءة.

ألا أيّها الجيل الغافل، الملتصق بآلات التّواصل الاجتماعي بكرة وعشيّا، لاهيا عمّا كلّفه به ربّه، استمسك بوسائل النّصر المبين، وتحصّن بالدّروع السّوابغ التي تقيك مصارع السّوء، وتجنّبك مهاويَ التّردّي، وخير سلاح، وأفضل دِرع واقية سابغة هي القراءة، وأنصِتْ بخشوع وخضوع وبصيرة إلى الشّاعر العربيّ في قوله:

يا نَشْءُ أنتَ رجاؤنا
وبِكَ الصّباحُ قد اقتربْ
خُذْ للحياة سلاحَها
وَخُضِ الخطوب ولا تهبْ

ألا هل بلّغت؟ ألا هل بلّغت؟ ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

مجمع اللغة العربيــة بتشــاد

منارةُ علم، وصرحُ ثقافة عربيّة عريقة

الدّكتور أحمد أبو الفتح عثمان
الأمين العام لِمَجمَع اللغة العربيّة بتشاد

عَرَفَت مناطق حوض بحيرة تشاد (دولة تشاد الحاليّة، والدّول المجاورة لها: نيجيريا والنَّيجر والكمرون)، العروبةَ في فترة مُبَكِّرة من التّاريخ، فلم يمرّ على البعثة النبويّة سوى أربعين عامًا حتّى سُمِعت أصداؤها في هذه المناطق بفضل جهود المجاهد عقبة بن نافع رضي الله عنه الذي فتح أطرافها في عام ٤٣هـ الموافق ٦٦٣م.

وتوالى التّعرف على هذه الرّوابي والسّهول والغابات والجبال من خلال هجرات الدٌعاة والمغامرين السّياسيّين، والهجرات العربيّة الجماعيّة، واتُّخِذت بعدُ مناطقَ قرار واستقرار لهؤلاء الوافدين من الجزيرة العربيّة؛ حيث انصهروا في هذا المجتمع، فأثّروا فيه وتأثروا به، فجادوا له بِقِيَمهم، ومَنَحَهم بعض صفاته.

وممّا بقي من قِيَمِهم العربيّة: هذه اللُّغة التي صارعت، وما زالت تصارع الدّهر في الخلود بأسرار لم تَحْظَ بها غيرها من اللغات. فاتّخذها المجتمعُ الإفريقيُّ لغة تواصل شعبيٍّ في كثيرٍ من بقاعه، بين أممٍ ناطقة بألسنة أخرى متباعدة فيما بينها، ولا يجمع بينها وبين العربيّة إلا كونها إنسانيّة، ولكنَّها قامت بدور الرّابط بين أولئك المتنافرين، وفَرَضَت نفسَها لتكون اللّغةَ الرّسميّة عبر قرون في دوائر المَمالك المستقلَّة التي قامت على هذه الأرض (تشاد) وتكون لسان إداراتها، وأداة تراسلها ولغة التّبادل التّجاريّ، وكانت –وما تزال– اللُّغة التي يعود لها الفضل في حفظِ غالب التّراث الفكري والثقافي في هذه المناطق، وتاريخ هذه المناطق وحضارتها وشكل عاداتها وتقاليدها، وشكَّلَتْ علائق حضاريّة غير مسبوقة مع مراكز الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

ويأتي تأريخ اللُّغة العربيّة في هذه المناطق في وقت مُبَكِّر، لِيُوَصِّلَ دورَها الحضاريَّ ومسيرَتها في نهضة هذه المناطق وتطوّر علاقاتها مع المحيط العربيّ، فالعربيّة هي أداة التّعريب الأولى في هذه السّلطنات وبالتَّحديد في ممالك: كانم وباقرمي وودّاي.

وامتدادًا لهذا الإِرْث لا تزال اللُّغة العربيَّة تتبوّأ مكانتَها الرفيعة والمهمّة بِفَضل الانتشار واستعمال غالبيّة التّشاديّين لها على الرّغم من محاولة الاستعمار طمس هويّتها وتمكين الفرنسيّة مكانها إلا أنها فَرَضَت نفسَها بجهود مثقّفيها والمدافعين عنها فوجدت اعترافًا بها وتمّ توظيف المثقّفين بها. وفى العام ١٩٨٦م، اعترفت الدّولة بالشّهادة الثّانوية باللُّغة العربيّة. ومن العام ١٩٩٦م جرى الاستفتاء على الدّستور فأصبحت اللُّغتان الرسميّتان للدّولة هي العربيَّة والفرنسيّة بِنَصِّ الدّستور حسبما

جاء في المادّة التّاسعة منه، وشهِدت البلاد بعد هذا التّطوّر توظيف المتعلّمين باللّغة العربيّة وتقليدهم مَناصب راقية في الدّولة كوزراء ومديرين عامّين ومديرين فنّيّين.

وظهر عدد كبير من المؤسّسات العربيّة والجمعيّات التي تدافع عن اللّغة العربيّة، وبالمقابل ظهرت مؤسّسات أخرى تدعم العامّيّة، ومراكز أخرى خَصّصت منابرها لِدعم العامّيّة والدّعوة إلى تعليم الفرنسيّة فجاءت فكرة مَجمع اللّغة العربيّة من بعض المثقّفين ومنهم فضيلة الدّكتور الإمام حسين حسن أبكر –رحمه الله–، وطَوَّرَ الفكرة بعده الأساتذة في الجامعات والمعاهد لإحياء هذا المَجمَع لِيُصبح مِنبرًا رحبًا وفضاءً عامًّا يَجمَعُ كُلَّ المُثقّفين بالعربيّة.

مَجمَع اللّغة العربيّة في تشاد:

إنّ مَجمَع اللّغة العربيّة بتشاد منذ نشأتِه أخَذَ على عاتقه خدمة اللّغة العربيّة: نشرها وتطويرها وجَعْلها مواكبة للتّطوّر المذهل والسّريع علميًّا وإداريًّا وتقنيًّا. وإنّ الشّعب التّشاديّ الذي يفخر بِلُغَته التي مَثَّلَتْ وعاء مكوّناته الحضاريّة يطمح إلى جعلها أداةً في الإدارة والتّقنية مثلما كانت لغة التّعليم والتّواصل.

واستجابةً للنّداءات المتكرّرة من فئات شعبنا في مسألة التّعريب الواعي المُقابل للفرنسة الذي تسير به الدّولة التّشاديّة ذات اللّغتين الرّسميّتَين دولة ثنائيّة في كلّ ما يتعلّق بها؛ قام مَجمَع اللّغة العربيّة بتشاد في فترة وجيزة بالعديد من النّشاطات الأكاديميّة والفكريّة والثّقافيّة، وذلك بفَضْلِ الله ثم بجهود صاحب السّموّ الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسميّ عضو المجلس الأعلى حاكم إمارة الشّارقة –يحفظه الله ويرعاه– ورعايته السّامية، وبتوجيه مَجمَع اللّغة العربيّة بالشّارقة للوقوف معنا بِخِبْراته وتجاربه، استطعنا أنْ نُنَظِّمَ في هذه الفترة القصيرة بعض النّشاطات التي تتعلّق باللّغة العربيّة من ذلك:

– يوم ثقافيّ فكريّ بِمُناسبة انطلاق نشاطاته، بجامعة الملك فيصل.

– دورات مهنيّة تدريبيّة ترفع من مستوى العاملين في حقل اللّغة العربيّة، مثل: دورة للإعلاميّين في اللّغة الوظيفيّة والأسلوب العربيّ في الفترة من السّبت٧–١٤ أكتوبر٢٠٢٠ شارك نحو ٤٠ إعلاميًّا من مؤسّسات مختلفة: التّلفزيون والإذاعة، والصّحف العربيّة.

– دورة لِخُطَباء المساجد في اللّغة العربيّة وتقنيات الخطابة في الفترة من ١٢–١٧ نوفمبر٢٠٢٠م شارك فيها ١١٣ مُشاركًا من الأئمة في (أنجمينا) العاصِمة.

– إقامة مؤتمرٍ دوليّ بِمُناسبة اليوم العالميّ للُّغة العربيّة بِعُنوان: التّعريب في تشاد الوسائل –الإشكالات –الحلول، وكان شعار المؤتمر: نحو تطبيقٍ شاملٍ وفاعلٍ للُّغة العربيّة في تشاد. جاء هذا المؤتمر العلميّ لِبَحث مسألة التّعريب ومناقشة تطبيق الثّنائيّة اللّغويّة في تشاد في المجالات المجتمعيَّة المختلفة: (التّعليم والإدارة والإعلام، المرصد المصطلحيّ ...الخ) في الفترة التي تشهد فيها البِلاد نقلة نوعيَّة كبيرة نحو تأسيس دولة القانون التي لا تهملُ جوانبها التّأصيليّة. كان ذلك في يومَي: ١٧–١٨ ديسمبر. شارَك في تنظيم هذا المؤتمر إلى جانب المَجمَع جامعة الملك فيصل بتشاد، والمعهد الثّقافيّ الإفريقيّ العربيّ (باماكو)، والمعهد العالي للاتّصال والتّقنيّة بتشاد، والجامعة العربيَّة الإفريقيّة بمالي.

هذا، وقُدِّمَ في المؤتمر أكثر من ثلاثين عنوانًا في المحاور الآتية: (١) المحور التّأريخيّ، و(٢) المحور التّعليميّ، و(٣) محور التّخطيط والسّياسة اللّغويّة، و(٤) محور التّعريب في الإدارة العامّة، و(٥) محور المصطلح والتّرجمة، و(٦) محور الأدب والفنّ ودَورهما في التّعريب في تشاد.

ونظرا لِحداثة هذا المَجمَع في هذه البيئة كان لا بُدَّ من اتّصال بالمُؤسّسات النّظيرة، وإرسال وفد إلى القاهرة للوقوف على تجربة مَجمَع اللّغة العربيَّة بها والاستفادة منه، وزيارة اتّحاد المجامع اللُّغويّة وتقديم طلب لِتَسجيل المَجمَع ضمن اتّحاد المجامع اللّغويّة.

إرهاصاتُ التأليفِ المُعجميِّ عِنـدَ الـعـــربِ

أميـرة المعـلاوي
باحثة في المعجميّة
المعهد العالي للغات تونس- جامعة قرطاج

عرفَ العربُ التّأليفَ المُعجميَّ خلالَ العصرِ العبَّاسيِّ، وقد أرجعَ إميل يعقوب سببَ تأخُّرِ العربِ في الصناعةِ المُعجميَّةِ إلى أسبابٍ عِدَّةٍ، منها: انتشارُ الأُميَّةِ، فالذين يَعرفونَ القراءةَ والكِتابةَ قبلَ الإسلامِ قليلونَ، وذلكَ بسببِ طبيعَةِ الحياةِ الاجتماعيَّةِ القائمةِ عندَهُم علَى الغَزوِ والترحالِ؛ ومِن الأسبابِ أيضًا إتقانُهُم للغتِهم، فقدْ كانتِ العربيَّةُ عندَهم لِسانَ المحادثةِ والخَطابةِ والشِّعرِ.

وقدْ بدأتْ إرهاصاتُ التّفكيرِ المعجميِّ عندَ العربِ مَعَ بدءِ الرَّسائلِ اللُّغويَّةِ الّتي كانَ هَدَفُها شرحَ غريبِ القرآنِ، إلَّا أنَّ هذهِ الرَّسائلَ تَمحورتْ حولَ مَوضوعٍ واحدٍ، هو ما صعُبَ فَهمُهُ مِنْ مُفرداتِ القرآنِ، وما تَلَبَّسَ معناهُ في أذهانِ العامَّةِ.

ثمّ تعدَّدَتِ الرَّسائلُ اللُّغويَّةُ وتوالتْ، فَمِنْها على سبيلِ الذّكرِ: غريبُ القرآنِ لابنِ عبَّاسٍ، وغريبُ القرآنِ لأبي سعيدٍ البكريِّ، وغريبُ الحديثِ لأبي عُبيدةَ مَعْمرِ بْنِ المُثنَّى؛ ولعلَّ ما يُفسِّرُ تعدُّدَ هذهِ الرَّسائلِ التي تناولَتْ غريبَ القرآنِ في بَداءَةِ مَرحلةِ التَّدوينِ، هو حِرْصُ العربِ على تفسيرِه، خاصَّةً ما استَعصَى منهُ على الفَهمِ، كما أنَّ خوفَهُم على كِتابِ اللهِ وسعيَهُم إلى بُلوغِ معانيهِ جعلَهُم يَخافونَ فسادَ لُغَتِهِم، وهو مَطلَبٌ لنْ يتحقَّقَ إلَّا مِنْ خلالِ هذهِ الجُهودِ؛ ذلكَ أنَّ أهمَّ أسبابِ التَّأليفِ المُعجميِّ في العربيَّةِ قديمًا هو حمايةُ لُغةِ القرآنِ مِنَ الفسادِ، بل ومِنْ كُلِّ ما يمكنُ أنْ يشوبَها مِنْ ألفاظٍ دَخيلةٍ أو مُعرَّبةٍ أو مُولَّدةٍ أو عاميّةٍ؛ إذْ إنَّ الحفاظَ علَى منوالٍ فَصيحٍ هو النَّموذجُ الذي نَطَقَ بهِ الجاهليّونَ، ونزلَ بهِ القرآنُ الكريمُ، واستَعملَهُ العربُ الفُصحاءُ حتَّى أواخرِ القرنِ الثَّاني الهجريِّ، دونَما اعْترافٍ بِقوانينِ التَّطوُّرِ اللُّغويِّ أو تغيُّرِ حاجاتِ المُتكلِّمينَ.

وقَدْ نشأَ عَن ذلكَ نوعٌ مِنَ الرَّقابةِ اللُّغويَّةِ الصّارمةِ على المُعجماتِ العربيَّةِ القديمةِ، ضُبِطتْ بمقتضاهُ معاييرُ التَّأليفِ المعجميِّ وشروطُهُ، حتَّى يُتمكَّنَ مِن نقلِ الفَصيحِ الصَّحيحِ على أكملِ وجهٍ.

وقد حدَّدَ أحمدُ أمين مَراحلَ جَمْعِ اللُّغةِ بِثلاثِ مراحلَ، هيَ:

جَمعُ اللُّغةِ، فاللُّغويُّ يَرحلُ إلى الباديةِ ليسمعَ كلمةً في المطرِ، وأُخرى في الإبلِ، ويَسمعَ أسماءَ للأسدِ، وما إلى ذلكَ، فيُدوِّنَ ذلكَ كلَّهُ حسبَ ما سَمِعَ مِن دونِ ترتيبٍ.

جمعُ الكلماتِ المتعلقةِ بِموضوعٍ واحِدٍ.

وَضعُ المعجماتِ على نَمطٍ خاصٍّ في التَّرتيبِ، وقد كانَ مُعجمُ العينِ أوَّلَ المُعجماتِ العربيَّةِ (١).

وقد نَصَّ أبو نَصرِ الفارابيُّ (ت ٣٣٩هـ) في كتابِهِ الحُروفِ: وكانَ الذي تولَّى ذلكَ مِنْ بينِ أمصارِهِم أهلُ الكوفةِ والبَصرةِ من أرضِ العراقِ، فتعلَّموا لُغَتَهُم والفصيحَ منها مِن سُكّانِ البراري منهُم دونَ أهلِ الحَضَرِ، ثُمَّ من سُكّانِ البراري مَنْ كانَ في أوسطِ بلادِهم ومِن أشدِّهم توحُّشًا وجفاءً وأبعدِهِم إذعانًا وانقيادًا، وهم: قَيسٌ، وتميمٌ، وأَسَدٌ، وطيءٌ، ثم هُذَيلٌ؛ فإنَّ هؤلاءِ هُمْ مُعظمُ مَنْ نُقِلَ عَنهُ لِسانُ العربِ، وأمّا الباقونَ فَلَمْ يُؤخَذْ عنهُم شيءٌ؛ لأنَّهم كانوا في أطرافِ بلادِهم، مُخالِطين لِغيرِهم مِنَ الأُمَمِ، مَطبوعينَ على سُرعةِ انقيادِ ألسنَتِهم لألفاظِ سائرِ الأممِ المُحيطةِ بِهِم مِنَ الحَبَشَةِ، والهندِ، والفُرْسِ، والسّريانيِّينَ، وأهلِ الشّامِ، وأهلِ مصرَ(٢). وهو ما نقلَهُ السّيوطيُّ (ت٩١١هـ) عنهُ في الاقتراحِ، فقالَ ما نصُّه: «والذينَ عنهُم نُقِلَتِ اللُّغةُ العربيَّةُ وبِهِمُ اقتُدِيَ وعنهُم أُخِذَ اللِّسانُ العربيُّ مِنْ بَينِ قبائلِ العربِ، هُم: قَيس، وتَميم، وأَسَد: فإنَّ هؤلاءِ همُ الذينَ عنهُم أكثر ما أُخِذَ ومعظمه، وعليهمُ اتُّكِلَ في الغَريبِ وفي

---

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، (ص ١٩٨)
(٢) كتاب الحروف، الفارابيُّ(ص: ١٣٥- ١٤٧).

الإعراب والتَّصريف، ثُمَّ هُذَيلٌ وبعضُ كِنانة وبعضُ الطَّائيّين، ولم يُؤْخَذْ مِن غيرهم مِن سائرِ قبائلِهم، وبالجُملةِ فإنَّه لم يُؤْخَذْ عَنْ حَضَريٍّ قَطّ، ولا عن سُكّانِ البَراري مِمَّنْ كان يَسكُنُ أطرافَ بلادِهم التي تُجاوِرُ سائرَ الأُمَمِ الذين حَولَهم، فإنَّه لم يُؤخَذْ لا مِنْ لَخْم ولا مِنْ جُذام؛ فإنَّهم كانوا مُجاورين لأهلِ مصر والقِبْط، ولا مِن قُضاعةَ ولا مِنْ غَسّانٍ ولا مِنْ إياد؛ فإنَّهم كانوا مُجاورين لأهلِ الشّام، وأكثرُهم نَصارى يقرؤون في صلاتِهم بغيرِ العربيَّة، ولا مِنْ تَغْلِبَ ولا النَّمر؛ فإنَّهم كانوا بالجزيرة مُجاورين لليونانيَّة، ولا مِنْ بَكْرٍ؛ لأنَّهم كانوا مُجاورين للنَّبطِ والفُرْس، ولا مِنْ عبدِ القَيس؛ لأنَّهم كانوا سُكّانَ البحرين مُخالِطين للهِند والفُرْس، ولا مِنْ أَزْدِ عُمان؛ لِمُخالطتِهم للهِنْدِ والفُرْس، ولا مِن أهلِ اليَمَن أصلًا؛ لِمُخالطتِهم للهِنْدِ والحَبَشة ولولادةِ الحَبَشة فيهم، ولا مِنْ بني حَنيفةَ وسُكّانِ اليَمامة، ولا من ثَقيفٍ وسكّانِ الطّائف؛ لِمُخالطتِهم تُجّارَ الأُمَمِ المُقيمين عندَهُم، ولا مِنْ حاضِرَةِ الحِجاز؛ لأنَّ الذين نَقَلوا اللُّغةَ صادفوهُم حينَ ابتدَؤوا يَنقُلونَ لُغةَ العَرَبِ قد خالَطوا غيرَهُم مِنَ الأمَمِ وفَسَدَتْ ألسِنَتُهم»[٣].

وهو ما ذَكَرَه ابنُ خلدون (ت ٨٠٨هـ) في المُقدِّمة أيضًا، إذ يقولُ: «ولِهَذا كانَتْ لغةُ قُريشٍ أَفْصحَ اللُّغاتِ العربيَّةِ وأصرَحَها؛ لِبُعدِهم عَن بلادِ العَجَمِ مِنْ جَميعِ جِهاتِهم، ثُمَّ مَن اكتَنَفَهُمْ مِنْ ثَقيفٍ وهُذَيلٍ وخُزاعةَ وبني كِنانَةَ وغَطَفانَ وبَني أَسَدٍ وبني تَميم؛ وأمّا مَن بَعُدَ عَنهم مِنْ رَبيعةَ ولَخْمٍ وجُذام وغَسّانَ وإيادٍ وقُضاعةَ وعَرَبِ اليمنِ المُجاورينَ لِأُمَمِ الفُرْسِ والرّوم والحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُم تامَّةَ المَلَكةِ بِمُخالَطةِ الأعاجِم، وعلى نِسبَةِ بُعدِهِم مِن قريشٍ كانَ الاحتجاجُ بِلُغاتِهم في الصِّحَّةِ والفَسادِ عندَ أهلِ الصِّناعةِ النَّحويَّة»[٤].

ومِنْ هنا يُفهَمُ مبدأُ الصَّرامةِ المتَّبعُ عندَ جمعِ المُعجميِّ لِمُدَوَّنتِه القاموسيَّة، فقَدْ حُدِّدَتْ بِمُدَّةٍ زمنيَّةٍ معيَّنةٍ ورُبِطَتْ بِحُدودٍ جغرافيَّةٍ لا يمكنُ الخروجُ عنها؛ فَمُفرَداتُ المدوَّنةِ القاموسيَّةِ العربيَّةِ مفرداتٌ مُصْطَفاةٌ بفضلِ الشُّروطِ السّابقةِ الذِّكرِ وغيرِها مِنَ الشروطِ التي سَيَقومُ البحثُ بالنَّظرِ فيها لاحِقًا؛ بُغيَةَ الوصولِ إلى عَلاقةِ المعجمِ العربيِّ باللُّغةِ مِن جهة، وبالخِطابِ مِن جهةٍ أخرى، ويَبْقى السُّؤالُ، وهو: هل المعجمُ العربيُّ القديمُ سَعَى إلى نَقْلِ الخطابِ المُتَداوَلِ بينَ جماعةِ المتكلِّمينَ في فترةٍ ما، أمْ أنَّه سعَى إلى الإلمامِ بِلُغةٍ مُختارةٍ وِفْقَ مِنوالٍ مُعيَّنٍ بغضِّ النَّظرِ عمَّا استعملَهُ العربُ؟ هذا الإشكالُ سَنُحاولُ تَتَبُّعَهُ بدْءًا مِنَ المعجمِ العربيِّ القديمِ وانتهاءً بالمعجماتِ العربيَّةِ الحديثةِ. واختيرَ في البحثِ النَّظرُ في معجمِ العَينِ بوَصفِهِ نموذجًا لأوَّلِ المعجماتِ العربيَّةِ، ثُمَّ في معجمِ المقاييسِ لابنِ فارسٍ بوصفِهِ تجربةً قاموسيَّةً أتتْ بعدَ فترةٍ زمانيَّةٍ مُهِمَّةٍ، وذلك من خلالِ البحثِ عن أوجُهِ التَّقابُلِ وأوجُهِ التَّخالُفِ في المنهجِ والمُحتوى المُقدَّم؛ ثُمَّ النَّظرُ في معجمِ لسانِ العربِ لابنِ منظور، والمعجمِ الوسيطِ لِمَجْمعِ اللُّغةِ العربيةِ القاهريِّ؛ لِنَقِفَ على مراحلِ تطوُّرِ المعجمِ العربيِّ من حيثُ مُستوى شروطِ جَمْعِ الوحداتِ المعجميَّةِ (المدوَّنة) والوقوفِ على طبيعتِها، ثُمَّ إخضاعِها للوصفِ؛ وصولًا إلى الكشفِ عن عَلاقةِ المعجمِ العربيِّ الحديثِ باللُّغةِ وبالخطابِ.

(٣) الاقتراح للسيوطي (ص: ٤٤ - ٤٥).

(٤) مقدمة ابن خلدون (ص: ٤٤٩).

«السّحابة الشّرقيّة» تَسُحُّ شعرًا جميلًا

قراءة في ديوان «أفتّش عن حزن وجهي»

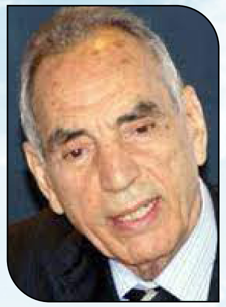

د/ عبد الملك مرتاض

ما أكثر ما يستهوي العلماءَ الشّعرُ! فتراهم يُقْبلون على قَرضِهِ؛ لأنّهم يجدون فيه المتعة النّفسيّة، ولأنّهم يلتمسون فيه اللّذّة الرّوحيّة. ونحن نعرف كثيرًا من المهندسين والأطبّاء والحقوقيّين عزفوا عن اختصاصاتهم الأصليّة، وأقبلوا على الكتابات الأدبيّة يجرّبون فيها ويُبدعون، لِمَا يجدون فيها من إمتاع لا يعدله إمتاع. وقديمًا كان كثير من النّقّاد وعلماء اللّغة والمعجميّين الكبار، قضاةً في أصلهم، فلم تحُلْ بينهم وبين الأدب حرفةُ القضاء. ونحن نعتقد أنّ العقل العلميّ إذا غُذِيَ بالخيال الأدبيّ ربما يكون أقدر على الإبداع، وأخصب في العطاء.

وهذا طارق عبد العزيز أبو عبيد، يُقْبل على كتابة الشّعر الجميل، على الرّغم من أنّه اليوم بصدد التّخصّص في حقل علميّ شاسع البعد عن الشّعر والأدب.. ولقد أهداني، مشكورًا، ديوانه: «أفتّش عن حزن وجهي»، الذي يشتمل على ثلاثٍ وعشرينَ قصيدةً، زعم بشأنها الأستاذ غازي القصيبي أنّها امتداد، من حيث طريقة كتابتها الفنّيّة، لشعر نزار قبّاني. ولكنّ هذا الحكم ليس ذمًّا بما يشبه المدح، ولا مدحًا بما يشبه الذّمّ؛ وإنّما هو مجرّد بحث عن إيجاد مَوْقع لهذا الشّاعر الشّابّ لكي يتموقع فيه، حيث كأنّه لا يزال بصدد البحث عن طريقه الفنّيّ في كتابة الشّعر الجديد.

وأن يشبَّه شاعرٌ، وهو في مبتدإ طريقه، بنزار قبّاني؛ فليس ذلك إلاّ فخرًا له وتقديرًا لمكانته التي يمكن أن يتموقع فيها مستقبلًا. ذلك أنّ نزار قبّاني يمثّل مدرسة شعريّة عربيّة كثيرة الأشياع على عهدنا هذا؛ فلا عجب أن تجد كثيرًا من الشّعراء الشّباب، في بلاد المشرق كما في بلاد المغرب، يكتبون الشعر على طريقته التي تبدو سهلةً ممتعةً، على الرّغم من ميل كثيرٍ من النّقّاد إلى إيثار الشّعر الأكثر إيغالًا في التّجريد، والأغور عمقًا في التّصوير.

فشعْر نزار قبّاني هو كالسّهل الممتنع، يسمعه السّامع فيرى كتابتَه سهلةً عليه، حتّى إذا حاول ذلك ارتدّ بقريحته وهو خاسئ حسير.. فإن ألفيت شاعرًا شابًّا مثل طارق عبد العزيز أبي عبيد، يحاول محاكاة نزار قبّاني في قصائدِ أوّلِ ديوانٍ له، فليس مردُّ ذلك إلاّ إلى تكوّنه في خلفيّة ثقافيّة شعريّة غدتْ مدرسة قائمة بذاتها، نقدًا وشعرًا، وهي مدرسة الملحق الثّقافيّ لجريدة «الرّياض» الذي فيه ترعرع أبو عبيد بفضل احتكاكه مع أكابر الشّعراء السّعوديّين الذين ينشرون فيه بخاصّة، والشّعراء العرب بعامّة.. أم ألم يكن الشّاعر «صحفيًّا متعاونًا في القسم الثّقافيّ في جريدة الرياض» طوال ثلاثِ سنوات؟ بل إنّا قد نخالف عن رأي الأستاذ القصيبي، فنزعم أنّ لطارق بن عبد العزيز تفرُّدًا خالصًا له، بما في شعره من نغمة الحزن، وبما فيه من ملامح التّشاؤم، فكأنّ هذا الشّاعر الفتى فقَد كلّ شيء لا يستطيع أن يعثر عليه أبدًا؛ ومع ذلك فهو يُصرّ على البحث عنه، أو قل: إنّه يُصرّ على التّعبير عنه، كما يعبّر عازف النّاي عن حزنه بالعزف الحزين الحنون على قصبته، فيحمّلها كلّ آلامه وأحزانه.. فطارق يريد أن يُوقِّرَ لغته الشعريّة بأحمال من الشّجون والأحزان، فتحتملها أطوارًا

د/ غازي القصيبي

على كُره، وتعجز عن احتمالها أطوارًا أُخَرَ.

وعلى أنّنا وقد ابتدأنا الحديث عن إمكان تأثّر طارق بن عبد العزيز بشعراء آخرين، فإنّنا لا نستبعد تأثّره ببدر شاكر السّيّاب في بعض شعره. غير أنّ ذلك لا ينقص من عمله الشعريّ فتيلًا، لأنّ الكتابات الأدبيّة –كما ثبَتَ الآن في النّقد العالميّ، وانطلاقًا من نظريّة التّناصّ– هي تناصّ كلّ أديب مع أديب آخر، سابق أو معاصر، فهو، في الحقيقة، صورة ما من غيره، سواء علينا أشعُر بذلك أم لم يشعر، وسواء أقرّ به أم لم يُقِرّ.

ونعود إلى قصائد ديوانه لنلاحظَ، فعلًا، أنّ طارق بن عبد العزيز يجنح للعمل على اللّغة وتشغيلها، وتوليد ألفاظِ بعضها من بعضٍ، وهو شأن الكتابة الأدبيّة الحديثة شعرها وسردها. كما نلاحظ أنّه يستثمر الطّاقات الإيقاعيّة الهائلة التي تتوافر عليها ألفاظ اللّغة العربيّة لينسج بها ومنها شعرَه؛ مع ما ينبغي أن نعلم أنّ اللغة المعجميّة لدى طارق بن عبد العزيز قد لا تخلو من بعض الْهَنَات التي تكثر في أشعار الشّعراء الشّباب الذين لا يجوّدون لغتهم ولا يحقّقون ألفاظها في المعاجم والأشعار والنّصوص الأدبيّة الكبيرة في القديم والحديث، مجتزئين بما يقرءون من نصوص في سوق العصر. وعلى الرّغم من بعض ذلك، فإنّ لغة طارق بن عبد العزيز المعجميّة نقيّة إلى حدّ بعيد. وما أومأنا إليه لا تكاد تخلو منه كتابة معاصرة لكثرة أخطاء الخاصّة، كما يقال.

يقول طارق بن عبد العزيز، في اللّوحة الأولى، من القصيدة الأولى في الديوان، وهي بعنوان: «تداعياتُ سحابةٍ شرقيّة»:

يسافر صوتُكَ
في جُدرانِ الضّجَرْ
ويُسْرجُ فيّ
مراكبَ شوقٍ
وليلَ سهَرْ
ويُشْعل قِنديلَ حُزْن قديمٍ
أذاب سَناهُ
بكائي... المطَرْ

بدر شاكر السياب

رطوبةُ صوتِك،
رائحةُ البحرِ
تسكن سمّاعةَ التِّلفُونْ
فتَهْدُرُ فيها
رياحٌ ومَدٌّ وجَزْرٌ
ويسكن فيها
حنين الزوارقِ
عند السفَرْ
بكاء النَّوارسِ،
أحزانُ قلبي التي لا تنامُ
بوقْتِ السحَرْ
يعطّر ليلَ «الرياضِ»
ويحمل روحي لِتغفُو
على «شَطِّ نصْف القمَرْ»

(طارق بن عبد العزيز، أفتّش عن حزن وجهي، ص: ٩-١٠).

إنّا نجد طارق بن عبد العزيز، من خلال هذه اللّوحة الشعريّة الجميلة، يصطنع ألفاظًا ذات ظِلال دلاليّة تشبه الألوان التي يصطنعها الرسّام البارع، بل قد تشبه روائح العطر التي يمازج بينها العطّار لتغدُوَ منعشة يشهق لها الشَّمَّام؛ وذلك أمثال: «يُسْرج». و«مراكب شوق»، «ويشعل قنديل حزن»، «المطر»، «رائحة البحر»، «فتهدر فيها رياح».. (وبالمناسبة فإنّ دالَ «تهدر» شُكِلتْ في نصّ الدّيوان بالضمّ، وذاك من هدْر الدّم ونحوه، ولكي تدلّ على الهدير، وهو المعنى المقصود في السّطر الشعريّ، كان يجب ضبط دالها بالكسر)، «أحزان قلبي التي لا تنام».

فكثير من هذه اللّغة الشعريّة يرسم صورًا فنّيّة بديعة تبدو مبتكرة، كقوله: «يسافر صوتك، في جدران الضّجر»؛ فالصّوت هنا في امتداده وانتشاره، وتنقّله وانتِثَاره، يغتدي كالمسافر الذي يجوب الفضاء فيتنقّل من مكان إلى مكان آخر. غير أنّ تنقّل صوت الشّاعر، أو سفره، لم ينتشر في الفضاء، ولا عرّج تلقاءَ السّماء؛ ولكنّه ارتطم بحاجز إسمنتيّ متين، وهو هذه الجدران التي تحول بين الصّوت وانتشاره إلى خارجها.. فسَفَرُ هذا الصّوتِ لم يكد يجاوز مدىً قريبًا لا يبلّغ رسالة، ولا يؤدّي لُبانة.

ودلالة السفر الشعريّةُ تعني التنقّل والحركة والاضطراب، وأكّدها اصطناع المعنى في صورة فعلٍ دالّ على الحاضر، أو على المستقبل (يسافر). في حين أنّ «الصّوت» هو تذبذُبٌ فيزيائيّ تُحْدثه أوتار الحنجرة باحتكاكٍ بينها معلومٍ، فينفجر فِعْلُ ذلك الاحتكاك صوتًا نحو الخارج ليبلّغ رسالة صوتيّة مبثوثة على نحو معلوم؛ فهو مُشاكلٌ للسّفر؛ كلاهما يدلّ على التنقّل والانتشار، وكلاهما، إذن، يدلّ على معنىً انتشاريّ، لا انحصاريّ؛ ممّا يُفضي بهما إلى التّشاكل المعنويّ. في حين أنّ قوله «في» مِن «في جدران الضّجر»، لا يدلّ على الانتشار، ولكن على الانحصار؛ وذلك بحكم أنّ «في» تظرف الحدث في ضيقٍ من الفضاء فتحصره حصرًا. ولا يقال إلاّ نحو ذلك في دلالة «جدران» التي تحول بين الصّوت وبين انتشاره نحو خارجها، فتحصره، هي أيضًا، حصرًا. وإذا تجاور معنىً انحصاريٌّ مع معنىً انحصاريٍّ آخر، أفضى ذلك التجاوُر إلى تشاكُل بينهما بحكم توحّد المعنيَيْنِ فيهما معًا. على حين أنّ الانحصار الوارد هنا، إنّما يقابل الانتشار الوارد هناك، ليكوّنا معًا دلالة نهائيّة تنتج حالة ثالثة هي التّباين بين الحالتين. وركْحًا على ذلك، فإنّنا نجد في سطرين شعريّين يتكوّنان من مجرّدِ أربعِ سِماتٍ لفظيّة: تشاكُلًا معنويًّا على سبيل الانتشار، وتشاكلًا آخرَ على سبيل الانحصار، وتبايُنًا يربط بينهما ليغتديا في حالة تناقض وتعارُض، لتنشأ عن كلّ ذلك ثلاثُ علاقاتٍ دلاليّة.

ويخيّل إلينا أنّ طارق بن عبد العزيز يحتمل في نفسه جبالًا من الهموم، على حداثة السّنّ، حتّى كأنّه يتوسّد الأحزان، ويفترش الأتراح. ولعلّ القصيدة القصيرة التي يختتم بها ديوانه هذا، والتي تعود كتابتها إلى زهاء عشر سنوات إلى الوراء، أن تدلَّ على بعض ذلك:

منذ آه
لم أذُقْ طعمَ ارتياحْ؛
منذ هم
ضاق بي رحْب الْبَرَاحْ؛
منذ حزنٍ
عذْبُ ألحاني نُوَاحْ؛
وابتسامي غاب عنّي
واستراحْ!
وشُجوني
لا تواسيها يدٌ
كي تصغُرَ الدّمعاتُ
أو تُنْسَى الجِراحْ؛
لستُ أدري
هل سيمحُو
ليلَ أحزاني صباحْ؟

(طارق بن عبد العزيز، م. س، ص: ١١٢-١١٧).

فما أمتعَ للنّفس أن تتلقّى مثل هذا الشّعر، وما أجملَ أن تستمتع به استمتاعًا إذا أُلقيَ عليها، أو قُرئَ لها؛ فليست الحياة، في غياب الشّعر، إلّا تفاهة ورتابة.

الشاعر طارق بن عبد العزيز

الحَــــذْفُ المُـقَـــدَّرُ في القُرْآنِ الكريمِ

د/ قاسم عثمان جبق

أنـزلَ اللهُ - سُبحانهُ وتعالى- القُرْآنَ الكريمَ بلُغَةِ العَرَبِ، وللعَرَبِ مَذاهبُ في كلامِها، ومِن تلك المذاهبِ أنَّها قد تَحْذِفُ بعضَ الكلماتِ في أَثْناءِ كلامِها، والشَّواهدُ الشِّعْرِيَّةُ والنَّثريَّةُ في كلامِ العَربِ على الحَذْفِ كثيرةٌ، وقد حَفلَ القرآنُ الكريمُ بِكَثيرٍ مِنَ الحذفِ في آياتِهِ، فَلَيسَ الحذفُ فيه دَخِيلا عليهِ، بل إنَّ لهُ فيهِ مَقامًا مَعلومًا، كيفَ لا؟ والعربيَّةُ لُغتُه، والحذفُ فيها مِنْ سَنَنِها، فيقولونَ في أمثالِهم: (اللَّهُمَّ ضَبُعًا وذِئْبًا) إذا كانوا يَدْعونَ بذلكَ على غَنَمِ رَجُلٍ، وإذا سألْتَهُم ما يَعْنُون قالوا: اللَّهُمَّ اجْمَعْ أو اجْعَلْ فيها ضَبُعًا وذئبًا. وكُلُّهُم يُفسِّرُ ما يَنْوِي، وإنَّما سَهُلَ تَفْسيرُه عِنْدَهم لأنَّ المُضْمَرَ قَدِ استُعْمِلَ في هذا المَوضِعِ عندَهم بإظهارٍ[1] .

وقد نَقَلَ سِيْبَوَيْهِ عن شَيْخِهِ أبي الخَطَّابِ الأَخْفَشِ الأكبرِ (ت١٧٧هـ) أنَّه سَمِعَ بعضَ العَرَبِ وقِيلَ له: لِمَ أَفْسَدْتُم مَكانَكُم هذا؟ فقالَ: الصِّبْيانَ بِأَبِي، كأنَّهُ حَذِرَ أن يُلامَ فقالَ: لُمِ الصِّبْيانَ[2]. وعَقَدَ ابنُ جِنِّي للحذفِ فَصْلًا في بابِ شَجَاعةِ العربيَّةِ في كتابِهِ «الخَصائص»، وأَوْرَدَ شواهدَ لِحَذفِ العَرَبِ الجُملةَ والمُفردَ (الاسم والفعل والحرف) والحَرَكةَ[3]، على أَنْ يَدُلَّ على الحذْفِ دليلٌ، وإلَّا كان تقديرُ المحذوفِ رَجْمًا بالغَيْبِ.

أسبابُ الحَذْفِ وشُرُوطُهُ وأغراضُهُ

ذَكَرَ عُلَماءُ العربيَّةِ للحَذْفِ أسبابًا كثيرةً، منها: كَثْرةُ الاستعمالِ، والضَّرورةُ الشِّعْريَّةُ، وطُولُ الكلامِ، وضِيْقُ المقامِ، وغيرُها، كما أنَّهم اشْتَرطوا للحَذْفِ شُروطًا، ذَكَرها ابنُ هشام في كتابِهِ مُغْنِي اللَّبيبِ، وفَصَّلَ فيها، وهي:

١- وُجُودُ دليلٍ حاليٍّ أو مَقاليٍّ.

٢- ألَّا يكونَ ما يُحْذَفُ كالجُزءِ.

٣- ألَّا يكونَ مُؤَكَّدًا.

٤- ألَّا يؤدِّيَ حَذْفُهُ إلى اختصارِ المُخْتَصَرِ.

٥- ألَّا يكونَ عِوَضًا مِن شيءٍ.

٦- ألَّا يكونَ عاملًا ضعيفًا.

٧- و ٨- ألَّا يؤدِّيَ حذفُه إلى تهيئةِ العاملِ للعَمَلِ وقَطْعِه عنهُ، ولا لإعمالِ العاملِ الضَّعيفِ مع إمكانِ إعمالِ العاملِ القَوِيِّ[4].

أمَّا أغراضُ الحَذفِ البَيَانيِّ، فقد بيَّنَ العُلماءُ أنَّ للحذفِ أغراضًا كثيرةً، منها: الإيجازُ، والبَيانُ بعدَ الإبهامِ، وصَوْنُ اللِّسانِ عن ذِكْرِ المحذوفِ تَحْقِيرًا له، وغيرُها.

ولا نَنْسَى أنَّ الحذفَ مِنَ الإيجازِ، وهو مِنْ طَبيعةِ كلامِ العَرَب، وقد أوضحَ أبو عَمْرِو بنُ العَلاءِ تِلكَ الحقيقةَ عندَما سُئِلَ: أَكانتِ العَرَبُ تُطيلُ؟ قالَ: نعم، لِتُبَلِّغَ. قِيلَ: أَفَكانتْ تُوْجِزُ؟ قالَ: نعم، لِيُحْفَظَ عنها. قالَ ابنُ جِنِّي بعدَ إيرادِهِ كلامَ أبي عمرٍو: «واعلمْ أنَّ العربَ – معَ ما ذَكَرْنا – إلى الإيجازِ أَمْيَلُ، وعنِ الإكثارِ أَبْعدُ»[5].

إنَّ المُتَأمِّلَ في القرآنِ الكريمِ يُمْكِنُهُ مُلاحظةُ وُرُودِ الحذفِ في آياتٍ كثيرةٍ، سواءٌ أكانَ المَحذوفُ جُملةً أم اسمًا أم فعلًا أم حرفًا، والمحذوفُ المَنْوِيُّ كالمَلْفُوظِ بـهِ[6]، وسأَعرِضُ في هذا المقالِ بَعْضَ آياتِ القرآنِ الكريمِ الَّتي لا يمكنُ أنْ تُفْهَمَ إلَّا إنْ قُدِّرَ المحذوفُ فيها، اسمًا كانَ أم فعلًا. ولا يُقْصَدُ بالحذفِ أنَّ في القرآنِ نَقْصًا في كلماتِهِ، فاللهُ –عزَّ وجلَّ– قد حَفِظَ كتابَهُ مِن النُّقْصانِ والزِّيادةِ واللَّحْنِ.

آياتٌ قرآنيَّةٌ كريمةٌ لا تُفْهَمُ دُونَ تقديرِ محذوفٍ

الآيةُ الأُولى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾ «النِّساء: ١٧١»

في هذهِ الآيةِ الكريمةِ يُخاطِبُ اللهُ –عزَّ وجلَّ– أهلَ الكتابِ ألَّا

(١) سيبويه، الكتاب، تح عبد السَّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م، ١/٢٥٥. وابن جني، الخصائص، تح محمَّد عليّ النَّجَّار، دار الكتب المصريَّة، ١٩٥٢م، ١/٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) ينظر: سيبويه، الكتاب، ١/٢٥٥.

(٣) ينظر: ابن جني، الخصائص، ٢/٣٦٠-٣٨١.

(٤) ابن هشام، مُغْنِي اللَّبيب عن كتب الأعاريب، تح د. عبد اللّطيف محمَّد الخطيب، المجلس الوطنيّ للثَّقافة والفنون والآداب، السِّلسلة التُّراثيَّة (٢١)، الكويت، ط١، ٢٠٠٠م، ٦/٣١٧- ٣٥٤.

(٥) ابن جني، الخصائص، ١/٨٣.

(٦) أبو البقاء الكفوي، الكليات، تح عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م، ص١٠٥٩.

يَغْلُوا في دينِهِم، ولابُدَّ مِن تقديرِ اسمٍ محذوفٍ قَبْلَ كلمةِ (ثلاثة)، مفهومٍ مِن سِياقِ الكلامِ، تقديرُهُ: الآلهةُ، ويُعْرَبُ مبتدأ، أيْ لا تقولوا: الآلهةُ ثلاثةٌ (اللهُ وعيسى وأمُّه مريم)، وثلاثةٌ: خبرٌ.

الآيةُ الثَّانيةُ: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «البقرة: ١٣٥»

في هذهِ الآيةِ يأمرُ اللهُ – سُبحانَه وتَعالى– عِبادَه المُسلمينَ ألَّا يتَّبِعُوا اليَهودَ والنَّصارى لَمَّا دَعَوْهم إلى التَّهَوُّد أو التَّنَصُّرِ، وسببُ نُزُولِ هذهِ الآيةِ أنَّ عبْدَ اللهِ بنَ صُورِيَّا الأَعْوَرَ قالَ لرسولِ اللهِ ﷺ: ما الهُدى إلَّا ما نَحْنُ عليهِ، فاتَّبِعْنا – يا مُحمَّدُ – تَهْتَدِ، وقالتِ النَّصارى مِثْلَ ذلكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى الآيَةَ[7]، ومعناها اتَّبِعُوا مِلّةَ مُوسى – عليهِ السَّلامُ – أو مِلَّةَ عِيسَى – عليهِ السَّلامُ – تهتدُوا، وقُلْ لهُم، يا مُحمَّدُ: بلْ نتَّبِعُ مِلَّةَ إبراهيمَ مُستقيمًا، ولا نُجيبُ دعوتَكم إلى التَّهَوُّد أو التَّنصُّرِ، فـ(مِلَّةَ) مفعولٌ بهِ لفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ: نتَّبِعُ.

الآيةُ الثَّالثةُ: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ «البقرة: ٢٨٣»

رِهانٌ: خَبَرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُهُ: الضَّامِنُ؛ لأنَّ تَوْثِيقَ الدَّيْنِ مَطْلوبٌ عِندَ المُدَايَنةِ، وذلكَ لِضَمانِ إعادةِ الدَّيْنِ إلى صاحبِهِ في المِيقاتِ المُحدَّدِ المُتَّفَقِ عليهِ، فإنْ لَمْ يُوجَدْ كاتبٌ لِتَوثيقِ الدَّيْنِ، فالضَّامِنُ هو رَهْنٌ يُقدِّمُهُ المَدينُ إلى الدَّائِنِ.

الآيةُ الرَّابعةُ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ «الإسراء: ٥٩»

إنَّ الظَّاهرَ في هذهِ الآيةِ أنَّ (مُبْصِرةً) حالُ النَّاقةِ، أيْ أنَّ النَّاقةَ ليستْ بِعَمْياءَ، وهي بذلكَ الوَصْفِ لا تُعدُّ آيةً (علامة) مِن اللهِ إلى نَبِيِّهِ صالِحٍ – عليهِ السَّلامُ – فلا بُدَّ مِنْ أَنْ تكونَ (مُبْصِرةً) صفةً لشيءٍ محذوفٍ قبْلَها، وهو كلمةُ (آيةً)، وإعرابُ (آيةً) حالٌ، ومعنى (مُبْصِرةً) بيِّنَة، وقد صرَّحَ اللهُ – عزَّ وجلَّ – بكلمةِ (آيةً) في مَوْضِعٍ آخرَ، فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾ «الأعراف: ٧٣»

وعلى هذا، فإنَّ تقديرَ كلمةِ (آيةً) قَبْلَ (مُبْصِرةً) واجبٌ لِفَهْمِ الآيةِ الكريمةِ.

الآيــةُ الخامسةُ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ «البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩»

رِجَالٌ: جَمْعُ راجلٍ، وهو الواقفُ، رُكْبان: جمعُ راكبٍ.

تُبَيِّنُ هذهِ الآيةُ كَيْفِيَّةَ صَلاةِ الخَوْفِ عندَ قِتالِ العَدُوِّ والالتحامِ بهِ، والمحذوفُ في هذهِ الآيةِ هو جوابُ الشَّرْطِ، وتقديرُهُ: فَصَلُّوا، أيْ أنَّ معنى الآيةِ فإنْ خِفْتُمْ فَصَلُّوا رِجالًا أو رُكبانًا، أيْ فَصَلُّوا واقفينَ على أَرْجُلِكم أو رَكائبِكُم، وإعرابُ (رجالًا) حالٌ منصوبةٌ.

الآيــةُ السَّادسةُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ «البقرة: ١٨٥»

المحذوفُ هنا الحالُ، وتقديرُها: صَحِيحًا بالغًا، أيْ مَنْ شَهِدَ الشَّهْرَ صَحِيحًا بالغًا فَلْيَصُمْهُ، قال ابنُ جِنِّي: «فَطَرِيقُهُ أنَّه لَمَّا دلَّت الدِّلالةُ عليهِ من الإجماع والسُّنَّة جازَ حَذْفُهُ تخفيفًا. وأمَّا لو عَرِيَتْ الحالُ مِنْ هذهِ القَرِينةِ وتجرَّدَ الأمرُ دُونَها لَمَا جاز حَذْفُ الحالِ على وَجْهٍ»[8].

الآيــةُ السَّابعةُ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾ «البقرة: ١٩٦»

المحذوفُ في هذهِ الآيةِ فِعْلٌ واسمٌ، أمَّا الفعل فَتَقْدِيرُهُ: حَلَقَ، وأمَّا الاسمُ، وهو خَبَرٌ مُقَدَّمٌ للمبتدأ (فِدْيَةٌ)، فتقديرُهُ: عليهِ، وبذلكَ يكونُ معنى الآيةِ مَنْ كانَ مريضًا أو يُعَانِي مِن قَمْلٍ في رَأْسه فَحَلَقَ في الإحرامِ أو اكْتَحَلَ أو تَداوَى بشيءٍ فيهِ طِيْبٌ فَعَلَيْهِ فِدْيَةٌ[9] وقدْ نَزَلتْ هذهِ الآيةُ في كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه وقد آذاهُ القَمْلُ في رَأْسِه، فَحُمِلَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا رآهُ النَّبيُّ – عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ – قالَ له: لَعَلَّكَ آذاكَ هَوامُّك، قالَ : نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ، ﷺ: اِحْلِقْ رَأْسَك، وَصُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَساكِينَ، أَوْ انْسُكْ بِشَاةٍ[10].

الآيةُ الثَّامنةُ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ «القصص: ٢٣، ٢٤»

في هاتَينِ الآيتينِ حَذْفٌ للمفعولِ بهِ في أربعةِ مَواضعَ، ومعنى الآيتينِ ولمَّا وَرَدَ مُوسى – عليهِ السَّلامُ – ماءَ مَدْيَنَ وَجدَ عليهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ مَواشِيَهُم أو أَغْنامَهُم ووجَدَ مِن دُونِهِمُ امرأتينِ تَذُودانِ غَنَمَهُما قالتا: لا نسْقِي غَنَمَنا... فسَقى لهما غَنَمَهما... ولا رَيْبَ في أنَّ السِّرَّ البلاغيَّ لهذا الحذفِ أنْ يَعْلَمَ القارئُ وُجُودَ السَّقْيِ مِن النَّاسِ، والذَّوْدَ والسَّقْيَ مِن المرأتينِ، وسَقْيَ مُوسَى للمرأتينِ، ورَحِمَ اللهُ الجُرْجانيَّ إذْ قالَ مُوَضِّحًا نُكْتَةَ هذا الحذفِ: «وما ذاكَ إلَّا أنَّ الغَرَضَ في أنْ يُعْلَمَ أنَّه كانَ مِن النَّاسِ سَقْيٌ، ومِنَ المرأتينِ ذَوْدٌ، وأنَّهما قالتا: لا نسقي حتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ، وأنَّه كانَ مِنْ موسى – عليهِ السَّلامُ – مِن بَعْدِ ذلكَ، سَقْيٌ. فأمَّا ما كانَ المَسْقِيُّ؟ أَغنَمًا أمْ إبلًا أم غَيْرَ ذلكَ، فَخَارِجٌ عِن الغَرَضِ، ومُوْهِمٌ خِلافَهُ»[11].

الآيــةُ التَّاسعةُ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ «الكهف: ٧٩»

المحذوفُ في هذهِ الآيةِ صِفَةُ السَّفينةِ، وتقديرُها: صالحةٍ، ومعنى الآيةِ أنَّ ذلكَ المَلِكَ الظَّلومَ يأخذُ كُلَّ سفينةٍ صالحةٍ غَصْبًا، فحُذِفَتْ الصِّفَةُ للسَّفينةِ، ولو أنَّ المَلِكَ كانَ يأخذُ كُلَّ سفينةٍ صالحةً كانتْ أمْ غَيْرَ صالحةٍ لَمَا كانتْ هناكَ فائدةٌ مِن إحداثِ خَرْقٍ في السَّفينةِ الَّتي رَكِبَها موسى – عليهِ السَّلامُ – والرَّجلُ الصَّالحُ، وقد ذُكِرَ في بَعْضِ القِراءاتِ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ – رضيَ اللهُ عنْهُما – كانَ يقرأُ: وكانَ أمَامَهم مِلكٌ يأخذ كُلَّ سفينةٍ صالحة غَصْبًا[12].

الآيــةُ العاشرةُ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ «الفجر: ٢٢»

المحذوفُ في هذهِ الآيةِ هو المضافُ، وتقديرُهُ: وجاءَ أَمْرُ رَبِّكَ،

(٧) ابن هشام، السيرة النبوية، تح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٥٥م،١/٥٤٩.

(٨) ابن جني، الخصائص، ٢/ ٣٧٨، ٣٧٩.

(٩) ينظر: أبو جعفر النحاس، معاني القرآن، تح محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المرمة، ط١، ١٤٠٩ه، ١/ ١٢٠. وابن جني، الخصائص، ٢/ ٣٦١.

(١٠) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ، رقم الحديث: ١٨١٤، ٣/ ١٠.

(١١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، دار المدني، جدة، ط٣، ١٩٩٢م، ص١٦١.

(١٢) ينظر: معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، ٤/ ٢٧٦. والخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، د.ت، ٣/ ١٨٧.

أي: عذابُه، وذلك أنَّ العَقْلَ دلَّ على استحالةِ مَجيءِ الباري؛ لأنَّهُ مِن سِماتِ الحادثِ، وعلى أنَّ الجائي أمْرُه[١٣].

الآيـةُ الحادية عشـرة: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ «طه: ٩٦»

المحذوفُ فيها مُضافانِ، والتَّقديرُ: فقَبَضْتُ قَبْضَةً مِن ترابِ أثَرِ حافرِ فَرَسِ الرَّسولِ[١٤].

الآيةُ الثانية عشرة: ﴿وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ «يوسف: ٨٢»

المحذوفُ فيها المُضافُ، والتَّقديرُ: واسألْ أهلَ القريةِ وأهلَ العِيْرِ، إذ لا يَصِحُّ إسنادُ السُّؤالِ إليهما[١٥].

الآيةُ الثالثةَ عَشرَة: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ «البقرة: ٩٣»

المحذوفُ في هذه الآيةِ هو المُضافُ، وتقديرُهُ: حُبَّ العِجْلِ، قالَ أبو عبيدة: سُقوهُ حتَّى غَلَبَ عليهم[١٦].

والمُلاحظُ في الآياتِ الأربعةِ السَّابقةِ أنَّ المحذوفَ هو المُضافُ، وحَذفُ المُضافِ كثيرٌ في القرآنِ الكريمِ وفي كلامِ العربِ[١٧].

الآيةُ الرابعةُ عشرة: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ «البقرة: ١٧٣»

المحذوفُ هو الفعلُ، وتقديرُهُ: فأكَلَ فلا إثمَ عليه.

الآيةُ الخامسةُ عشرة: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. «البقرة: ١٨٤»

(١٣) ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ٣/١٠٩. والسيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ١/٢٣٥، ٢٣٦.

(١٤) قال ابن جني: « وربَّما حَذفت العرب المضاف بعد المضاف مُكرَّرًا؛ أُنسًا بالحال ودلالةً على موضوع الكلام، كقوله عزَّ وجلّ: (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ)، أي: من أثر حافر فرس الرسول». ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح، تح علي النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح شلبي، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، د. ط، ١٩٩٤م، ١/١٨٨. وابن هشام، مغني اللبيب، ٦/٤١٦.

(١٥) ينظر: أبو البركات الأنباري، أسرار العربية، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٠٢. وابن هشام، مغني اللبيب، ٤/١١٩، ٦/٤٠٩. والزركشي، البرهان، ٣/١٤٨.

(١٦) ينظر: أبو عبيدة، مجاز القرآن، تح محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت، ١/٤٧.

(١٧) قال ابن جني في المحتسب، ١/١٨٨: « وحَذْفُ المضاف في القرآن والشِّعْر وفصيح الكلام في عَدد الرَّمْل سَعَةً ». وقال في الخصائص، ٢/٢٨٤: « كما أنَّ حذف المضاف أوسعُ وأَفْشَى، وأعمُّ وأَوْفَى ».

المحذوفانِ مِنْ هذه الآيةِ فِعْلٌ واسمٌ، أمَّا الفعلُ فتقديرُه: فَأَفْطَرَ، وأمَّا الاسمُ، وهو بَعْدَ الفاءِ الواقعةِ في جوابِ الشَّرْطِ، ويصحُّ تقديرُهُ مبتدأً أو خبرًا، والتقديرُ: فالواجبُ عِدَّةٌ مِن أيَّامٍ أُخَرَ أو فعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَرَ واجبٌ صِيامُها.

الآيةُ السَّادسةُ عَشرَة: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «آل عمران: ١٧٥»

المحذوفُ مِن هذه الآيـةِ هو المفعولُ بهِ الأوَّلُ، وتقديرُهُ: المؤمنينَ، فيكونُ معنى الآيـةِ أنَّ الشَّيطانَ يُخوِّفُ المؤمنينَ أولياءَهُ، وذهَبَ الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ وأبو عليٍّ الفارسيُّ إلى أنَّ أولياءَهُ اسمٌ منصوبٌ بنَزْعِ الخافضِ، والتَّقديرُ: يُخَوِّفُكُم مِن أوليائِهِ، أو بأوليائِهِ، وقد يَجوزُ أنْ يكونَ معنى الآيةِ أنَّ الشَّيطانَ يُخَوِّفُ أولياءَهُ، وهُم القاعدونَ عنِ القتالِ مِن المُنافقينَ، قالَ هذا بعضُ المُفسِّرينَ.

الآيةُ السَّابعةُ عَشرَة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ «المائدة:٦»

إنَّ المُقدَّرَ المحذوفَ مِن هذه الآيةِ هو الفِعْلُ (اغْسِلُوا)، وهو مُقَدَّرٌ قَبْلَ (أرْجُلَكم)، وإعرابُ (أرجلَكم) مفعولٌ به للفعلِ المُقدَّرِ، وقدْ دلَّ على هذا الفعلِ الشَّرْعُ، لأنَّ الرِّجْلَ في الوُضوءِ تُغْسَلُ، ولا يَجوزُ أنْ تُمْسَحَ، وعلى هذا لا يَصِحُّ أن تكونَ (أرجلَكم) مَعْطُوفةً على (رؤوسِكم) كي لا تَشترِكَ معَها في حُكْمِ المَسْحِ، ولا يجوزُ أنْ تُعْطَفَ على (وُجُوهِ) للفَصْلِ بينَهُما.

الآيـةُ الثَّامنةَ عَشـرَة: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ «الأعراف: ١٦٠»

المحذوفُ مِن هذهِ الآيةِ هو التَّمييزُ بعدَ (اثنتي عَشْرَةَ)، وتقديرُه: فِرْقةً، ولا يجوزُ أنْ يكونَ (أسْباطًا) تمييزًا لِسَبَبَيْنِ: الأوَّلُ أنَّ تمييزَ العَدَدِ المُركَّبِ مُفْرَدٌ منصوبٌ، و(أسباطًا) جَمْعٌ، جَمعُ سِبْطٍ.

الثَّاني: أنَّ (أسْباطًا) مُذَكَّرٌ والعددُ مُؤنَّثٌ، فلو كانَ تمييزًا لَوَجَبَ أن يكونَ العددُ اثْنَيْ عَشَرَ.

ويُعْرَبُ (أسباطًا) بَدَلًا مِن(اثنتي عشرة) أو صِفةً لـ (فِرْقةً) التَّمييزِ المحذوفِ، و(أممًا) صفةً لـ (أسباطًا).

الآيـةُ التَّاسعةَ عَشـرَة: ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ «النساء: ١٦٢»

المحذوفُ مِن هذهِ الآيةِ هو فِعْلٌ محذوفٌ قَبْلَ كلمةِ (المُقيمينَ)، تقديرُهُ: أمْدحُ، وعلى هذا يكونُ إعرابُ (المقيمينَ) مفعولًا بهِ لهذا الفعلِ المحذوفِ، وعِلَّةُ قَطْعِ هذه الصِّفةِ عن الصِّفاتِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ تِبْيانُ فَضْلِ الصَّلاةِ على غَيْرِها.

تجدُّدُ الرُؤيَةِ في قصيدةِ حافظ:

رجعْتُ لنفسِي

دراسةٌ بلاغيةٌ حجاجية

حافظ إبراهيم

إذا كان الأدبُ ديوانَ الأممِ الحافظ لأمجادِها المعرب عن أيامها، فإنَّ ضربًا من النُّصوصِ الأدبيَّةِ يكونُ شاهدًا على العصرِ وممتدًّا ليرحلَ في الزَّمانِ ضاربًا بقَيْدِ التّاريخِ عرضَ الحائطِ متحقِّقًا في أزمنةٍ ممتدَّة؛ إنَّه أدبٌ خالدٌ بخُلودِ أسئلته الإنسانيَّةِ الّتي يُثيرُها فينا. واليومَ يَطيبُ لنا استحضارُ أمجادِ اللُّغةِ العربيَّةِ الثَّريَّةِ العظيمةِ التي بَخَسَها بعضُ أهلها حقَّها بدَعوى قُصورِها عنِ احتواءِ العلمِ والمعرفةِ. استحضارًا للأمجادِ لا على سبيلِ التَّغنّي بالماضي التَّليدِ والبُكاءِ على الرَّسمِ البالي؛ وإنَّما لأنَّ وقفةً متأنيَّةً معَ حالِنا وحالِ لُغَتِنا يَدْعونا للنُّهوضِ بها والسُّموِّ بشأنها نحوَ الذّرى والعلياءِ ما تستحقُّهُ لغةٌ هي وعاءُ القرآنِ الكريم. يَحضُرُني أيضًا في هذا المقامِ قولُ ابنِ خلدونَ: «إنَّ غلبةَ اللُّغةِ بِغَلَبَةِ أهلها، وإنَّ مَنزِلَتَها بينَ اللُّغاتِ صورةٌ لِمَنْزِلَةِ دَولتها بينَ الأُممِ». لذلكَ فإنَّه لا مَناصَ من القولِ إنَّ شأوَ لُغتنا هو معيارُ تقدُّمنا وإنَّ تَبْخيسَ قَدْرِها ليس سِوى انْحطاطٍ بِهِمَمِنا نحوَ الحَضيضِ.

د/ رفعت الكنياري

في هذا الصَّدَدِ نُعيدُ إلى الواجِهَةِ قصيدةً هي لِسانُ حالِ العربيَّةِ اليومَ كما كانتْ لسانَ حالِها يومَ قيلَتْ في ظُروفٍ وحَيثيّاتٍ مُختلفَةٍ، قصيدة حافظ إبراهيمَ النّاطقةَ بلسانِ العربيَّةِ المُعاتِبةِ أهلَها على ما فَرَّطوا في جَنْبِها وأسئلتها متجدِّدةَ اليومَ، نُعيدُ قراءتَها اليومَ مُتوسلين بآلياتِ البلاغةِ؛ العِلْمَ القديمَ الجديدَ الذي ما فَتِئَ مؤخَّرًا يعودُ لساحةِ تحليلِ الخطاباتِ بكِفايَةٍ مُنقطِعَةِ النَّظيرِ على تلمُّسِ مواطنِ الجمالِ والإبداعِ والإفادةِ في النُّصوصِ. ولعلَّ هذه القراءةَ تُسعِفُنا في تَلَمُّسِ مواطنِ الراهنيةِ في قصيدةِ حافظِ إبراهيمَ: «رجعْتُ لنفسي»، ويُعيدُنا إلى أسئلةِ الهويّةِ والمعرفةِ والعَلاقةِ بالآخرِ.

إنَّ التَّحليلَ الذي نَطلبُهُ في لَحظتِنا هذه يَرومُ اسْتِجْلاءَ مَكامِنِ البلاغةِ في القصيدةِ؛ وحينَ نقولُ البلاغةَ فإنَّنا لا نَقْصِدُ قوائمَ الصُّورِ البلاغيَّةِ فَحسْب، وإنَّما نَقْصِدُ مَفْهومًا رَحْبًا للبلاغةِ رحابةَ الإبداعِ الإنسانيِّ. بلاغةٌ ترى في النَّصِّ بُعدَهُ الإنسانيَّ الخلّاقَ وتبحثُ فيه عن آليّاتِ التَّعبيرِ والتَّواصلِ التي توسَّلَها النَّصُّ لِيُحقِّقَ تواصُلَه الجَماليَّ والتَّداوليَّ الحِجاجيَّ مَعَ القارئِ.

وحيثُ إنّنا نرى أنَّ إعادةَ القراءةِ إعادةُ حياةٍ، فإنَّنا نَتلمَّسُ راهنيةَ السّؤالِ عَبْرَ إعادةِ بَعْثِه مِنْ خِلالِ بَحْثِ تساؤلاتٍ تَشَظَّتْ حولَ النَّصِّ وطافَتْ حولَ خاصِرَتِه. هل كانَ حافظ ذا دعوى ورؤيةٍ ورسالةٍ مُحرِقةٍ مُقلِقةٍ هي التي حرَّكَتْ منهُ الشَّجَنَ فأبدَعَ ذا النَّصَّ الذي خُلِّدَ في صفحاتِ التّاريخِ؟ أَمْ أنَّها مُجرَّدُ أحاسيسَ جيّاشَةٍ تحرَّكَتْ في الصَّدْرِ لحظةَ حَميَّةٍ فانثالتْ كلماتٍ على جَسدِ القصيدةِ؟ حيرةُ السّؤالِ تَتَداعى لِتُوَرِّقَ القارئَ ولِتُعيدَه إلى نُقطةِ البدايةِ: كيفَ دمجتِ القصيدةُ أُفُقَ الجمالِ والأَنْفاسِ الحَرّى وسُلْطَةَ الكلمةِ والرُّؤيا الخلّاقةِ، بأُفقِ الدّفاعِ والمُحاورةِ والذَّوْدِ عن الحِياضِ والمنافحةِ عن العربيَّةِ الغَرّاءِ؟ وهل كانَ الشِّعرُ يومًا إلّا هذا الدَّمجَ وهذا الانْصِهارَ بينَ أُفُقَيِ الجماليِّ والحِجاجيِّ؟ «رجعتُ لنفسي» «كما رجعتِ العربيَّةُ» فوجَدْتُني أَتلَمَّسُ بلاغةَ نَصٍّ أعجبَني وأفحمَني وأطربَني وحرَّكَ منّي الحميَّةَ «وما هي بِحَميَّةِ الجاهليَّةِ» لأُعيدَ النَّظَرَ في قصيدةٍ تستحقُّ بحقٍّ أنْ تُدْرَجَ ضمنَ مُعلّقاتِ القرنِ العشرين(١).

بَنَتِ القصيدةُ بلاغَتَها الخاصَّةَ بالارتكازِ على ثلاثِ إستراتيجيّاتٍ هي: صورةُ الذّاتِ المُدافِعَةِ عن نفسِها في موقفِ السِّجالِ ورَدِّ الدّعاوى، فَصُوَرُ التّأثيرِ في المُتلقّي بما هو قَصْدُ الخطابِ الذي لا تَحقُّقَ له خارجَ حدودِه. ثُمَّ أخيرًا إستراتيجيّاتُ الصُّورِ الخطابيَّةِ التي تَمنحُ الخطابَ فاعليَّتَه وَوُجودَه الأدبيَّ، وهي الجِسرُ الرّابطُ بين العقلِ والحسِّ.

١- الإستراتيجيَّةُ الأولى: صورُ الذّاتِ

إنَّ صُورَ الذّاتِ في القصيدةِ تُصبِحُ شَكْلًا من أشكالِ الإقناعِ والتّأثيرِ في المتلقّي وحيثُ إِنَّ اللُّغَةَ العربيَّةَ مُدانَةٌ من لَدُنِ أهلِها

---

(١) نحيل هنا إلى دراسة الناقد سعيد بكور الصادرة بمجلة العربي العدد ٦٨٣، أكتوبر ٢٠١٥، بعنوان معلقات القرن العشرين.

قَدَّمَها حافظٌ في سياقِ الجدالِ والدِّفاعِ أي ما يُسمّى في البلاغةِ بالسّياقِ القضائيِّ، لقد كانَ حافظُ إبراهيم ذكيًّا حينَ وارى صَوتَه وأعلَنَ صوتَ العربيَّةِ صادِحةً مُتكلِّمَةً؛ إنَّ استِعْمالَهُ ضميرَ المُتكلِّم المُفردِ (أنا) جَعَل المُتلقّي أمامَ كَيانٍ ناطِقٍ شاكٍ هُمومَهُ مُعاتِبٍ أهلَهُ. ولا شَكَّ أنَّ ذلكَ أَضْفى على الخِطابِ حميميَّةً وحيويَّةً؛ ذلكَ أنَّ ضميرَ المتكلِّمِ (أنا) يُعبِّرُ عن الذّاتِ في مُقابِلِ الذّواتِ الأُخرى، فَهُو يَزيدُ من (شَخْصنَةِ) اللُّغةِ العربيَّةِ ويَمنَحُها حُضورًا حَقيقيًّا وصوتًا مَحسوسًا تُدافِعُ بهِ عَنْ نَفْسِها، ولا شَكَّ أَنَّ هذا الاختيارَ كفيلٌ بِجَعْلِ المتلقّي يَتَفاعَلُ أكثرَ مع المُتكلِّمِ عوضَ اعتِمادِ سُلْطَةِ الرّاوي، إنَّها الخُطّةُ الأولى لاسْتِعْمالِ صورةِ الذّاتِ في المُحاجّةِ؛ وكَأَنَّ العربيَّةَ تُسْكِتُ صوتَ المحامي وتَنطِقُ بِنَفْسِها صادحَةً في وَجهِ من ظَلَمَها قائلةً له: أنا مَنْ سَيُدافِعُ عنْ نَفْسِه اليومَ. لذلك وتماشيًا مع خطّةِ حافظٍ سَنُواري كُلَّ صوتٍ خلا صوتِ العربيّةِ وسَنَجْعَلُها النّاطقةَ اليومَ فينا، المُتكلّمةَ عن نفسِها، المدافعةَ عَنْ دَعْواها.

استَعْمَلَتِ القصيدةُ لتقديمِ الذّاتِ تقنياتٍ مُتعدِّدةً اختَرْنا منها ثلاثًا: دلالاتِ اختيارِ الحديثِ بِضَميرِ المُتكلّمِ/ تقنيةَ القَدْحِ الذّاتيِّ/ تقنيةَ مُهاجَمَةِ الخصمِ والتَّبخيسِ منْ قيمتِهِ.

أ . دلالاتُ الاختيارِ:

اختارتِ القصيدةُ ضميرَ المُتكلِّم أنا للحديثِ عنِ العربيّةِ، فَلَمْ تَجعَلْ بينَها وبينَ المُتلقّي وسيطًا، وكان بالإمكانِ اختيارُ ضميرِ الغائبِ وتَنصيبُ حافظٍ نفسَهُ مُدافعًا عنِ العربيَّةِ، لكنَّ هذا الاختيارَ سَيكونُ أقلَّ فاعليَّةً وأَدْنى في الإِقناعِ، ذلك أنَّ وَضْعَ العربيَّةِ مباشَرةً في مُقابلِ المتلقّي من غيرِ وُجودِ طَرَفٍ ثالثٍ بَينَهُما وإِكسابَها صِفَةَ النّاطِقِ المُدافعِ عن نَفْسِه زادَ في درجةِ الحميميَّةِ بين العربيَّةِ ومُتَلَقّيها الذي يَبْدو أنّه على ضَربَينِ: مُشْتكًى منهُ ومُشْتكًى لهُ. نتأمَّلُ قَولَ العربيَّةِ:

رَموني بِعُقْمٍ في الشَّبابِ وَلَيْتَني
عَقِمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَولِ عُداتي

المُخاطَبُ هنا مُشْتكًى مِنْه، رامٍ العربيَّةَ بالعُقْمِ، مبخسٌ من شَأْنها، عدوٌّ لها، ومُشتكًى إليه تَرومُ اسْتِمالَتَه وتَحريكَ مشاعِرِ الغَيرةِ عليها فيهِ. يَصيرُ الاختيارُ هنا معطًى بلاغيًّا يُضْفي طابِعَ الحميميَّةِ بين المتكلِّم والعربيَّة، ويُلْغي الوسيطَ الذي يوحي وُجودُه بِإِمكانيَّةِ سؤالٍ: ومن كَلَّفكَ بالدّفاعِ عن العربيَّةِ؟ ومَن قالَ لكَ بأنَّها تَشعُرُ بِما تَشعُرُ به؟ أمّا ما فعلَه حافظٌ فإنَّه قالَ لها: ها أَنْتِ وأهلُكِ قولي لهم ما تَشائينَ إنّي هنا قاعِدٌ أتفرَّج.

ب. القَدْحُ الذّاتيُّ:

في هذهِ التّقنيةِ يَعمُدُ المتكلِّمُ إلى إِظهارِ الذّاتِ بِمَظْهَرٍ مُنَفِّرٍ لكي ينقَضَّ على خَصْمِه ويُهاجِمَهُ بِطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ، ومِنْ أمثلتِها في خطاباتِنا اليوميَّة قولُنا:«أنا أحمقُ لأنّي قضيْتُ كلَّ هذا الوقتِ استمعُ لكَ». فهي هجومٌ على الذّاتِ للتَّقليلِ مِنْ شأنِ الآخرِ والهُجوم عليه. نعودُ لِنَفْسِ البيتِ السّابق:

رَموني بِعُقْمٍ في الشَّبابِ وَلَيْتَني
عَقِمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَولِ عُداتي

إنَّ اللُّغةَ هنا تدعو على نَفْسِها وتَتَمَنّى لو كانتْ حقًّا عقيمًا كما وَصَفها أعداؤُها حتّى لا تَجزعَ إذا وُصِفَتْ بما فيها أَصلًا. إنَّ التَّقليلَ مِنْ شأنِ الذّاتِ هنا بِتَمَنّي العُقْم يَنْطَوي على أَمْرَينِ: الأَوَّلُ أنَّها ليسَتْ عقيمًا فلا يدعو الإنسانُ لِتَحصيلِ الحاصِلِ وإِنَّما لِنَيلِ ما يَفتَقِرُ إليهِ وما هو منهُ خالٍ. فهذه دعوى غيرُ مباشرةٍ مُبْطِلَةٌ لدعوى المُغْرِضينَ القائلينَ فيها الأقاويلَ. وأمّا الأمرُ الثّاني الذي انطوَتْ عليهِ الأُمنِيةُ فهو التَّقليل من شأنِ الخَصْمِ بِجَعلِه غيرَ قادرٍ على التَّمييزِ مِنْ جهةٍ وبِجَعْلهِ لِجَهالَتِهِ لا يَستحِقُّ سِوى لُغةٍ عقيمٍ تكونُ لُغتَهُ، فأمّا العربيَّةُ الوَلودُ الوَدودُ فإنَّهُ ليسَ مِنْ مَنزِلَتِها. هكذا شنّعتْ العربيَّة على مُهاجميها بطريقَةٍ غيرِ مُباشرةٍ.

ج. مُهاجمَةُ الخصمِ والتَّبخيسِ مِنْ قيمَته

تقولُ العربيَّة:

وَلَدتُ وَلَمّا لَمْ أَجِدْ لِعَرائسي
رِجالًا وَأَكْفاءً وَأَدْتُ بَناتي

ما زالتِ اللُّغَةُ تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِها دعوى العُقْمِ مِنْ طَريقِ التَّنقيصِ مِنْ قيمةِ الخصمِ، فَلَيْسَتِ العربيَّةُ هي العقيمُ غيرُ الولودِ، وإنَّما قلَّةُ الرِّجالِ الأَكْفاءِ هو مَنْ جعَلَها تَرتَكِسُ فَتَئِدُ بناتِها لمّا لَمْ تَجِدْ لهنَّ كُفْؤًا. هذهِ إدانةٌ كُبرى وَرَمْيٌ بالفسولةِ مُقابلَ دعوى العُقْمِ. والتّقنيةُ هنا تَجعَلُ الأمورَ معكوسَةً والمعاييرَ مقلوبَةً وتَرُدُّ المدعي على أعقابِهِ مُنتَكِصًا. إِنَّ بناءَ صورةِ الذّاتِ تقومُ هنا على هدْمِ صورةِ الخَصْمِ وترجيحِ كفَّةِ الذّاتِ مقابلَ الخَصْمِ. إنَّها إدانةٌ صريحةٌ لِأَهلِ العربيَّةِ الذين لَمْ يَستَثْمِروا لُغتَهُم ولَمْ يُطوِّروها حتّى أَدْخَلوها حالةً وَصَفوها فيما بعْدُ بالعُقْمِ، فما جَنَتْ بَراقِشُ إلّا على أهلِها. وهذه الإِدانَةُ مِنْ جِهةٍ أُخرى دعوةٌ لاسْتِنْهاضِ الهِمَمِ لِتَخصيبِ هذه اللُّغةِ؛ فَهَل لِبَناتِها مِنْ عرائسَ أَكْفاءٍ؟

إذا كانتِ الإستراتيجيَّةُ الأولى قد ركَّزَتْ على صُوَرِ الذّاتِ باعتبارها ذاتًا ناطقةً عن الحَقِّ المَسْلوبِ منها ، وركَّزَتْ على دَفْعِ الدَّعاوى عنها لِتَلْميعِ صورَتِها فإنَّ الإستراتيجيَّةَ الموالِيةَ تَرومُ التَّأثيرَ في المُتَلقّي لِحَمْلِه على العودَةِ عَنْ غَيِّه السّادِرِ فيهِ.

٢ - صورُ التَّأثيرِ في المُخاطَبِ

اعتَمَدتِ القصيدةُ على انفِعالَينِ اثْنَينِ هما التَّقْريعُ الذي يَنجُمُ عنه النَّدَمُ على التَّفريطِ، والتَّخويفُ الذي يُرامُ منه اسْتِنْهاضُ الهِمَمِ وبَعْثُ العُنْفوانِ في دماءِ شَبابِ العربيَّةِ للَّحاقِ بِرَكْبِ الأممِ مُتَسلّحينَ بلُغَتِهِم وواعينَ بِحَقيقَةِ هويَّتهم؛ لقدْ عمدتِ العربيَّةُ إلى التَّقريعِ؛ تقريعِ أَهلِها لِما فَرَّطوا في جَنْبِها ففي قَولِها:

فَيا وَيْحَكُمْ أَبْلى وتَبْلى مَحاسِني
ومِنْكُمْ وإِنْ عَزَّ الدَّواءُ أُساتي

تقريعٌ شديدٌ وعِتابٌ كبيرٌ دَلَّ عليهِ لفظُ (وَيْحَكُمْ)؛ فَكَيفَ لا يَنهضُ أهلُ العربيَّةِ لِبَعثِها وخِدمتِها وتِبْيانِ مَحاسِنِها وقُدرتِها، وفيهِم من يستطيعُ ذلكَ رغمَ صُعوبةِ المهمَّةِ. نلاحظُ أنَّ الخطابَ هُنا مُوجَّهٌ للمُتلقّي المُشْتَكى إليهِ لا منهُ، فالثّاني قَلَّلَتْ مِنْ شأنِهِ في البدايةِ وَرَمَتْهُ بالقُصورِ سابقًا. أمّا المُتلقّي المشتكى إليهِ فما زالتْ ترجو منه خيرًا وتَبتَغي له العِزَّةَ والسُّؤدُدَ لذلكَ فما زالتْ تَتَلَطَّفُ له في الخطابِ وتَمْزُجُ القَسوةَ والتَّقريعَ بِقَليلٍ من الرَّجاءِ،

فإنَّه من الحُمْق معاداةُ الجميع. إنَّ خِطابًا كهذا لكَفيلٌ بإثارةِ مشاعرِ الحميَّة والغيرة في الشَّباب المُخْلِص لها الذي ينْبَري لِقول: أنا لها أنا لها.

ويسْتَمِرُّ هذا اللَّوْمُ المَشوبُ بالعِتابِ والرَّجاءِ في قولها:

أَيَهْجُرني قَوْمي عفا الله عَنْهُمُ
إلى لُغَةٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِرُواةِ

الاستفهامُ الاستنكاريُّ هنا للتَّعجُّب والاستغراب وإبداءِ الأسى والحُزن وهو يقومُ شاهدًا على حقيقةِ انْفِعالِ الذَّاتِ المُتكلِّمة حيث إنَّ أفضلَ وسيلةٍ لإثارةِ المَشاعِرِ في السَّامعين هي أنْ يتمثَّلَ القائلُ نفسُهُ مشاعرَه ويَتقمَّصَ حقيقةَ أحاسيسه. والحقُّ أنَّ درجةَ إثارةِ انفعالِ المُتلقِّي تبلُغُ ذُروتَها في هذا البيتِ الذي تبرَّمَتْ فيه العربيَّةُ من الهُجرانِ والخُذْلانِ في مشهدٍ دراميٍّ يهزّ المشاعرَ ويُحرِّكُ الانفعالات. واستنفرَتْ مشاعرَ التَّعاطُفِ والنُّصرة.

الانفعالُ الثَّاني الذي لجأَتْ إليه العربيَّةُ هو التَّخويفُ مِنْ سوءِ المَصير، وهو الذي أجْمَلَتْه في قولها:

إلى مَعْشَرِ الكُتَّابِ والجَمْعُ حافِلٌ
بَسَطْتُ رَجائي بَعْدَ بَسْطِ شَكاتي
فإمَّا حياةٌ تَبْعَثُ الميتَ في البِلى
وتُنْبِتُ في تلكَ الرُّموسِ رُفاتي
وإمَّا مَماتٌ لا قِيامَةَ بَعْدَهُ
مَماتٌ لَعَمْري لَمْ يُقَسْ بِمَماتِ

فَبَعْدَ الرَّجاءِ والشَّكوى والتَّقْريعِ والعِتابِ آنَ أوانُ التَّحذيرِ مِنْ مَغبَّةِ الإهمالِ والتَّفْريط؛ فإمَّا أنْ يَنْهَضَ أَهْلُ العربيَّةِ لِبَعْثِ الحياةِ فيها مِن جديدٍ وإمَّا أنْ يعودَ ما طالَها من إهمالٍ عليهم بالخُسْرانِ والذُّلِّ والهَوان، ولعلَّ هذه الأبياتَ تُعيدنا لقول ابن خلدون السَّابق: «غَلَبةُ اللُّغةِ بِغَلَبةِ أهلها». إنَّ هذه الأبياتَ تَدُقُّ ناقوسَ الخَطَرِ بعْثًا للهِمَمِ وتَخويفًا مِنْ خطورةِ الارتكاسِ الحضاريِّ الذي غَرِقْنا فيه إلى الذُّقون. لقد عَمِلَتِ القصيدةُ على إنْماءِ مشاعرِ الخوفِ من التَّقهقُرِ في وهدات السَّديم لعلَّ أهلَ العربيَّةِ يَسْتَفيقون ويُحِسّون بالخَطَرِ المُحدِقِ بهم من كُلِّ جانبٍ، فَهلْ للقصيدةِ مِنْ سامعٍ واعٍ؟

٣-الإستراتيجيَّةُ الثَّالثةُ: توظيفُ صُوَرِ الخطاب

لا يُمْكِنُ حصر الوجوه والصُّوَرِ المُستعمَلَةِ في هذا الحيِّزِ الضَّيِّقِ لأنَّ القصيدةَ تَعُجُّ بالأساليبِ البلاغيَّة، لكنَّنا سَنَنْتَقي عيِّنةً نركِّزُ من خلالِها على وظيفيَّةِ الصُّوَرِ البلاغيَّةِ في سياقِ النَّصِّ المُدافِعِ عن الذَّات.

لعلَّ أشهرَ بيتٍ في هذه القصيدةِ هو قولُ العربيَّة:

أنا البَحْرُ في أَحْشائِهِ الدُّرُّ كامِنٌ
فَهَلْ سَأَلوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفاتي

بَنى هذا البَيتُ بلاغَتَهُ استنادًا إلى التَّمثيل analogie والذي يرومُ إقامةَ تَناظرٍ بينَ مَنطقَتَيْنِ متباعدتين، فقدْ أقامتِ اللُّغةُ العربيَّةُ تَناظُرًا بينَها وبينَ البحرِ المِعطاءِ الزَّاخِرِ بالخَيرات، فَخَصائصُ البحرِ المُضمَرَةِ التي لَمْ تُذْكَر في البيتِ واخْتُزِلَتْ في ملفوظِ «البحر» تَطْوي تحتَ ثَناياها ثيماتِ الرَّحابةِ والسَّعَةِ والعَطاءِ والخَيرِ الكثير... فإذا كانتِ العربيَّةُ بَحرًا وكانَ البحرُ بتِلكَ الصِّفاتِ انْدَفَعَتْ تلقائيًّا دعاوى الضِّيقِ والقصورِ الموجَّهَةِ للعربيَّة. هذه هي الوظيفةُ الأولى التي اضطلعَ بها التَّمثيلُ في البيتِ، أمَّا الوظيفةُ الثَّانيةُ فهي التَّخصيصُ لِمَن تخصَّصَ، فإنَّ الرَّحابةَ والسَّعةَ والعطاءَ الذي للبحرِ صفاتٌ مبذولةٌ للجميع ولكنَّها ليستْ كُلَّ ما في البحرِ من جميلِ الصِّفاتِ، فالغوَّاصُ الذي يَسْبِرُ الغَورَ يستخرجُ الدرر واللآلىء وهي دعوةٌ للمُتخصِّصين بأنْ يستنْفروا جهودَهم العلميَّةَ للغوصِ في أعماقِ العربيَّةِ مُستخْرِجين ما فيها مِنْ محاسِنَ وقدراتٍ كبيرةٍ ومفتّقين قريحَتَها لِيَسيلَ مَعينُها سَلْسَبيلًا لا يَنْضَب.

ولا نَنْسى أنَّ السَّامِعَ يعلمُ ما في البَحرِ مِنْ خيراتٍ تعزُ عن الحصرِ، فهذه من خصائصِ البحرِ عندَ أهلِ العربيَّة، فطالَما وَصَفوهُ بالجُودِ والكَرَمِ والعَطاء. فَيَظْهَرُ أنَّ سماتِ المشبَّهِ به مشهورةٌ معلومةٌ مُتواترةٌ في الثَّقافةِ العربيَّة. وفي هذا البيتِ القائمِ على التَّناظُرِ والتَّمثيلِ انتقلَتْ هذه الخِصالُ إلى العربيَّةِ التي يبدو أنَّها أَحسَّتْ أنَّ أهلَها قد نَسُوا أنَّها زاخرةٌ وافرةٌ معطاءةٌ فذكَّرتْهم بهذه الخِصالِ بقولها «أنا البحرُ».

ثم عمَّقَتْ مشهديَّةَ التَّناظُرِ عن طريقِ تحويلِ العلاقةِ إلى علاقةٍ حسيَّةٍ صرفةٍ حين استدْعَتْ صورةَ الغَوَّاصِ العارفِ بأسرارِ الصَّدَفات. وهكذا لعِبَ هذا البيتُ – الذي ظلَّ عالقًا في كَيانِنا الجَمعيِّ عُلوقَ المُعلَّقات– دورًا كبيرًا في تحريكِ قلَقِ السُّؤال، سؤالِ الذَّاتِ والآخَر، الهويَّةِ الخاصَّةِ والمؤثّراتِ الأجنبيَّة، التَّفاعلِ والخصوصيَّة. زِدْ على ما قُلناهُ دَوْرَ السُّؤالِ الاستفهاميِّ الاستنكاريِّ الذي قام بدورِ التَّنبيهِ والتَّوبيخِ وفرْكِ الأُذُن. ولسانُ حالِ العربيَّةِ قائلٌ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ «القلم ٣٦». فأيُّ النّاسِ سألتُمْ حتّى حَكَمتُم؛ أسألْتُمُ الخُبراءَ باللُّغةِ الغواصينَ على دُرَرِها؟ أم استَشَرْتُم الذائقينَ لمعانيها الرافلينَ في نَعْماءِ جَمالِها؟ أمْ أنَّها مجرَّدُ ظُنونٍ؛ وهل يُغْني الظَّنُّ مِنَ الحقِّ شيئًا؟

إنَّ للاستفهامِ دورًا بلاغيًّا يَتَجاوَزُ وظيفتَهُ الأساسَ المُقتضيةَ طلبَ الفَهْمِ، وعُدِلَ به إلى سياقٍ تداوليٍّ بلاغيٍّ مُنصهِرٍ في بِنْيَةِ النَّصِّ التَّواصليَّةِ الإقناعيَّةِ التي نَسَجَها المُتكلِّمُ مُحاجِجًا لِدَعواهُ.

الحديثُ ذو شُجونٍ. وإلى هنا يَنْتهي بنا المطافُ وفي القلبِ بقيَّةٌ وشيءٌ مِنَ القصيدةِ، ولكنَّنا نَخْشى الإطالةَ. بَيْدَ أنَّهُ يجدُرُ بنا القولُ إنَّ بلاغةَ القصيدةِ بُنِيَتْ على رَدِّ دعوى المُغرضينَ الدّاعينَ إلى نَبْذِ العربيَّةِ وتَرْكِها والاستعاضةِ عنها بالعاميَّةِ وباللُّغاتِ الأجنبيَّة، وأنَّ القصيدةَ قيلَتْ في مناسبةٍ كَثُرَ فيها الهمزُ واللمزُ في أوساطٍ رسميَّةٍ وأدبيَّةٍ حتّى اشتدَّ الخِلافُ وطَغى. فَفريقٌ يُؤَهِّلُها لاستيعابِ الآدابِ والعلومِ والمعارفِ الحديثةِ، وفريقٌ جَحودٌ يَتَّهِمُها بالقُصورِ والبِلى والضِّيق... وبما أنَّ المُناسبةَ شَرْطٌ؛ فإنَّ ظُروفَ التَّكوينِ تَتَكَرَّرُ في زَمانِنا،

وها نحنُ يَطلُعُ علينا أقوامٌ مِنْ بَني جِلدَتِنا يلوكون نفْسَ الكَلامِ ويُكرِّرون بِسَماجَةٍ نفسَ الخِطابِ العَقيم؛ فَهل للعربيَّةِ مِنْ مُعِزٍّ يَذودُ عن حِياضِها؟ ذلكَ ما كُنّا نَبْغي استِشرافَهُ مِنْ خلالِ إعادةِ هذه القَصيدةِ للواجِهَة.

المصاحبة اللفظيّة وجماليّات التّعبير القرآنيّ

د/ إبراهيـم سنـد إبراهيـم
أستاذ جامعيّ بكليّة دار العلوم-مصر

لقد حفلت لغة القرآن الكريم بظاهرة المصاحبة اللفظيّة، والمقصود بها: «مجيء كلمة في صحبة كلمة أخرى»[1]، وهي تؤدّي دورًا بارزًا في تحديد الدّلالة، وفهم المعنى المراد، وهي نمط من أنماط العلاقات الدّلاليّة بين الألفاظ في التّراكيب اللغويّة.

وللمصاحبة اللفظيّة دورٌ بارزٌ في إزالة الغموض وتفسير الإبهام، فكلمة (يوم) من المبهمات، ولكن عند مصاحبتها للفظ آخر يزول عنها الإبهام والغموض[2].

فإذا صاحبت هذه الكلمة كلمة أخرى في سياق النّصّ القرآنيّ اكتسبت معنى دلاليًّا جديدًا بحسب اللفظ المصاحب لها؛ وذلك كالمصاحبة بين لفظَيْ (يوم) و(الفرقان) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ «الأنفال: ٤١».

ويوم الفرقان هو يوم بدر، وفيه التقى المسلمون والمشركون؛ فكان النّصر حليف المسلمين، وفرّق الله فيه بين الحقّ والباطل.

أو المصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(حنين) في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ «التّوبة: ٢٥».

أي: يوم غزوة حنين، وكانت في السّنة الثّامنة للهجرة، وفيها نصر الله المسلمين بعد أن أصابتهم الهزيمة أول المعركة؛ لأنّهم أُعجِبوا بكثرتهم فظنّوا أنّهم لن يغلبوا عن قلّة.

أو المصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(الزّينة) في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ «طه: ٥٩».

وهو يوم عيد عند اليهود، وقد سُمّي بهذا الاسم لأنّ النّاس يتهيّأون فيه بكامل زينتهم، وقد اختاره نبيّ الله موسى عليه السلام ليكون ميقاتًا وميعادًا بينه وبين سحرة فرعون؛ فأيّده الله تعالى فيه بمعجزته، أو المصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(الظّلة) في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ «الشعراء: ١٨٩»، وهو اليوم الذي أهلك الله تعالى فيه أصحاب الأيكة «أصحاب نبيّ الله شُعَيْب عليه السلام»، حيث أظلّتهم سحابة فتجمّعوا تحتها فأمطرت عليهم نارًا أحرقتهم.

أو المصاحبة اللفظيّة بين لفظي (يوم) و(القيامة) أو غيرها من الألفاظ اللغويّة التي تدلّ على هذا اليوم، إذ عبّرَ القرآن الكريم عنه بألفاظ متعدّدة، وبأكثر من صورة تركيبيّة من خلال المصاحبة اللفظيّة، ففي إطار العلاقة النّحويّة الرّابطة بين المضاف والمضاف إليه، عبّر القرآن الكريم عنه بألفاظ مثل: (يوم القيامة)، و(يوم الفصل)، و(يوم الحساب)، و(يوم الدّين)، و(يوم الحسرة)، و(يوم الوقت المعلوم)، و(يوم البعث)، و(يوم الفتح)، و(يوم التّلاق)، و(يوم الآزفة)، و(يوم التّناد)، و(يوم الوعيد)، و(يوم الخلود)، و(يوم الخروج)، و(يوم الجمع)، و(يوم التّغابن)... إلخ، وإنّ إضافة لفظ (يوم) إلى أيٍّ من هذه الألفاظ المتعدّدة، تضيف معنى جديدًا إلى التّركيب اللغويّ في النّصّ القرآنيّ؛ وذلك مثل المصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(القيامة) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ «السّجدة: ٢٥».

والمصاحبة اللفظية بين (يوم) و(الفصل) كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ «الصافات: ٢١».

والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(الحساب) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ «ص: ٢٦».

والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(الحسرة) كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ «مريم: ٣٩».

---

(١) المصاحبة في التّعبير اللغويّ، محمد حسن عبد العزيز، ص:١١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٢) ينظر: المصاحبات اللغوية في صحيح البخاري، ساجدة إبراهيم قوتة، ص:٢١، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م.

والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(الوقت المعلوم) كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ «الحجر: ٣٧-٣٨»

والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(البعث) كما في قوله تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ «الروم: ٥٦»، ... وغيرها الكثير والكثير من الآيات القرآنيّة التي جاء فيها لفظ (يوم) مصاحبًا للفظ آخر عن طريق علاقة الإضافة.

إن مصاحبة لفظ (يوم) للفظ آخر مثل (القيامة) أو (الفصل) أو (الحساب) أو (الحسرة) أو (الفتح) أو (التّلاق) أو (التّناد) أو (الوعيد) أو (الخلود)... أو غيرها من الألفاظ اللغويّة الأخرى، يزيل الإبهام والغموض في اللفظ المبهم؛ فيتّضح معناه من خلال اللفظ المصاحب له؛ وبذلك يتّضح أثر المصاحبة اللفظيّة في إزالة الإبهام والغموض في التّراكيب اللغويّة التي يجيء فيها اللفظان متصاحبين؛ وهذا بدوره يسهم في كشف دلالات النّصّ القرآنيّ.

وتتعدّد الصّور التّركيبيّة للمصاحبة اللفظيّة، فقد تكون بين المضاف والمضاف إليه (كما في الآيات القرآنيّة السّابقة)، أو بين الصّفة والموصوف، أو بين المعطوف والمعطوف عليه، أو بين الفعل والفاعل[1]، وفي إطار العلاقة التّركيبيّة الرّابطة بين الصّفة والموصوف عبر القرآن الكريم عن يوم القيامة بألفاظ متعدّدة مثل: (اليوم الآخر)، و(يوم عظيم)، و(يوم كبير)، و(يوم أليم)، و(يوم محيط)، و(يوم مشهود)، و(يوم عسر)، و(يوم معلوم)، و(يوم عسير)... إلخ.

فالمصاحبة اللفظيّة بين (اليوم) و(الآخر) كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ «العنكبوت: ٣٦»، والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(عظيم) كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ «الأنعام: ١٥»، والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(كبير) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ «هود: ٣»، والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(أليم) كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ «هود: ٢٦»، والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(محيط) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ «هود: ٨٤»، والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(مشهود) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ «هود: ١٠٣»، والمصاحبة اللفظيّة بين (يوم) و(عسير) كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ «المدثر: ٨-٩».

وعبّر القرآن الكريم بالمصاحبة اللفظيّة عن هذا اليوم أيضًا، من خلال جملة الوصف الواقعة بعد لفظ (يوم) النّكرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ «البقرة: ٢٥٤»، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ «آل عمران: ١٠٦»، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ «المائدة: ١١٩»، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ «إبراهيم: ٤٨»، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ «مريم: ٨٥»، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ «طه: ١٠٢»، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ «الأنبياء: ١٠٤»، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ «الشعراء: ٨٨»، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ «الدخان: ١٠»، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ «الدخان: ١٦»، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ «الطور: ٩».

(٣) ينظر: المصاحبة في التّعبير اللغويّ، محمد حسن عبد العزيز، ص: ١١.

ففي هذه الآيات القرآنيّة الكريمة جاء لفظ (يوم) نكرة، وجاءت الجمل الاسميّة بعده في موقع (النّعت/ الصّفة)؛ لتصف هذا اليوم وما فيه من أهوال وعذاب شديد للكافرين، أو لتصف ما فيه من نعيم دائم مقيم للمؤمنين، فالمقصود باليوم في هذه الآيات القرآنيّة الكريمة هو (يوم القيامة)، وقد عبّر عنه القرآن الكريم من خلال جملة النّعت الفعليّة المصاحبة للفظ (يوم)؛ وبذلك نلاحظ أنّ الكلمة الواحدة تكتسب معانيَ جديدةً في السّياق اللغويّ بالمصاحبة اللفظيّة؛ ممّا يسهم في تنمية الثروة اللفظيّة للغة العربيّة.

والمصاحبة اللفظيّة تكون بين المتلازمات في أبواب النّحو العربيّ، وتكون على مستوى النّمط الاسميّ، كالمصاحبة بين المضاف والمضاف إليه، أو المصاحبة بين الصّفة والموصوف، أو المصاحبة بين المعطوف والمعطوف عليه، وقد تكون المصاحبة اللفظيّة على مستوى النمط الفعلي كالمصاحبة بين الفعل والفاعل؛ ومن ذلك المصاحبة اللفظية بين الفعل (حبط) وفاعله (العمل) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ «المائدة: ٥»، وقد كَثُرت المصاحبة اللفظيّة بين هذين اللفظين (حبط) و(العمل)، ويؤيّد هذا كثرة الآيات القرآنيّة التي جمعت بينهما في النّصّ القرآنيّ.

والمصاحبة اللفظيّة تُبرِز دور الارتباط اللغوي بين اللفظين المتصاحبين في بنية التّركيب اللغويّ، وتبرز قيمة الإعجاز اللغويّ في اختيار ألفاظ القرآن الكريم، وتُسهم بدور كبير في تفسير دلالات الألفاظ ومعانيها؛ ممّا يبرز أهميّة الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم.

المعـجـم الـرّقـمـيّ المنـشـود

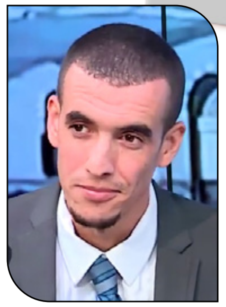

د. مُحمّد حـرّاث
جامِعةُ الشّلف - الجَزائِر

تكْمُنُ أهميَّةُ وضْعِ مُعجَم رقميّ/ إلكترونيّ/ حاسوبيّ للُغةِ العربيَّة؛ في أنَّه أكبرُ عاملٍ مِنْ عواملِ السُّرعةِ في الوصولِ إلى المعلومة. والعربيَّةُ كَغيرِها من اللُّغاتِ التي وُضِعَت لها معاجم رسميَّة، تحتاج بالضَّرورة إلى وَضْعِ معجم رسميٍّ يكونُ مَرجِعًا أساسًا للباحثِ عن معنى أيِّ لفظةٍ أو مُفردة، ضِمنَ سياقاتِها الاستعماليَّة، وتداولاتها الدَّلاليَّة، ومعانيها المعجميَّة المختلفة.

ذلك أنَّنا نعيشُ عَصْرَ تقانات، وعَصْرَ سُرعة، وعَصْرَ تَيسيرِ الحصولِ على المعلومة، إنَّه عَصْرُ رقمنةِ كلِّ شيء، حتَّى المعلومة والأفكار والأمور المعنويَّة؛ لذا وَجَبَ على العربيَّة عامَّةً، وعلى المعجم العربيِّ خاصَّةً، مواكبة هذا التَّطَوُّرِ الرَّقميّ.

١- مفهوم المعجم في الدَّرس اللِّسانيِّ الحديث:

يَقومُ مفهومُ المعجم في الدَّرسِ اللِّسانيِّ الحديث على مبدأ التَّحوّل، لمواكبةِ تطوُّرِ الحياة؛ لأنَّ المعجم امتداد للبنية الفكريَّة السّائدة في عصره. لذا فهو قائم على جَدَليَّةِ التَّطوّرِ والثَّبات. كما أنَّ وظيفتَهُ لم تَبْقَ محصورةً في حمايةِ اللُّغةِ فقط، كما كانت في الدَّرسِ اللُّغويِّ القديم، بل صارت وظيفتُه أيضًا التَّعبير عن العَصْر ومُتَطلَّباتِه، فشاعَ الاقتراضُ مِنْ حَضاراتٍ/ لُغاتٍ أُخرى .

ثُمَّ أصبحت المُعجَماتُ أكثرَ تَخصُّصًا؛ لأنَّها أصبحَتْ تُراعي مُستوى القارئِ وحاجيّاتِه، فَظَهَرتْ معاجم موجَّهةٌ للأطفال، ومعاجم لغويَّة مُتخصِّصَة: معجم لسانيّ/ سيميولوجيّ/ صوفيّ/ نقديّ... ومعاجم أُخرى في مجالات ثقافيَّة متعلّقة بالحياة اليوميَّة: معجم سياحيّ/ اقتصاديّ/ عسكريّ/ طبيّ/ فلسفيّ... حتّى وَصَلْنا في الدّرسِ اللّسانيّ المعاصر، الّذي طَغَتْ عليه الرَّقمنةُ في جميع مجالاته، إلى ضرورةِ وَضْعِ مُعجَمٍ رقميٍّ/ حاسوبيٍّ، يَستَجيبُ لِمُتطلَّباتِ العَصْرِ الرّاهن.

٢- أهميَّة المعجم الرَّقميّ:

يَحِقُّ لنا أنْ نَتساءلَ: ما حاجتُنا اليومَ إلى مُعجَم رقميّ؟ أو أنْ نَتَساءل بِصيغةٍ أُخرى: لماذا اخْتَرنا التَّنبيهَ والتَّنويهَ بِضَرورةِ تَصْفيفِ مُعجَم رقميّ للُغةِ العربيَّة؟

ونُجيبُ قائلين: يَجِبُ أن نعلَمَ أنَّ المعجم في أيِّ لُغَةٍ هو الحامي الأوَّل والأهمّ لِتِلْكَ اللُّغة، والباحث العربيّ اليوم يتَّجِهُ إلى البَحثِ رقميًّا أكثرَ مِنَ البحثِ في بُطونِ أُمّاتِ المعاجم، وبِما أنَّ في الشَّابكة زَخَمًا كبيرًا من المحاولاتِ المُعجميَّة غير المُرَشَّدة، تجعل الباحث في حَيرة، مِنْ أيِّها يأخذ، ومن أيِّها يَسْتَقي. كانت الضَّرورةُ مُلِحَّةً لِوَضْعِ مُعجَم يكونُ المَرجِعَ الأساس، والمَعْلَم البارز الذي يستطيعُ الباحثُ الأكاديميّ خاصَّة، أنْ يَثِقَ فيه، دون الرُّجوعِ للتَّأكّد مِنَ المَظانِّ الأساسيَّةِ القديمة.

وإذا ما نَظَرْنا إلى وَضْعِ حالَةِ المُعجم على الشَّابِكة، وَجَدْناها عبارة عَنْ مَعاجم قديمةٍ مَنْسوخَةٍ أو مُصَوَّرَةٍ أو مَرْقونَة، فهي مَعاجِمُ وَرَقيَّةٌ في شَكْلٍ رقميّ لا غير، وشتّان بينها وبين المُعجَمِ الرَّقميّ، وَفْقَ المُعطَياتِ العِلميَّةِ العالَميَّة.

حاجَتُنا اليوم كَبيرةٌ إلى مُعجم رقميّ، يَهتَمُّ بالتَّغيُّر، فهُوَ معجَمٌ مُتَغيِّر، والتَّغيُّر هنا لا يَعْني الاسْتِغناء عن المعاجم القَديمة، وإنَّما هو تغيُّرُ تَطَوُّر، لا تَغَيُّر استبدال. فالمُعجمُ الالكترونيُّ يَحمِلُ الخُصوصيّاتِ الدّلاليّةَ التّاريخيّةَ والمُجتمعيّةَ والتّداوليّة، وحتّى الدّلالاتِ النَّفسيّةَ الاجتماعيّة.

يقولُ العلّامة عبد الرَّحمن الحاج صالح رحمه الله: «إنَّ كلَّ المُعجميِّين... أَيْقَنوا بِضَرورةِ اللُّجوءِ إلى الوَسائلِ التَّقنيَّةِ الحديثة، والاسْتِعانَة بها؛ لأنَّهم عَرَفوا أنَّ الحواسيبَ تَقومُ مِنَ العَمَلِ المُتْقَن، وفي وَقْتٍ وَجيز، ما تَقومُ به العَشَراتُ مِنَ الفِرَقِ في أَشْهُرٍ أو في سَنَوات» . إذن فالحاسوب/ الكِبْتار[تعريبٌ لكلمة كمبيوتر وهو مسمى كان ينادي باستخدامه د فخر الدين قباوة] يَخْتَصِرُ علينا الوَقْت، ويَحْمِلُ عنّا ثِقَلَ الجُهدِ المَبْذول، الذي كانت تَتَطَلَّبُهُما صِناعَةُ المَعاجِمِ مِنْ قبل.

٣- تعريف المعجم الرَّقميّ المَنْشود:

إنَّ المُعجمَ الرَّقميَّ/ الحاسوبيَّ/ الإلكترونيَّ هو مُعجَمٌ حيويٌّ مُحَيَّن، وموسوعيٌّ بِحيثُ لا يَتَحدَّدُ كما تَتَحدَّدُ المعاجمُ الوَرَقيَّة، فهي

محدودةٌ حَجْمًا ومحدودةٌ زَمَنيًّا. ثُمَّ إنَّ المُعجَمَ الرَّقميَّ يَحتاجُ إلى مُحرِّك بحثٍ خاصّ، مُحرِّك بحث داخليّ، مُحرِّك بحثٍ مُرتبط بالكلمة دلاليًّا وسياقيًّا وليس فقط حَرْفيًّا. وهذا المعجمُ يُمكِنُ تَحيينُه وتَعديلُه، والإضافة إليه، فهو مُعجمٌ في شكْلِ برنامج إلكترونيٍّ مَفتوحِ المصدر.

وهذا المعجمُ تُشرِفُ عليه هيئةٌ علميَّةٌ مُعتمدةٌ مؤهَّلة، ولا يَضَعُه فردٌ وَحْدَه. ويُفيدُنا هذا في وَضْعِ حَدٍّ للخِلافات، وتَعَدُّدِ الأقوال، وتَشَتُّتِ المصطلحات، والإيديولوجيّات الخاصَّة وذاتيَّة الأفراد. فَنَتَفادى كلَّ ما كان يَشوبُ المعاجِمَ الورقيَّةَ الفرديَّةَ مِنْ قبل. فهذه الهيئةُ لا تَضَعُ من الآراءِ والاجتهاداتِ إلّا ما اتُّفِقَ عليه، ونالَ رِضى الجمهورِ مِنْ أهلِ الاخْتِصاص.

ويُبْنى هذا المعجمُ أيضًا على مُسْتَويات علميَّة مُعيَّنة، فقد يَبْدأُ بِشَرحِ عُموميّاتِ اللَّفظَةِ ممَّا يُفيدُ العامَّةَ أو غيرَ المُتَخصِّص، ثُمَّ بعدَ ذلك يَنْتَقِلُ الشَّرحُ إلى عُمْقِ اللَّفظَة، وإلى مُسْتَوياتِها التَّداوليَّة، وتفاعُلاتِها داخِلَ الحُقولِ الدّلاليّة، ممّا يُفيدُ الباحِثَ المُتَخصِّص.

كما يُمكِنُ تَزْويدُ هذا المعجم بِرَوابط تُحيلُ إلى مواقعَ أو مراجِعَ للتَّفصيلِ والتَّمثيلِ والاستِدلال، وصُورٍ توضيحيَّة، حتّى أنّه يُمكِنُنا تَدعيمُه بِمَلفّات صوتيّة ومرئيّة مُساعِدة مُرفَقَة.

ويقومُ هذا المُعجمُ على ما يلي: تعرّف الحروف والكلمات آليًّا، تخزين المادّة، ترتيب المادّة طِبْقًا للنِّظامِ المطلوب، اسْتِرْجاع المادّة أو بعضها، اسْتِكْمالُ أجْزاءٍ مِنَ المادّة أو مِنَ الشَّرْح، تَعْديل بعْضِ المُعْطَيات، حَذْف بَعْض المُعْطَيات، النَّقْل المباشر إلى المَطْبَعة، تَجْديد المُعْجَمات بِسُهولة، الحُصول على أجْزاء مُحدّدة مِنْ داخل المادَّة المَخْزونة لِبَحْثها .

٤- كيفيّة وَضْع المُعجَم الرّقميّ:

إنَّ وَضْعَ هذا المُعجَم يَجِبُ أنْ يَتِمَّ تحت غِطاءِ هيئة علميَّة رسميَّة مُعتَمَدة، كاتِّحادِ المجامع اللُّغويَّة/ العلميَّة -مَثَلًا-. فَتُعَدُّ له لَجنةٌ علميَّةٌ خبيرةٌ ومؤهَّلة. وغِلافٌ مالِيٌّ مُعتَبَرٌ، وكذا مقرّاتٌ ومُستَلزَماتٌ ماديَّة. ويَجِبُ أن يُرافَق بقَرارات سياسيَّة عُلْيا، تُهَيِّء/ تُمَهِّدُ له الطَّريق، وتُذَلِّل له الصُّعوبات؛ لأنَّهُ مَشروعٌ قَوميٌّ حَضاريٌّ.

وتَكونُ طريقةُ العمل في هذا المُعجَمِ -كما اقتَرَحَ الدُّكتور عبد الرَّحمن الحاج صالح- رَحِمَهُ الله - بِمُراعاةِ التَّنَوُّعِ الكافي والشّامل لِمُحْتَواها؛ أيْ: تَغْطِيَة كلِّ مَيدانٍ مِنْ ميادينِ المعرِفة، وكلِّ مَيدانٍ مِنْ مَيادينِ الحياةِ العامَّة. كما يَجِبُ أيضًا، توزيعُ النُّصوصِ إلى أدبيَّةٍ وعلميَّةٍ، ومن الحياةِ العامَّة على السَّواء، ويَستخرِجُ منها -المُنْجِزونَ لهذا المُعجم- قائمةَ المَداخِلِ الّتي سَيَحتوي عليها المُعجَم.

ويكونُ هذا العَمَلُ بالتَّعاونِ بينَ عُلماءِ اللِّسانيّات/ اللُّغة، وكذا علماء الحاسوب، وهو عَمَلٌ قد يَأْخُذُ زَمنًا، لكنَّ البَدْءَ فيه هو الأهمّ؛ لأنَّهُ مشروعٌ مُمْتَدٌّ عبرَ الأزْمِنة، لا يُمكِنُ حصْرُه أو تحديدُه أو تَحْجيمُه، فَيَنْبَغي النَّظَرُ إليه على أنَّهُ مشروعٌ وطَنيٌّ وقوميٌّ وحَضاريٌّ، بل مشروعٌ هوِياتي، وهو بِمَثابةِ بطاقةِ تعريفٍ لِلّغَةِ العربيَّة، يُرْجَعُ وَيُحْتَكَمُ إليْهِ في كلِّ نازِلَةٍ لغويَّةٍ طارِئَة.

٥- فوائد المعجم الرّقميّ المَنْشود:

كما سَبَق ذِكره، فإنَّ هذا المُعجم الرَّقميّ يُسهِّلُ عمليَّةَ تَخزين المادَّة (المفردات ومعانيها)، ويُمكّن مِنْ ترتيبها وتبويبها، وسُرعةِ استرْجاعِها، كما يُمكِّنُ أيضًا مِنَ التَّحكُّم فيها: زيادةً أو حذفًا، أو تعديلًا.

ومِنْ بعضِ فوائد حَوسَبة المعجم كذلك، أنَّ بنكَ المُعطيات اللُّغويَّة يَتَجاوَزُ تخزينَ الكلماتِ إلى النُّصوص، إذْ يُخزِّنُ النُّصوصَ كاملةً، ومهما كانت هذه النُّصوص كثيرةً فإنَّهُ يُسهِّلُ السَّيطرةَ عليها والتَّحكُّمَ فيها. كما يُفيدُ في دراسةِ الأبنيةِ الصَّرفيَّةِ والتَّصريفات، وذلك بإلحاقِ برامجَ/ مناطيقَ صرفيَّةٍ اشتقاقيَّةٍ، تَشتغِلُ على الأبنيةِ والأوزانِ الصَّرفيَّة.

ويقول الدّكتور عبد الرَّحمن الحاج صالح: أكبرَ فَضْلٍ يَكْسِبُهُ الحاسوبُ هو أنّ له القدرةَ العظيمةَ حقًّا أنْ يدمِجَ بِفَضْلِ بعضِ البرمجيّاتِ، الآلافَ مِنَ الكُتب، وأيَّ نوعٍ آخرَ مِنَ النُّصوص، ويَجْعَلَها كأنَّها نَصٌّ واحدٌ، ويستطيعُ بذلك أنْ يُجريَ أيَّ علاجٍ، وأيَّ بحثٍ عليها، بأَجْمَعِها، أو على جُزءٍ منها، كَمُختلفِ أنواعِ الأسئلةِ عَنْ وجودِ شيءٍ، وبأيِّ صيغةٍ، وكالفهرسَةِ، والحَصْرِ، والإحصاءِ، وغيرِ ذلك . كما يُفيدُنا أيضًا هذا المُعجمُ المُحوسَبُ في حَصْرِ كلِّ السِّياقاتِ لِكُلِّ كلمةٍ وَرَدَتْ فيها، أو في جُزْءٍ منها. وحَصْرِ جميعِ العباراتِ الخاصَّةِ، لا المُفرداتِ فقط، المُتآلفةِ الألفاظ، بِسياقاتِ كُلِّ واحدةٍ منها .

٦- التّحدّيات التي تواجه المُعجمَ الرّقميّ المنشود.

إنَّ أكثرَ التَّحدِّيات التي قد تُواجِه المُعجمَ الرَّقميَّ/ الحاسوبيَّ هي توظيفُ التّقنيّاتِ العصريّة، فَعلى أصحابِ مَشروعِ حَوسَبَةِ المعجمِ أنْ يُراعوا آخرَ التَّطوّراتِ التّكنولوجيّة، حتّى لا يَذْهَبَ جُهدُهُم سُدًى، في وَضْعِ معجمٍ بِبَرامجَ قديمةٍ أو قدْ تَتقادمُ فلا تَصلُحُ مع البرامجِ الحديثة. فالمُعجمُ الحاسوبيُّ الرَّقميّ، مِثلَما يجب أنْ يوافقَ التَّغيّرات اللّغويّة الرّاهنة، عليه أيضًا أنْ يُواكِبَ آخرَ التَّطوّرات الرّقميّة في مَجالِ البَرْمجيّاتِ الحاسوبيّة.

إذن؛ فَتَحتاجُ حَوسَبةُ المُعجم العربيِّ إلى آلياتٍ جديدةٍ في مجالاتِ التَّوليدِ المُصطلحيِّ (الصّوتيّ، والصَّرفيّ، والدّلاليّ، والمُرتَجَل بقاعدَتيه: الارتجال الحقيقيّ والاتّباع، والافتراضيّ بقاعدتَيه: المُعرَّب والدَّخيل)، وبالاستْنادِ إلى تَفْعيلِ أهمِّ قاعدتَين: الاشتِقاق والمَجاز، لدى مُعاينَةِ الأُصولِ الجَذْريَّةِ أو الجذعيّة، أو الأجنبيّة .

٧- مقترحات لمواجهة التّحديات.

إنَّ إنجازَ هذا المعجمِ الحاسوبيّ سيكون سهلا لو جرى الاهتمام بِمَشروعِ الذَّخيرةِ العربيَّة، الذي اقتَرَحَهُ العلّامة عبد الرَّحمن الحاج صالح –رَحِمَه الله–. فإنَّ هذه الذَّخيرة سَتُمَثِّلُ قاعدةَ بياناتٍ أو مُعطياتٍ أساسيَّةٍ لِمَشروعِ المعجم التّاريخيّ للُغةِ العربيّة، وكذلك للمُعجم الحاسوبيِّ المَنْشود؛ فَكِلا المُعجمَين سَيَنْطَلِقان منه.

وهذا ما أكَّدهُ الشَّيخُ عبد الرَّحمن الحاج صالح رَحِمَه الله بِقوله: ولا أَتَصوَّرُ أنْ يَقومَ أَحَدُنا أو جماعةٌ مِنّا بِإِنْجازِ مُعجَمٍ تاريخيٍّ للُغةِ العربيَّة دونَ أنْ يَلْجأَ إلى قاعدةٍ مُحَوسَبَةٍ مِنَ المُعطياتِ؛ لأنَّ الذي يَرْمي إليه هذا المُعجَم في الأساس، هو الكَشْفُ بالنِّسبةِ لِكُلِّ مُفردةٍ عن تطوّر معانيها عبر الزّمان، وفي كُلِّ أنحاءِ الوطنِ العربيّ. واكتشافُ المعنى لا يُمكِنُ أنْ يُكْتَفى فيه باللُّجوءِ إلى المعاجم القديمة على الإطلاق. فإنَّ السِّياقات كما هو معروف– هي التي تحدِّدُ وحدَها معنى اللَّفظةِ الواحدة، أو معانيها المُتزامِنة، أو الطّارئة عبرَ الزَّمانِ في النَّصِّ الواحدِ أو أكثرَ مِنْ نصّ . ويقولُ في مَوضعٍ آخر: كيف، يا تُرى، يُمكِنُ أنْ تَستَخْرِجَ مدلولاتِ الألفاظِ المختلفةِ عبرَ العُصورِ، إنْ لَمْ تَلجأْ إلى مثل هذه الذَّخيرةِ الآليَّةِ الحاسوبيَّة.

لذا فإنَّنا نرى أنَّ مِنْ أهمِّ الحلولِ والمُقْتَرحات لإنجازِ هذا المعجمِ الحاسوبيِّ المَنْشود، هو إنْشاءُ قاعدةِ مُعْطَياتٍ حاسوبيّة، وهو ما سَمّاهُ الشَّيخ عبد الرَّحمن الحاج صالح: مشروع الذَّخيرة العربيّة، الذي يَرمي إلى وَضْعِ بَنكٍ آليٍّ/ حاسوبيٍّ مِنَ النُّصوصِ القديمةِ والحديثة بالعربيَّةِ الفُصحى، ويَتَمَيَّزُ هذا المشروعُ/ البنكُ بالشُّموليَّةِ الكاملة من حيث الزَّمان والمكان، وَدَمْجُ كلِّ النُّصوص، وكأنَّها نَصٌّ واحدٌ، مُرتَّبٌ حاسوبيًّا بحسب العصور وفنون المعرفة. ويُدعَّمُ بأنْ يكونَ له موقعٌ على الشّابكة .

وهذه الذَّخيرةُ يُمْكِنُ أنْ تُفيدَنا، إلى جانبِ المعجم التّاريخيّ والمعجم الحاسوبيّ، في مَعاجِمَ أُخَـرَ: معاجم تقنيّة للعلوم والثّقافة، معاجم للمعاني، معاجم لِألْـفاظِ الحياة القديمة والحديثة، معاجم بأسماءِ الأَعْلامِ والأماكن ...

خـتامًا:

مما سَبَق، صِرْنا مُتأكِّدين، مِنْ أهميَّةِ السَّيْرِ قُدُمًا نحو هذا المشروعِ الحضاريِّ الذي يَخدِمُ اللُّغةَ العربيَّةَ وأهلَها؛ ذلك أنَّ هذا المُعجمَ الرَّقميَّ الذي تَنْشُدُهُ اللُّغةُ العربيَّةُ كفيلٌ بأنْ يُزيحَ عن كاهلِها الكثيرَ من الإشكالاتِ اللُّغويَّةِ والدّلاليَّةِ التي صارتْ تُواجِهُ الباحثَ العربيَّ اليوم. كما أنَّ هذا المُعجم سَيَفْتَحُ بابًا واسعًا أمامَ العربيَّةِ لِتَخوضَ غِمارَ الصِّراعِ بينَ اللُّغاتِ العالميَّةِ وهي مُسْتَنِدَةٌ إلى سلاحٍ قويٍّ فَرَضَتْهُ لنيلِ العولمةِ المُعاصِرة. لذلك فإن تسميتنا عصرنا هذا عصر الرقمنة لهو محلُّ صواب. (لذا) وَسَيَكون من العَيبِ أن تَفتَقِدَ هذه اللُّغةُ العريقةُ بين نَظيراتِها الأُخْرَيَاتِ معجمًا حاسوبيًّا رقميًّا وقد نالته غيرها من اللغات.

حَفاوَةُ الرَّبِيعْ

شعر: د. خالد برادة
باحث وشاعر مغربي

هَلَّ الرَّبِيعُ وَهَلْ يَطُولُ شَبابُهُ؟ ... أَمْ يُحْزِنُ القَلْبَ الصَّدِيعَ ذَهابُهُ؟
الكَوْنُ يَغْمُرُهُ بِفَيْضِ بَهائِهِ ... وَالنُّورُ مُنْسَكِبٌ عَلَيْهِ مُذابُهُ
وَالبَدْرُ أَشْرَقَ وَجْهُهُ بِشُعاعِهِ ... فَهُوَ المُبَشِّرُ وَالسَّماءُ رِحابُهُ
وَسَرَى النَّسِيمُ مَعَ الحَياةِ وَنَفْحَةٌ ... مَنْ ذا رَأى رَوْضاً يَمِيسُ تُرابُهُ؟
البُلْبُلُ الصَدَّاحُ غَرَّدَ شَادِياً ... لِيَسِيرَ فِي الرَّوْضِ الجَمِيلِ خِطابُهُ
وَالوَجْدُ يُلْهِمُهُ بَدِيعَ نَشِيدِهِ ... فَعَلَى ضِفافِ الحُسْنِ زَالَ حِجابُهُ
وَالوَرْدَةُ الفَيْحاءُ تَلْمَسُ مُهْجَةً ... فَالعِطْرُ فاحَ وباحَ مِنْهُ جَنابُهُ
إنَّ الرَّبِيعَ يُحِيطُنِي بِحَفاوَةٍ ... وَكَأَنَّما الوَرْدُ البَهِيجُ كِتابُهُ
لُغَةُ الخَمائِلِ وَالمُرُوجِ نَشِيدُهُ ... وَبَشاشَةُ الدَّوْحِ النَّضِيرِ رِكابُهُ
وَكَذا النَّسِيمُ أظَلَّنِي بِهُيامِهِ ... وَكَأَنَّما اللَّحْنُ الطَّرُوبُ صِحابُهُ
أزْجَيْتُهُ شِعْرِي بِنَبْضِ غَرامِهِ ... فَبَقِيتُ فِي وَجْدٍ يَطِيرُ لُبابُهُ
وَجَعَلْتُ أَسْبَحُ فِي الحَياةِ بِزَوْرَقٍ ... فَإِذا بِطَيْفِي فِي العَراءِ سَرابُهُ
وَحَسِبْتُ أنَّ المَجْدَ يَدْنُو فِي غَدِي ... وَالتِّبْرُ يَجْرِي كَالغَدِيرِ رِكابُهُ
وَلَّى الرَّبِيعُ نَضارَةً وَمَنارَةً ... لِتُصِيبَنِي بَعْدَ الرَّحِيلِ كِذابُهُ
إنَّ الخَرِيفَ يُخِيفُنِي مِنْ دُلْجَةٍ ... لَكِنْ يُطَمْئِنُ بِالوُعُودِ سَحابُهُ
أَأُكابِدُ الأيَّامَ أَمْ أَشْكُو دُجًى؟ ... وَمُكابِدُ الأيَّامِ زَالَ مُصابُهُ
أَأَهِيمُ فِي أَرْضٍ أَأَرْكَبُ أَبْحُراً؟ ... وَالشَّوْكُ فِي دَرْبِي تَلُوحُ شِعابُهُ
حَنَّ الفُؤادُ إِلَى رَبِيعٍ قَدْ هَفَا ... لِيُناغِمَ الطَّيْرَ الجَمِيلَ رُبابُهُ
يَا خَيْرَ مَا يَسْمُو الفُؤَادُ بِنَظْرَةٍ ... هَلْ زَالَ مِنْ ذَاكَ الرَّبِيعِ عَذابُهُ؟

المعجم السّياحيّ والتّنمية اللغويّة

أ.د. محمد حاج هني
جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف (الجزائر)

يشهد العالم في الآونة الأخيرة حركةً نشيطةً وفعّالةً في مراجعة المصطلحات وتحديثها في مختلف شرايين الحياة التي تمسّ القطاعات المهمّة التي تخدم الأمم والشّعوب، وذلك نتيجة حتميّة للتّغيرات الجغرافيّة والحضاريّة، والاجتماعيّة، والثّقافيّة، والسّياحيّة، ولعلّ رواج استخدام الأدلّة السّياحيّة –الورقية منها والالكترونية– في ضوء تكنولوجيا المعلومات والاتصال في خضم الثورة الرقمية على نطاق أوسع، بغية اكتشاف مختلف الأماكن والمعالم الأثرية، يجعل اللغة العربية تسعى جاهدة لتواكب الركب الحضاري، ولتحقيق ذلك بات من الضروري وضع المصطلحات السّياحيّة الجديدة وترجمتها، وتحديثها باستمرار لكي تصبح مسايرة لشتّى التّطوّرات التي تمسّ حياة أفراد المجتمعات، وأمام هذا الوضع أضحت صناعة المعاجم شريكًا فعالًا لحقل السّياحة في ضوء الدّراسات البينيّة، وتعاضدهما يشكّل مشروعًا تسويقيًّا سِياحيًّا بكلّ أبعاده، تمتدّ آثاره إلى مختلف القطاعات والمهن، خاصّة ما تعلّق منها بمجال الفندقة والرّحلات والأسفار.

١ - المعجم السّياحيّ:

المعجم السّياحيّ هو معجم متخصّص، قد يكون ورقيًّا أو إلكترونيًّا، يضمّ مجموعةً متداخلة من التّخصصات والمهن والحرف، فهو بذلك حلقة وصل لعدّة تخصّصات: لسانيّة وسياحيّة وتجاريّة وتاريخيّة وثقافيّة وطبيعيّة وغيرها، يهدف واضعه إلى تعريف السّائح–المحلّيّ والأجنبيّ– بالمصطلحات السّياحيّة ومفاهيمها الدّقيقة، بالاستعانة بالصّور والرّسوم التّوضيحيّة أحيانًا؛ لتكوين أرضيّة معرفيّة كافية تُجيب عمّا يحتاجه من معلومات سياحيّة، وما يرتبط بها من مجالات السّفر والفندقة.

ونظرًا لخصوصيّة هذا المعجم بالنّظر إلى مجالاته المتداخلة، يمكن عدّه سجلًّا حافظًا لأبرز المعالم الأثريّة والجغرافيّة لأيّ بلد من جهة، ورصيدًا حاملًا للإرث التّاريخيّ لتلك الأمّة ماضيًا وحاضرًا من جهة ثانية، ووعاءً يجمع التّراث الثّقافيّ بكلّ أطيافه في مصنف واحد يَسهُل الرّجوع إليه والنّهل منه، في شتّى أنواع السّياحة التي يرغب فيها السّائح كالسّياحة الدّينيّة، والسّياحة العلاجيّة، والسّياحة الرّياضيّة، والسّياحة الشّتويّة، وسياحة الاصطياف، وغيرها من جهة ثالثة.

أمّا في العرف الاقتصاديّ فهو وسيلة من وسائل التّسويق السّياحيّ وتحسين الدّخل القوميّ للبلدان من خلال استقطاب السّيّاح في شتّى فصول السّنة، ولمختلف الأماكن، ومصدرًا مهمًا لجلب العملة الصّعبة عن طريق إغراء السّيّاح، والتّأثير فيهم من أجل السّفر والتّمتع بتراث تلك الأمم والحضارات.

ولقد اخترت في هذا البحث عيّنة من المعاجم الورقيّة لِلْإِسْهَام في التّسويق السّياحيّ بالنّظر إلى التّطوّر الكبير الحاصل والمستمر في هذا القطاع من ناحية، وبالنّظر إلى التّداول المكثّف لمصطلحات هذا الميدان الحيويّ، وذيوعها من قبل السّواد الأعظم من السّيّاح، في كثير من المقامات التّواصليّة للسّياحة في كل فروعها من ناحية أخرى.

٢-معاجم المصطلحات السّياحيّة في الوطن العربي:

لقد وضع العرب المحدثون عدّة معاجم متخصّصة في القطاع السّياحيّ، وما يتّصل به من حرف ومهن، ومن ذلك هذه النّماذج:

أ-معجم المصطلحات السّياحيّة:

ألّفَهُ الأستاذ زيد منير سلمان عبوي، وصدر عن دار كنوز المعرفة للنّشر والتّوزيع، عمّان- الأردن، الطّبعة الأولى ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م، هو قاموس سياحيّ متخصّص ثنائيّ اللغة (عربيّ-إنجليزيّ)، لغة المدخل فيه هي العربيّة، وهذا يعني أنّه يعين السّيّاح العرب الذين يرغبون معرفة معنى المصطلحات السّياحيّة والفندقيّة العربيّة المتخصّصة، أو الباحثين الذين يبتغون ترجمة بعض المصطلحات السّياحيّة العربيّة إلى اللغة الإنجليزيّة، يقع المصنف في ٤٣٠ صفحة تضمّ ما يناهز ٧٦٣ مصطلحًا تتعلّق بمجالات معرفيّة ذات صلة وثيقة بقطاع السّياحة، على غرار: الفندقة، والثّقافة السّياحيّة، والاقتصاد السّياحيّ وغيرها من المصطلحات.

استهلّ الواضع معجمه بفهرس مرتّب ترتيبًا ألفبائيًّا مع ذكر الصّفحة، ففهرس مصطلحات القاموس ومـواده، كما أعقبه بمقدّمة، ثمّ أتبعها بالرّموز والمصطلحات التي غالبًا ما تحتويها المَعاجم، ثمّ جاء المَتْن القاموسيّ الذي يمثّل الحجم الأكبر من المعجم، وفي الأخير نجده يضع ثبتًا للمراجع العربيّة والأجنبيّة الفندقيّة المعتمدة.

ومن نماذج مداخله:

التّسهيلات السّياحيّة Tourist Facilities

تتضمّن التّسهيلات السّياحيّة عوامل سهولة المواصلات ووسائل النّقل وإحلال السّلام في العالم، وتبادل الخبرات والثّقافات والتّطور الاجتماعيّ والاقتصاديّ والثّقافيّ والسّياسيّ التي تساعد على زيادة حركة السّياحة العالميّة، ونتيجة لتطور الفكر الإنسانيّ من حيث مستوى معيشة الفرد وزيادة فترة الإجازات المدفوعة الأجر وزيادة أوقات الفراغ نتيجة للتّقدّم الصّناعيّ وتوفير الوسائل المريحة فقد ظهرت السياحة المجتمعية والتي تشير إلى سياحة كل الناس وعلى مختلف المستويات الاقتصادية كل هذا يساعد على توفير تسهيلات سياحية ممتازة .

ب- معجم المصطلحات والأماكن السّياحيّة :

هو معجم شامل ثنائيّ اللغة (عربي–إنجليزي)، في كلّ مصطلحات السّياحة المتداولة وتعريفاتها، من تأليف الدّكتور إبراهيم عبد الحليم أبو ديّة، يقع المؤلَّف في جزأين كبيرين؛ يبدأ أوّلهما من حرف الألف وينتهي إلى حرف السّين يقع في حدود٨٧٢ صفحة، أمّا ثانيهما فمن حرف السّين إلى غاية حرف الياء، ويبلغ ٨٤٠ صفحة، أصدرته دارا أسامة للنّشر والتّوزيع، ونبلاء ناشرون وموزعون، في طبعتين، عامي ٢٠١٤م، ٢٠١٥م.

يمكن توضيح نموذج لمداخله بمدينة تلمسان؛ التي حدّد المعجم موقعها الجغرافيّ، ووضّح تقسيمها الإداريّ، وبيّنَ مختلف معالمها السياحيّة؛ كمغارات عين فزة، والمنصورة، وميناء هُنَيْن، وغيرها، مع تدعيم ذلك بـالصّور والبطاقات .

ولعلّ ما يميّزه كمعجم متخصّص هو الصّور التّوضيحيّة المعتمدة في كل باب من أبوابه المأخوذة في عمومها من المواقع الإلكترونيّة المختلفة، مثل الموسوعة العالميّة ويكيبيديا نموذجًا، وما ذلك إلاّ تدعيمًا لشرح المداخل المصطلحيّة للمعجم المتمثّلة في المعالم الأثريّة والأماكن السّياحيّة الرّائعة على اختلافها وتنوّعها عبر القارّات الخمس.

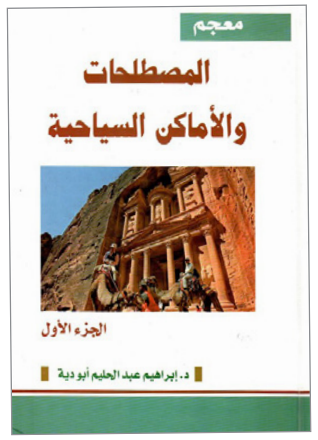

ج- معجم المصطلحات السّياحيّة :

هو معجم ثنائيّ اللغة (إنجليزي–عربي) من تأليف جماعة من أساتذة الجامعات المتخصّصين العرب هم أعضاء الهيئة العلميّة للسّياحة والآثـار، بمراجعة الدّكتور روحي البعلبكيّ، صدر هذا المعجم عن مكتبة الملك فهد الوطنيّة للنّشر بـالريّاض في طبعته الثّانية ٢٠١٣م، يقع في حدود ١٨٨ صفحة، يشتمل على مقدّمة بلغة المدخل– ألا وهي الإنجليزيّة– في صفحتين، ثم يليها المَتْن الذي يستهلّ كلّ باب فيه بصورة رقميّة ملوّنة تكشف للقارئ مكانًا، أو أثرًا سياحيًّا، أو مشاهدَ للسّيّاح وهم في قمّة الرّفاهيّة والاستجمام، ولعلّ أصحاب المعجم قد وظّفوا هذه الأيقونات على اختلاف موضوعاتها لأغراض نفعيّة من ضمنها إثارة السّائح وجذبه للسّياحة بشكل أو بآخر، والـذي هو في الأصل قارئ للمعجم ومستخدم له عند الحاجة.

يعدّ المتن المعجميّ أكبر أجزاء المعجم، يحتوي على مفردات ومصطلحات سياحيّة مرفقة في بعض الأحيان بـالشّرح، وفي أحيان أخرى يُكتفى بذكر ما يقابلها في العربيّة؛ ومن ذلك:

سياحة المغامرات Adventure Travel

ممارسة نشاطات فيها نوع من المخاطرة

والشّيء اللافت للنّظر أنّ هذا المعجم على غرار سابقيه يضمّ مجموعة من العلامات والاختصارات التي من شأنها أن تعين القارئ العربيّ على معرفة أصل المفردة أو أصل المصطلح من جهة، وتثري رصيده المعرفيّ والثّقافيّ من جهة أخرى، وكذلك الشأن للأجانب حين تحيلهم على الأصـول العربيّة لبعض المصطلحات السّياحيّة(،) . وذُيّل المعجم بمقدّمة عربيّة، وكأنّ واضعيه أعطوا اهتمامًا عـادلًا للسّائح العربيّ والغربيّ معًا، ليختتم المعجم بفهرس ألفبائيّ للمداخل مرفقة برقم الصّفحة.

د- القاموس السّياحيّ (فرنسيّ-عربيّ- إنجليزيّ) :

هو معجم متخصّص يضمّ أكثر من خمسة آلاف (٥٠٠٠) مصطلح سياحيّ، من تأليف جماعة من الباحثين الجزائريّين، بإشراف المجلس الأعلى للغة العربيّة بـالجزائر، نشر عام ٢٠١٨م، يضمّ مصطلحات موزعة على خمسة مجالات منها: السّياحة والفندقة والصّناعات التّقليديّة وَ الأطعمة والمسكوكات السّياحيّة، وهي مصطلحات موجودة في ذات العربيّة وبعضها من إحياء تراثنا، وبعضها من الـدّارج الذي عمل المجلس على الرّفع من سويّتها لتعود إلى فصاحتها، وبعضها من الكلمات المحليّة التي عمل الفريق على أن يُخضعها للاستعمال العفويّ، والزّمان كفيل بقبولها بعد أن تشيع .

ويأتي هذا المعجم في إطار نشاط التّأليف المعجميّ الدّؤوب للمجلس الأعلى للغة العربيّة بـالجزائر، ويضاف لسلسلة القواميس والأدلّة الوظيفيّة المنجزة من قبل هذه الهيئة اللغويّة نحو:

– دليل وظيفيّ في إدارة الموارد البشريّة، ٢٠٠٦م.

– دليل وظيفيّ في التسيير الماليّ والمحاسبي، ٢٠٠٦م.

– دليل وظيفيّ في تسيير الوسائل العامّة، ٢٠٠٩م.

يقع القاموس السّياحيّ في حدود ٢١١ صفحة، يحتوي على مقدّمة بقلم رئيس المجلس الأستاذ صالح بلعيد، تليها قائمة اسميّة لعشرة أعضاء للفريق المنجِز لهذا القاموس الجزائريّ السّياحيّ المختصّ، ثمّ يأتي متن القاموس السّياحيّ مرتبًا وفق الألفبائيّة الفرنسيّة (A–Z)، لغة المدخل فرنسيّة ويقابلها العربيّة والإنجليزية.

وفي قاموس الصّناعات التّقليديّة لغة المدخل هي لغة الشّرح نفسها، وبما أنّها لغة الحياة العامّة فقد لجأ واضعوه إلى توظيف اللغة اللاتينيّة؛ فقد حاولوا كتابة مداخله بالحروف اللاتينيّة؛ حتّى يتسنّى للسّائح الأعجميّ نطقها نطقًا صحيحًا؛ لأنّ تلك المصطلحات تجسّد التّراث والتّقاليد الجزائريّة الأصيلة التي تتفرّد بها الجزائر على غرار:

البدرون العاصمي: (badrun3asim)

البدرون العاصميّ الجزائريّ هو لباس تقليديّ خاصّ بالجزائر العاصمة وهو محض أي أنّه لم يتأثر بأيّ من الحضارات المتعاقبة على الجزائر، ويقال أنّ الأميرة زفيرة هي التي صمّمته، ويتكوّن من قطعة واحدة .

ويضمّ القسم المخصّص للمسكوكات السّياحيّة ٥٤ مجالًا فرعيًّا، من أهمّها: الأساسيّات، بدء محادثة، صيغ الأدب، في المطار، في الهاتف، الشّابكة، بنك ونقود، الإقامة في الفندق، الاستفسار، التبضّع، الأعداد، أيام الأسبوع، الفصول والشّهور، الألوان، الوقت، المدّة، الصّفات، الأفعال، الأسماء، الإطعام، المشروبات، الغذاء، الحياة الاجتماعيّة، الطقس.

ومن أمثلة تلك المسكوكات السّياحيّة:

فحص الأمتعة luggage checked le bagage en soute

، عفوا، على الرحب والسعة de rien (réponse à merci)

you’re welcome . وغيرها من المسكوكات المتعدّدة اللغات.

خاتمة:

من خلال ما تم عرضه في هذا البحث من نماذج معجميّة يتجلى أنّ المعاجم السّياحيّة ما هي إلّا إسهام في صناعة المعاجم المتخصّصة من جهة، وإثراء لمتن اللغة العربية بالمصطلحات والمسكوكات السّياحيّة من جهة أخرى، كما أنها وسيلة لإثراء الرصيد المصطلحي للسائح، المحلي والأجنبي على حد سواء، ناهيك وصوابها علاوة على أنها أداة فعالة قد تغني السائح الأجنبي عن خدمات المترجم الذي نجده في جلّ الوكالات السّياحيّة وبعض الفنادق الراقية، وتقربه لتعلم اللغة العربية من خلال لغة التخصص.

كما تبرز العلاقة المتينة بين تخصّصين متباينين؛ أحدهما صناعة المعاجم بما يوفره من قواميس أحاديّة اللغة وثنائيّتها، ومعاجم متخصّصة، وقوائم مفردات لغات السّياحة والفندقة والأسفار، من جهة، والآخر قطاع السّياحة، وما يتضمّنه من خدمات تسويقية وإشهاريّة وتجاريّة من جهة أخرى، فبين المجالين علاقة تكامل وتعاضد؛ إذ يفيد أحدهما الآخر، ويستفيد منه في ضوء تداخل التخصصات وتلاقحها لتحقيق التنمية عمومًا، والتّنمية اللغويّة خصوصًا.

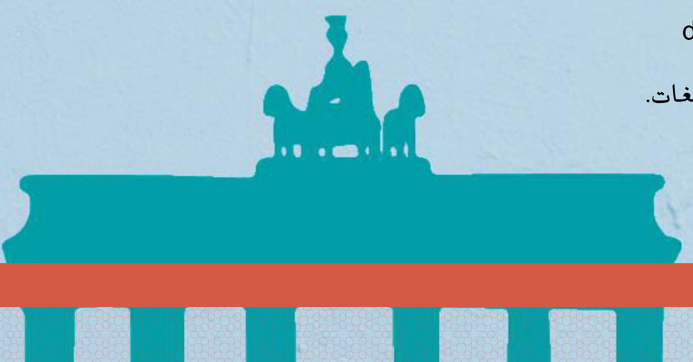

الطَّريق إلى اللُّغة العربيَّة الفصحى للأطفال

د/ فكري عبد المنعم النَّجّار
قسم اللّغة العربيّة، كليّة الآداب، جامعة الشّارقة

الحمد للّه، والصَّلاة والسَّلام على رسول اللّه، سيِّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد، فإنَّ هذه المقالة ربَّما تُجدِّفُ عكس التَّيّار في بحر العولمة المضطّرب الأمواج، الهائج الرّياح؛ ذلك أنَّ كثيرًا من الآباء والأمَّهات في الأُسَر العربيَّة لا يروقهم أن يتعلَّم أولادهم (البنون والبنات) اللُّغة العربيّة، أو يدرسوا المقرَّرات باللُّغة العربيَّة في المدارس، ويدفعون بهم إلى المدارس الأجنبيَّة منذ طفولتهم المبكّرة؛ ظنًّا منهم أنَّهم يُسايِرون ركب العصر والحضارة، أو أنَّ هذا الأمرَ يُدلِّل على رُقيِّ مستواهم الاجتماعيّ، وأنَّهم ليسوا بأقلّ شأنًا من زملائهم أو جيرانهم أو معارفهم الّذين سلكوا هذا الطريق من قبل، ليس هذا فقط، بل إنَّهم يتحدَّثون معهم اللُّغة الأجنبيَّة في البيت وخارجَه، ويوجِّهونهم إلى الإعلام والفنِّ الأجنبيِّ؛ إرشادًا من مَدرَسَتِهم، وحِرْصًا منهم على أن يُتقِنَ أبناؤهم هذه اللُّغة الأجنبيَّة. ويا لَلْعجب!

إنَّ جميع الأمم الأخرى تهتمّ بِلُغتها الأمّ كلَّ الاهتمام، وتحرِصُ على أن تكون اللُّغة الأمّ هي لغة البيت، والحياة العامَّة، والتَّعليم، والبحث العلميّ، والإعلام بِشتّى أنواعه، والاقتصاد، والأحاديث السّياسيّة، وغيرها. فأين موقع العربيَّة من هذا كُلِّه؟! إنَّني لم أرَ كالعربيَّة لُغةً يظلمها أهلوها، ويهتضم حقَّها بنوها، فَضْلًا عن كَيدِ أعدائها لها، وتربُّصهم بها الدَّوائر. وإذا كان لا بُدَّ من تعلُّم لُغَةٍ (أو لُغات) أجنبيَّة، فإنّي لا أُعارِض ذلك، بل أُشجِّع عليه، ولكن ينبغي اللُّجوء إلى هذا الأمر بعد أن يَتَشرَّب طفلنا العربيُّ اللُّغة العربيَّة، وتَسري في عُروقه وشَرايينه بعدَ مرحلة الطُّفولة المُبكِّرة على الأقلّ. ونحن –بذلك– لا نُعانِد الوضعَ القائم حاليًّا في المُجتمعات العربيَّة، بل نُحاولُ الأخذ بِيَدِ هؤلاء وغيرهم لِيُوَلُّوا وُجوهَهم شَطْرَ اللُّغة العربيَّة؛ لئلّا يكون لهم حُجَّةٌ على أهل اللُّغة والمُختصّين فيها.

- أهميَّة اللُّغة العربيَّة في حياتنا:

إنَّ للُّغة العربيَّة أهميَّة كُبرى في حياتِنا؛ فهي رَمزُ عِزَّتِنا، وسِياجُ هُويّتنا. إنَّها لُغةٌ شريفةٌ لطيفةٌ ساميةُ المقام، تَمتازُ بِخُصوصيَّةٍ تعزُّ على كلِّ اللُّغات بِأَن شرَّفها الله مِنْ بينِ اللُّغات جميعِها لِتَكون لُغةَ كتابِه المُقدَّس (القرآن الكريم) الّذي لا يَأتيه الباطلُ مِنْ بَينِ يَدَيه ولا مِنْ خَلفِه؛ تَنْزيل مِنْ حَكيم حميد. وقد تعهَّدَ **الله** –سُبحانَه وتَعالى– بِحِفْظِها ورِعايَتِها حينَ أكَّدَ حِفْظَ كتابِه، فَقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ «الحجر: ٩»

ولهذا، فإنَّ تعليمَ العربيَّةِ واعتِزازَنا بِها وإكسابها لأطفالِنا أَمرٌ ضَروريٌّ، يَسْمو بها إلى أَنْ تُصبِحَ مَلَكَةً لُغويَّةً طبيعيَّة في أحاديثهم، ويُخرِجُها مِنْ ضيقِ الإهمالِ إلى سَعَةِ الاستعمال، ويَجعَلُها تَنْسابُ على الأَلسِنَة غَضَّةَ طريَّة، يَستَعذِبُها اللِّسان، وتَأْنَسُ لها الآذان. كما أَنَّ هذا الأمرَ يَجعَلُ الأطفالَ يُحِبّون اللُّغة العربيَّة ويُقبِلون عليها: استِماعًا، وتَحَدُّثًا، وقراءةً، وكتابةً. فَغِيابُ الحُبِّ في عَلاقةِ الطِّفلِ باللُّغةِ يَخلُقِ بَينَهما اغترابًا، ويُوَلِّدُ لديه استهانةً بها، ويَقطَعُ الصِّلةَ الوَثيقةَ والأَصيلَة بينهُما، على حين يُنمِّي الحُبُّ شَجرةَ الأُلفَةِ والمَحبَّةِ بين الطِّفلِ ولُغَتِه، ويُقوّي الاحتمالَ والمُثابرةَ على تَعلُّمِها، وتَحقيقِ الإنجازاتِ في شَتّى المَجالاتِ مِنْ خِلالِها؛ فَيَتخَلَّقُ لدينا الباحثون اللُّغويّون، والإعلاميّون، والأدباء، والشُّعراء، والكُتّاب، وغيرُهم مِنَ العُلماءِ في شَتّى التَّخصُّصات.

واللُّغة العربيَّة لُغةٌ بشريَّة مُتميِّزة مُتطوِّرة، تَنْطَبق عليها قوانينُ اللُّغات البشريَّة الأخرى الّتي نَتعلَّمُها ونُعلِّمها، ونَستَخدمها في الاتِّصال والتَّواصل، ونَقْل الثَّقافاتِ وثمارِ الحَضارات. وقد تَميَّزَت اللُّغة العربيَّة بكفايةٍ تَواصليَّة مُنْقطعةِ النَّظير، وحَملَت فكرًا عميقًا، وثَقافةً سامية، وتراثًا عظيمًا ساقَ للبشريَّةِ الخيرَ الكثير. وتؤدّي اللُّغة عمومًا، ومنها العربيَّة بالطَّبع، وظائفَ تواصليَّة مُتعدِّدة في حياة الفرد والمجتمع؛ ذلك أنَّها وسيلة كُلِّ فَرْدٍ للتَّعبير عن مشاعره وعواطفِه وأفكارِه ومَطالِبه وحاجاته وتجاربِه وخبراته، وأنَّها –كذلك– أداة التَّعلُّم والتَّعليم، وذاكرة الإنسانيَّة، وحافظة التُّراث. إنَّها –باختصار– الجسر الذي تَعبُر عليه أجيالنا الجديدة من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل، فهي العُروةُ الوُثْقى الّتي لا انفصام لها، ومن خلالها تقوى العلاقةُ بين أفراد المُجتمعِ العربيِّ خاصَّة، أو بين أفراد المجموعة البشريَّة عامَّةً؛ فاللُّغةُ مؤسَّسة اجتماعيَّة إنسانيَّة، ولا يَتمُّ الاجتماع البشريُّ والتَّواصل البشريُّ بدون هذه اللُّغة.

- أطفالُنا والمُمارسة اللُّغويَّة:

أبدأُ بالسُّؤال الآتي: كيف نُرْضِعُ أبناءَنا حبَّ العربيَّة؟ والإجابة تأتينا مِنْ سيرة رَسولنا الكريم محمَّدٍ ﷺ حين يَقول عَلَيْه الصَّلاة والسَّلام: «أوتيتُ جَوامِعَ الكَلِم، وأنا أفْصح العَرَب بَيْدَ أنِّي من قُرَيْش واسْتُرضِعْتُ في بَني سَعد بن بَكْر» (إحياء علوم الدين، للغزالي، دار المعرفة، بيروت، ج ٢، ص: ٣٦٧).

وكانَت قبيلةُ بني سَعْد من القبائل المَشهورة في الفَصاحة والبَيانِ ونَقاءِ السَّليقةِ قديمًا؛ لأنَّها بَطنٌ من بُطون قبيلةِ هَوازن الّتي يُحتَجُّ بكلامِها، وعنها يُؤخَذُ اللِّسانُ العربيّ، مع قبائل أُخَر هي: (قَيْس، وتميم، وأَسَد، ثُمَّ هُذَيل، وبعض كِنانَة، وبعض الطَّائيِّين). وإرسالُ الأولاد إلى الجِهات المَشهورة بالفَصاحة والعِلْم مَعمولٌ به مُنذُ القديم حتّى يوم النّاس هذا، مع أَخْذِ التَّطوّر العَصريّ والمُصطلحيّ في الاعتبار. والخُلَفاء والأُمَراء كانوا يُعْنَون بتَنشئةِ أولادِهم في البادية؛ كي يَشِبّوا على الفَصاحة، تأسِّيا بتَنشئةِ رسولِ الله ﷺ. والعربُ في عَصْرِنا الحديث –مثلًا– يُرسِلون أولادَهم إلى بريطانيا لإتْقانِ اللُّغةِ الإنجليزيَّة، أو يَبْعثونَهم إليها للحصولِ على الشَّهادات العُلْيا.

وهذهِ الفقرة تُرينا كيفَ تُسهِمُ البيئةُ السَّماعيَّةُ السَّليمةُ في إتْقانِ اللُّغة، وتَعلُّمِها بالفطرةِ والمُمارسة، أو ما يُسمّى بـ(الانغماس اللُّغويّ)، كما نَتَعلَّم منها أنَّ الطِّفل يُتقِنُ اللُّغةَ الّتي يَسمَعُها مِنْ مُحيطه الّذي يَعيشُ فيه، لا مِنْ كُتُبِ النَّحو والبَلاغةِ والأدب. وقد شَبَّ أطفالُ العرب في العَصْرِ الجاهليّ –مثلًا–، وأصبحوا رجالًا كِبارًا وشُعراءَ مشهورين، وخُطَباءَ مُفوَّهين، وأصبحَت لُغَتُهم مصدرَ التَّقعيدِ لِتَعليم اللُّغةِ العربيَّةِ فيما بَعْد، كلُّ هذا دونَ أَنْ يَذهَبوا إلى المَدرسةِ أو الجامعةِ، أو غير ذلك مِنْ أماكنِ التَّعلُّم. وقد كانت الكتابةُ نادرَةً لِصعوبةِ توفُّرِ أدَواتِها، ولَمْ يَبْقَ لهم –حينئذٍ– إلّا الأذنُ الّتي تَسمَع، والعَقل الّذي يَعي ويَفْهَمُ ويَحفَظ، وتَخَرَّجَ مِنْ مدرسةِ (الأُذُن، والعقل) الرُّواة الّذينَ نَقَلوا إلينا الثَّقافة العربيَّة مُشافَهةً في العصر الجاهليّ، والعصرِ الإسلاميّ، إلى أَن انْتَشَرَ التَّدوين في العَصْر الأُمَويّ.

ظَلَّت اللُّغة العربيَّة لُغَةَ العلم والمعرفةِ زَمَنًا طويلًا، وأَنتجَتْ لنا حضارةً عريقةً استمرَّت خمسةَ قرون، وصَدَّرَت العِلمَ والنّورَ إلى العالَمِ كُلِّه، وخاصَّةً أوروبّا الّتي تَلقَّفت عِلْمَ العَرَبِ والمُسلمينَ، وطَوَّرَتْه، وبدَّلَت وغيَّرَت، وتطوَّرَت، وحدَثَ الانقلابُ الحَضاريُّ أو الضَّياع الحضاريُّ للعَرَبِ على حَدِّ تعبيرِ الدّكتور جمال حمدان –رحمه الله–، وتغيَّرت الأحوالُ العلميَّةُ والثَّقافيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة في بِلادِ العَرَبِ والمُسلمين، وانتَصَرَ الغربُ على العَرَبِ بالعِلْم، واسْتُعمِرَت البلادُ العربيَّة، وتَقَسَّمَت، وبدأ الغازي

صاحب السمو حاكم الشارقة في لقطة تذكارية مع طلبة مدرسة فيكتوريا الدولية بالشارقة

يَنشُرُ لُغتَه، ويُبعِد اللُّغةَ العربيَّة، فَساءَ حالُها، وانتشَرَت اللَّهجات المحليَّة، وأصبحَ مَنْ في الشَّرقِ العربيِّ ربَّما لا يَفهَمون مَنْ في غَرْبه، والجميعُ يَزْعُمون أنَّهم يَتَحَدَّثون اللُّغةَ العربيَّة. وقد أَثَّرَ كُلُّ هذا على التَّعليم عُمومًا، وتعليم اللُّغة العربيَّة خُصوصًا، وأَخَذَ الاستعمارُ يَنفُثُ سُمومَه، بالتَّهوينِ مِنْ شأنِ العربيَّة، وتَحقيرِ مُعلِّميها، والدَّعوةِ إلى العاميَّةِ ونَبْذِ الفُصْحى، وغير ذلك. وتَخَرَّجَت أجيالٌ تُعاني الضَّعفَ العامَّ في العربيَّةِ تحدُّثًا وقراءةً وكتابةً. ثُمَّ أَحَسَّ القائمونَ على التَّربيةِ في العالَمِ العربيِّ بِهذا الأمرِ الخَطير، وعُقِدَت المؤتمراتُ لِمُناقشةِ هذا الأمر، وبدأَت تظهَرُ الحُلول، وكان مِنْ بَينِها دعوةُ د.عبدالله الدَّنّان إلى تعليمِ اللُّغةِ العربيَّةِ الفُصْحى للأطفالِ العَرَبِ بالفِطرةِ والمُمارسةِ في مرحلةِ رياضِ الأطفالِ وفي مرحلةِ التَّعليمِ الأساسيّ (المرحلة الابتدائيَّة)، وهما المرحلتانِ اللَّتانِ تكونُ فيهما قُدرةُ الأطفالِ الفطريَّة على اكتسابِ اللُّغاتِ ما زالَت نشيطةً وفعّالَة، وذلك باعْتِمادِ اللُّغة العربيَّةِ الفُصْحى لُغةً وحيدةً للتَّواصُلِ الشَّفَهيِّ في المدرسةِ طَوال اليوم المدرسيِّ داخل الصَّفِّ وخارجَه. وأرى أنْ تَمتدَّ الدَّعوةُ إلى التَّحدُّثِ بالفُصْحى والكتابةِ بها إلى قِطاعاتٍ أُخرى في المُجتمَع، كالإعلامِ بوَسائله، والفَنِّ بأَنواعه، وخاصَّةً الرُّسوم المتحرِّكة، والأغاني، وإذاعةِ مباريات كُرَةِ القَدَم؛ لِتَتكوَّنَ لأطْفالنا البيئةُ السَّماعيَّةُ المُناسبة والطبيعيَّةُ للُغةِ الفُصْحى، فلا يشعُرُ الجَميعُ بالغَرابةِ أو الخَجَل. وبالهِمَّةِ والعزيمةِ وعدمِ الانقيادِ للهَزيمةِ النَّفسيَّة يَتحقَّقُ لنا المُرادُ، ونَتَواصَلُ بالفُصْحى على أَكْمَلِ وَجْه.

وإذا تساءلتُ: أينَ تَكْمُنُ بالضَّبطِ أَزْمَتُنا مع اللُّغةِ العربيَّةِ الفُصْحى؟ هل تَكمُنُ في الطّالبِ، أو في المُعلِّمِ أو في الأُسرة، أو في المُجتمَع، أو في ماذا؟ أقول: المَنظومةُ كُلُّها مسؤولةٌ عن أَزمَةِ اللُّغة العربيَّة: الطّالب (دافعيَّتُه لِتَعلُّمِ اللُّغةِ ضعيفة، وليس لديه التَّوجيه السَّليم)، والمُعلِّم (يُعاني من عدمِ جَودَةِ التَّكوينِ اللُّغويّ والتَّربويّ، وكَثرةِ أعدادِ الطَّلبة، وضُغوطِ الإدارةِ والأنشطة)، والأسرة (تفكَّكَت بسبَبِ ما يُطلَقُ عليه «وسائلِ التَّواصلِ الاجتماعيّ»، وانشغلَ الوالدان عن رعايةِ الأطفالِ بالعَمَلِ وغيرِه)، والمُجتمَع (يَتَحدَّث

العاميَّة، على حين يَتمُّ التَّعليم في المدرسة بالفُصْحى، فماذا يَتعلَّمُ الأطفالُ والطَّلَبة؟)، والنُّظُم التَّربويَّة (تُنادي بِعَدَمِ الحِفظ مثلًا، مع أنَّ الحِفظَ يَخدِمُ اللُّغةَ العربيَّةَ، ويُسهِمُ في تكوين المَلَكَة اللُّغويَّة)، والإعلام (لا يَجِدُ فيه الطَّلَبَةُ البيئةَ المُثلى لِتَحقيق السَّماعِ اللُّغويِّ السَّليم، ومعروفٌ أنَّ السَّماعَ أبو المَلَكاتِ اللُّغوية). والحَلُ لدى كلِّ هؤلاء. بالإضافةِ إلى القَراراتِ السِّياسيَّة المُلزِمَة للتَّعامل بالفُصْحى في كلِّ قطاعات الحياة. وفي الأَثَر عن عثمان بن عفان ﷺ قال: (إنَّ اللهَ لَيَزَعُ «يدفع» بالسُّلطانِ ما لا يَزَعُ بالقُرآن).

- ماذا نَفْعَلُ لإحياءِ اللُّغةِ العربيَّةِ الفُصْحى على أَلْسِنَةِ أطفالنا؟

هذا تساؤل مهم، وأَقترِحُ للإجابة عنه –باختِصار– ما يأتي:

١-اهتمام الأُسرة والمَدرسَة بالحِفظ: فَيَنْبَغي توجيه أولادِنا منذُ الصِّغَر إلى حِفْظِ القُرآنِ الكريم، والأحاديث النَّبويَّة، والشِّعر العربيّ، ولا مانع مِنْ حِفظِ مقطوعاتٍ مِنْ كلامِ كبارِ الأُدباء، كالرَّافعيّ، والمَنفلوطيّ، وغيرهما. ويكونُ ذلكَ على مَراحِلِ العمر بالتَّدريج. والحِكمةُ تقول: احفَظْ تَقُلْ؛ فإنَّما الكلامُ مِنَ الكلام. وحُصولُ المَلَكَةِ اللُّغويَّةِ يكونُ بِكَثرةِ الحِفْظِ كما يُقرِّرُ ابن خلدون. وهذهِ المَلَكَةُ كامنةٌ في كُلِّ إنسانٍ طبيعيٍّ، ولا يُثيرُها إلّا الحِفظُ وكَثرةُ التَّرداد.

٢-زيادة الوعي بأهميَّة اللُّغة العربيَّة: فَهِي سِياجُ هُويَّتِنا، ورمزُ عِزَّتِنا، وحافظةُ تاريخِنا وتُراثِنا، وأنَّ الإنسانَ بِغيرِ لُغَتِهِ الأمِّ يُصبِحُ ريشةً في مَهَبِّ الرِّيح.

٣-الإقبال على التَّحدُّث بالفُصْحى، وعدم التَّهوين مِنْ شَأنِها: وهذا التَّهوينُ يَجعَلُنا نَشْعُرُ بِالهَزيمةِ النَّفسيَّةِ، ولا بُدَّ مِنْ مُقاوَمةِ تلكَ الهَزيمةِ الَّتي أَفْقَدَت كثيرًا من النَّاسِ ثِقَتَهم في أنفسِهم، ومِنْ ثَمَّ أفقدَتْهم ثِقَتَهم في كُلِّ ما هو عربيّ، وانْجَرَفوا مع التَّيَّار نحو تقليدِ الأجانبِ في كُلِّ شيءٍ!

٤-العربيَّة أمانةٌ نَتَحمَّلُها جميعًا: كُلٌّ في عَمَلِه. ولا يَجِبُ إلقاءُ المسؤوليَّة على المُختَصِّين في اللُّغة العربيَّةِ وحدَهُم، وإنَّما هم ينظِّمون ويأخذون بأيدي الآخرين. فَمُعلِّمُ اللُّغةِ العربيَّةِ في المدرسةِ مثلًا عليه أَنْ يوجِّهَ إخوانَه المُعلِّمينَ الآخرين في التَّخصُّصات المُختلِفَة، ويُساعِدَهم في النُّطقِ والكِتابةِ والتَّدقيق اللُّغويّ.

٥-إحياءُ دَورِ المَجامِعِ اللُّغويَّة: وتفعيلُ الأهدافِ الَّتي أُنشِئَتْ من أَجْلِها. (ولصاحب السُّموِّ حاكم الشَّارقة الشَّيخ الدّكتور سُلطان بن مُحمَّد القاسميّ –حفظه الله– دَورٌ بارِزٌ في هذا المَجالِ على المُستوى المحليّ، والإقليميّ، والعالميّ، وأدعو اللهَ له بالتَّوفيق، وأنْ يجعلَ ذلك في ميزانِ حَسَناته).

٦-إنتاجُ أو ترجمةُ مُسلسلات الرُّسوم المُتحرِّكَة بالعربيَّة الفُصْحى: ويمكنُ أَنْ يأتي بِنتائجَ إيجابيَّةٍ، وهذه مِنَ الوسائلِ الَّتي تُربِّي المَلَكَةَ اللُّغويَّةَ عند الأطفالِ، وتُعوِّدُهُم على النُّطقِ بالفُصْحى. ولكنْ يَنْبَغي مُتابَعَةُ المضمونِ والحَرَكاتِ التَّصويريَّة؛ لِيَتوافَقَ ذلكَ مع ثَقافَتِنا وعاداتِنا العربيَّةِ الإسلاميَّة. فَكَثيرٌ منها يقومُ على العُنْفِ والضَّرْبِ والرُّعبِ والتَّدمير، وهذا الأمرُ يأتي بِنَتائجَ عكسيَّةٍ في سُلوكِ أَوْلادِنا.

٧-فَرْضُ اللُّغةِ العربيَّةِ على طَلَبةِ جميع الكُلِّيَّات في البِلادِ العربيَّة: وهذا الأمْرُ سيُنَمِّي محصولَهم اللُّغويَّ الذي تَعَلَّموهُ في صِغَرِهم، وسَيَنْعَكِسُ إيجابًا على إنْتاجهم الأدبيّ في هذهِ المَرحَلَةِ العُمْريَّةِ المُهِمَّة، بالإضافة إلى قُدرتِهِم اللُّغويَّةِ في التَّواصلِ مع الأطفالِ وغيرِهم، فلا يَشعُرُ الطِّفلُ بِغرابَةِ تَواصُلِه بالفُصْحى؛ إذْ سَيَجِدُ مُعظَمَ أفرادِ المُجتمعِ يَتَواصلونَ فيما بَينَهُم بالطَّريقةِ نَفْسِها، والأُسلوبِ ذاتِه.

٨-الاهتمامُ بِأدَبِ الأطفالِ في العالَمِ العربيّ: فَهذا الأدَبُ أداةٌ تَثقيفيَّةٌ مُهِمَّة، ويَكونُ ذلكَ مِنْ خِلالِ اختيارِ نُصوصٍ (شِعريَّةٍ ونَثْريَّةٍ) شائقةٍ وجذَّابةٍ وراقيةٍ في المُقرَّراتِ الدِّراسيَّةِ في مَراحِلِ التَّعليمِ المُختلِفَة. وهذهِ النُّصوص الأدبيَّة تَعمَلُ على صَقْلِ المَلَكَةِ اللُّغويَّةِ للأطفالِ، وإغناءِ قاموسِهِمُ اللُّغويّ، وتَنْمِيةِ خيالِهم، ودفعِهِم إلى الإبداعِ والابتكار، وإثراءِ قُدراتِهِم على التَّواصُلِ بالفُصْحى مع المُجتمَعِ الذي يَعيشونَ فيه، بالإضافةِ إلى تَهذيبِ طَبائعِهِم وعواطِفِهِم وسلوكِهِم واتجاهاتِهِم.

٩-القرارُ السِّياسيّ: فالنُّهوضُ باللُّغةِ العربيَّة، ومحاولةُ إحيائها لا يكونُ بالأماني، ولا بالخُطَبِ الرَّنَّانة، وإنَّما يكونُ بِقَرارٍ سياسيٍّ: يُصْدَر، ويُنَفَّذ، ويُتابَع.

١٠-استعادة الدَّورِ الحضاريّ: وهنا أُشيرُ إلى أنَّ العِلْمَ تحدَّث باللُّغةِ العربيَّةِ مُدَّةَ خمسةِ قُرونٍ إبانَ العصرِ الذَّهبيّ للحضارةِ الإسلاميَّة (١٣٢هـ –٦٥٦هـ). وبإحياءِ اللُّغةِ العربيَّة نستطيعُ استئنافَ حضارتِنا العربيَّةِ الإسلاميَّة. واللُّغةُ العربيَّةُ جديرةٌ بأنْ تَتَّسِعَ لِكُلِّ العلومِ والمعارف، ولا عَيبَ فيها إطلاقًا، ولله دَرُّه شاعر النِّيل حافظ إبراهيم حين قال على لسان العربيَّة:

وَسِعتُ كِتابَ اللهِ لَفظًا وَغايَةً
وَما ضِقتُ عَن آيٍ بِهِ وَعِظاتِ
فَكَيفَ أَضيقُ اليَومَ عَن وَصفِ آلَةٍ
وَتَنسيقِ أَسماءٍ لِمُختَرَعاتِ

وسبحان ربِّكَ ربِّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفون، وسلامٌ على المُرسلين، والحمْدُ لله ربِّ العالمين.

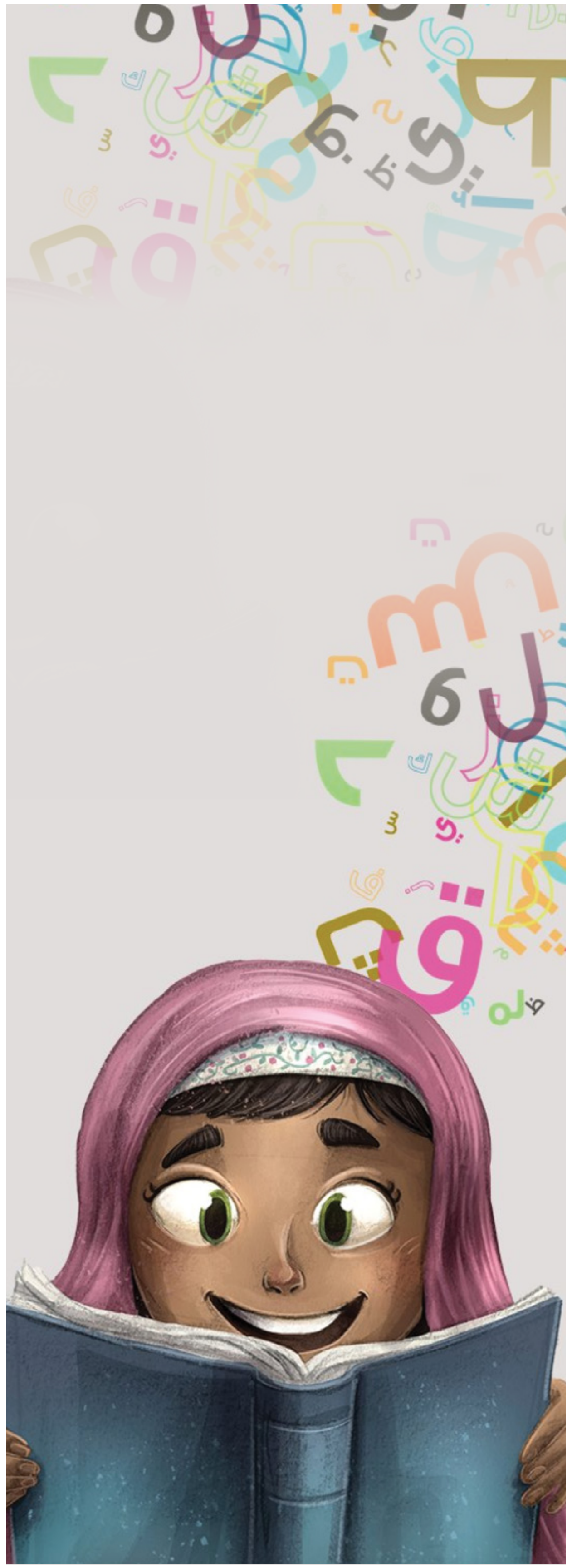

ذِكْرى

خديجة الكبرى

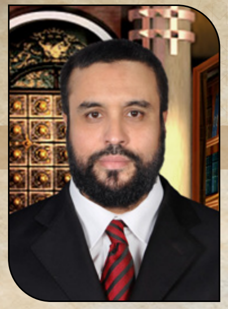

هشام الدقاق

قِفْ بالحجونِ فَثَمَّ أطيبُ مَرْقَدِ ... لخديجةَ الغراءِ زوجِ مُحَمَّدِ
تلك الشريفةُ والمطهرةُ التي ... قد بشَّر الباري بأحسنِ مَقْعَدِ
سُرَّتْ بها الدنيا وأخصبَ عيشُها ... لمْ تَلْقَها يومًا بوجهٍ أَنْكَدِ
خيرُ النساءِ مكانةً ورزانةً ... وسليلةُ الأمجادِ ذاتُ السُّؤْدَدِ
لما أتى جبريلُ أحمدَ بالهدى ... هبَّتْ إلى الإيمانِ لمْ تَتَرَدَّدِ
هذي التقيةُ والنقيةُ خَلَّدَتْ ... ذكرى تُسَطَّرُ في صحيفةِ عَسْجَدِ
واللهُ فَضَّلها وحَقَّقَ سُؤْلَها ... وَأَمَدَّها بالمالِ والخُلُقِ النَّدِي
لَوْ أَنَّني حاولتُ عدَّ خصالها ... عجزَ اللسانُ عنِ المديحِ المُنْشَدِ
بشرى لأمِّ المؤمنين تَحُفُّها ... في جنةِ المأوى تروحُ وتغتدي
صبرتْ على اللأواءِ في زمنِ القطيعةِ ... والحصارِ المُسْتَبِدِّ المُجْهِدِ
كمْ آزرتْ خيرَ الورى في محنةٍ ... والأمرُ مضطربٌ كبحرٍ مُزْبِدِ
واسَتْهُ بالقولِ السديدِ وحكمةٍ ... وعنايةٍ وَتَبَعُّلٍ وَتَوَدُّدِ
إذْ خَفَّفَتْ منْ رَوْعِهِ وَعَنائِهِ ... أَعْظِمْ بها ذاتِ الصنيعِ الأرشدِ
كان النبيُّ يخصُّها بمحبةٍ ... تسمو على الشِّعرى ونجمِ الفرقدِ
قالتْ له : كلا ، فلا يَخْزى امْرُؤٌ ... قد كانَ للملهوفِ أنجحَ مقصدِ
وحراءُ يشهدُ كلما يمَّمْتَهُ ... وَمَكُثْتَ فيهِ لخلوةٍ وتعبُّدِ
أبدى انشراحا وارتياحا للذي ... تتلوهُ معتصمًا بربٍّ أوحَدِ
أبشرْ بنصرٍ ثم فتحٍ مقبلٍ ... من خالقي مُعْلي مقامِكَ في غدِ
للهِ درُّ خديجةَ الكبرى التي ... فاحتْ شمائلُها لكلِّ مُرَدِّدِ
قد كان ميسرةُ الغلامُ جهينةَ الأخبارِ ... بالأسرارِ خيرِ مُزَوِّدِ
يروي لها عن رحلةِ الشامِ العجيبةِ ... ما رأتْ عيناهُ غيرَ مُفَنَّدِ
إن الخوارقَ قد جرتْ لمحمدٍ ... ظلُّ السحابةِ عنهُ ليسَ بِأَبْعَدِ
وتدفُّقُ البركاتِ عندَ مسيرِهِ ... في بلدةٍ أوْ قريةٍ أو فَدْفَدِ
سُرَّتْ خديجةُ بالذي قدْ كانَ مِنْ ... أمرِ الأمينِ الهاشمِيِّ الأمْجَدِ
فدعتْهُ دعوتَها الكريمَةَ للزوا ... جِ بصدقِ عزمٍ واختيارٍ مُسْعِدِ
طوبى لسيدةِ الجِنانِ حبيبةِ المختارِ ... والهادي الشفيعِ السيِّدِ
ولدتْ لهُ الأطهارَ والأخيارَ والأقمارَ ... صفوتَنا كرامَ المَحْتِدِ
لمْ تَأْلُ في تهذيبِهِمْ وصلاحِهِمْ ... جهدًا فكانوا أنجمًا للمُقتدي
بيتُ النبوةِ خيرُ مدرسةٍ على ... وجهِ البسيطةِ من يَلِجْها يَهْتَدِ
رحمَ المهيمنُ أُمَّنا وأثابَها ... قصرًا وأنهارًا وأعذبَ مَوْرِدِ

تعليـــمُ اللُّغـةِ العَربيّـةِ لِلنّاطقيـنَ بِغيـرِهـا بَيـنَ الماضي والمُستقبَلِ

د / عبد الحليم عبد الله
جامعة أردهان

تَنبعُ أهمِّيَّةُ اللُّغةِ العَربيّةِ مِنْ أمورٍ مُتعدِّدةٍ، أهمُّها أنَّها لُغةُ الوَحْيِ ولُغةُ القُرآنِ الكَريم، فهِيَ وِعاءُ الدِّين، وحامِلتُهُ، وأداتُهُ، والآلةُ الَّتي لا يُستغْنى عَنْها في هَذا الدِّين، ولا يُمكِنُ لِلمُسلِم أنْ يَكونَ مُسلمًا إلَّا بنَصيبٍ قَلَّ مِنْها أو كَثُر، فَلا إسلامَ بِلا صَلاةٍ، ولا صَلاةَ بِلا قرآنٍ، ولا قُرآنَ إلا بِالعربيّةِ، شرَّفَها اللهُ سُبحانَهُ بأنْ جَعلَها كَذلك، وجَعلَها ملازمةً للقرآنِ في وَصفِهِ.

فقَدْ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ «فصلت: ١–٣»

وقالَ جلَّ جلالُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ «الشعراء: ١٩٢–١٩٥»

وقالَ تَعالى أيضًا: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ «الزخرف: ٣»

وكَذلكَ في ثمانيةِ مَواضعَ مِنَ القرآنِ الكريمِ نَصَّ اللهُ تَعالى فيها على عَربيّةِ القُرآن.. وهَذا أمرٌ لا يَخْفى على أحد.

وقَدْ فَهِمَ المُسلمونَ هَذِهِ الحَقيقةَ، فجَعلوا طَلبَها فَرضًا وتَعلُّمَها مِنَ الدِّين، ومَحبَّتَها مِنْ مَحبّةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فكانَتْ ولم تَزلْ صاحِبةَ المكانةِ العُليا، والمَقامِ الأسْمى، فبِها يُعرَفُ كِتابُ ربِّ العالمينَ، وتُعرَفُ سنّةُ خيرِ الأوّلينَ والآخرينَ وأكرمِ السّابقينَ واللّاحقينَ.

وقَدْ قالَ الثَّعالبيّ: «مَنْ أحبَّ اللهَ تَعالى أحبَّ رسولَهُ محمّدًا، ومَنْ أحَبَّ الرَّسولَ العربيَّ أحبَّ العرَب، ومَن أحَبَّ العربَ أحَبَّ العربيّةَ التي بها نَزلَ أفضلُ الكُتبِ على أفْضلِ العَربِ والعَجمِ، ومَن أحَبَّ العربيّةَ عُنِيَ بها، وثابَرَ عليها، وصَرفَ همَّتَهُ إليها، ومَن هَداهُ اللهُ للإسلامِ، وشَرحَ صدرَهُ للإيمانِ وآتاهُ حُسنَ سَريرةٍ فيهِ، اعتقَدَ أنَّ محمّدًا ﷺ خيرُ الرُّسلِ، والإسلامَ خَيرُ المِللِ، والعربَ خيرُ الأممِ، والعَربيّةَ خيرُ اللّغاتِ والألسنةِ، والإقْبالَ على تَفهُّمِها مِنَ الدِّيانةِ؛ إذْ هِيَ أداةُ العِلمِ، ومِفتاحُ التَّفقُّهِ في الدِّينِ، وسببُ إصلاحِ المعاشِ والمعادِ».

ولِذلكَ جَعلَها العُلماءُ شرطًا أساسًا لازمًا وضروريًا لأيِّ عالِمٍ مِنَ العلماءِ لِيكونَ عالِمًا، فقَدْ قالوا: «إنَّ المسلمينَ عندَنا على ثلاثِ مراتبَ: العُلماءُ والقُرّاءُ والعامّةُ»

فالطَّبقةُ الأولى (العلماءُ) وهُمْ كُلُّ مَنْ كانَ مُتَّصفًا بخمسِ صَفاتٍ:

١. أنْ يكونَ عارفًا باللُّغةِ العَربيّةِ المُضريّةِ القُرشيّةِ بالتَّعلُّمِ والمُزاولةِ معرفةً كافيةً.

٢- أنْ يكونَ قارئًا لكتابِ اللهِ تَعالى قراءةَ فهمٍ للمُتبادَرِ من مَعاني مُفرداتِهِ وتَراكيبِهِ مَعَ الاطِّلاعِ على أسبابِ النُّزولِ.

٣ - أنْ يكونَ متضلعًا في السنة النبوية المدونة على عهد التابعين وتابعيهم أو تابعي تابعيهم.

٤ - أنْ يكونَ واسعَ الاطِّلاعِ على سيرةِ النَّبيِّ وأصحابِهِ وأحوالِهم من كُتبِ السِّيرةِ القَديمةِ والتَّواريخِ المُعتبرةِ.

٥ - أنْ يكونَ صَاحِبَ عَقلٍ سليمٍ فطريٍّ لم يفسدْ ذِهنَهُ بالمنطقِ والجدلِ.

فالشَّرطُ الأوَّلُ لأيِّ عالمٍ أو فقيهٍ أو محدّثٍ أنْ يكونَ عارِفًا ضَليعًا في اللُّغةِ العربيّةِ.

على أنَّ أهميّةَ اللُّغةِ العَربيّةِ لا تَنبعُ مِنَ الأهميّةِ الدِّينيّةِ فَقَطْ، بلْ تَنبعُ أيضًا مِنَ الكُتلةِ البَشريّةِ لِعَدَدِ المُتحدِّثينَ بِها إذْ تأتي في المرتبةِ الرّابعةِ عالميًّا مِنْ حَيثُ عَدَدُ المتحدِّثينَ بها بَعدَ المَندرينَ الصِّينيّةِ والإنجليزيّةِ والإسبانيّةِ، إذْ يُقدَّرُ عددُ النّاطقينَ بها في عامِ ٢٠١٥ بـ ٢٩٥ مليون كلغةٍ أُولى يُضافُ إليهم ٢٤٦ مليون كلغةٍ ثانيةٍ وبذلكَ يَصلُ مجموعُ المُتحدِّثينَ بها إلى ٥٤١ مليون، وهَذهِ الكتلةُ البشريّةُ الضَّخمةُ تُعدُّ رقمًا صعبًا في كلِّ مَناحي الحياةِ الاقتصاديّةِ والاجتماعيّةِ والسّياسيّةِ والعسكريّةِ.

جهودُ علماءِ المسلمينَ القُدامى لتَيسيرِ تَعليمِ العَربيّةِ:

- أمْرُ الخُلفاءِ النّاسَ بتَعلُّمِ العربيّةِ، ومِنْ ذَلكَ ما رواه النَّهديُّ «بأنَّ كتابَ عمرَ بنِ الخطّابِ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ أتاهُمْ وهُمْ بأذربيجانَ يأمرُهُم بأشياءَ، وذكَرَ فيهِ: تعلَّموا العربيَّةَ».

كَما رُوِيَ أَنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ كتَبَ إلى أبي موسى الأَشْعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهما: «أمّا بَعدُ: فتَفقَّهوا في السُّنَّة، وتَفقَّهوا في اللُّغةِ وأعرِبوا القُرآنَ، فإنَّهُ عربيٌّ»

وفي حديثٍ آخرَ عَن عُمرَ رضي الله عنه أنّهُ قالَ: «تَعلَّموا العربيّةَ فإنّها مِن دينِكم، وتَعلَّموا الفَرائضَ فإنَّها مِن دينِكم».

- الأمرُ بتعلُّمِ القِراءةِ والكتابةِ واللَّذينِ شَكّلا ركيزةً وأساسًا لباقي العلومِ.
- وضعُ العلومِ لتَيسيرِ تعلُّمِ اللُّغةِ العَربيّةِ وللتَّصدّي لظاهرةِ اللّحنِ، وتَمثَّلَ ذَلِكَ بـ:

١. ولادةِ علمِ النَّحوِ على يَدَي أبي الأسودِ الدُّؤليِّ بتوجيهٍ من عليِّ بنِ أبي طالبٍ حتّى يَستقيمَ بِهِ لسانُ الأعاجمِ الرّاغبينَ في تعلُّمِ اللُّغةِ العَربيّةِ وإتقانها.

ومما يُحكى –في مجالِ إحساسِ العربِ بضرورةِ تَيسيرِ تَعليمِ العَربيةِ للأعاجمِ – أنَّ أبا الأسودِ الدُّؤليَّ مرّ بِهِ سعدٌ ـ وكانَ رجلاً فارسيًّا قَدِمَ البَصرةَ مَعَ أهلِهِ وهُوَ يَقودُ فرسَهُ – فَقالَ: مالكُ يا سعدُ؟ ألا تركبُ؟ فقالَ: فَرسي ضالعٌ «وهو يريد: ظالعٌ من الظَّلْعِ أي العرج»، فضَحِكَ مَن حَضرَهُ. قالَ أبو الأسودِ: هؤلاءِ الموالي قَد رَغِبوا في الإسلامِ ودَخَلوا فيهِ، وصاروا لنا إخوةً، فلَو علَّمناهُمْ الكَلامَ.

٢. ولادةُ علمِ الإملاءِ: لتَسهيلِ تَعليمِ اللُّغةِ العَربيّةِ لغيرِ العربِ وتَجلّى ذَلِكَ أول ما تَجلّى باسْتِخدامِ النُّقطِ: نقطِ الإعْجامِ ونقطِ الإعـرابِ، فقَدْ قـامَ نَصرُ بنُ عاصمٍ بوضعِ نقطِ الإعجامِ على مُتشابهاتِ الحروفِ، ومن ثم قامَ الخليلُ بوضعِ نقطِ الإعرابِ التي تطورت فيما بعد إلى الحركات المعروفة.

٣. ولادةُ الدَّرسِ الصّوتيِّ، حَيثُ اهتمَّ علماءُ اللّغةِ والنّحوِ والقراءاتِ بمخارجِ الحروفِ، بسببِ انْتِشارِ العُجمةِ على ألسنةِ العامّةِ بسببِ اختلاطِ العربِ بغيرِهِم من أبناءِ الأممِ الأخرى، قال الزَّبيدي: «ولم تزلِ العربُ في جاهليتِها وَصَدْرٍ من إسلامِها، تبرعُ في نطقِها بالسَّجيّةِ، وتتكلّمُ على السّليقةِ، حتّى فُتِحَتِ المدائنُ، ومُصِّرتِ الأمصارُ، ودُوِّنـتِ الدواوينُ، فاختلَطَ العربيُّ بالنَّبَطِيِّ والتَقَى الحجازيُّ بالفارسيِّ، ودَخلَ الدِّينَ أخلاطُ الأممِ وسواقطُ البلدانِ، فوقَعَ الخللُ في الكلامِ، وبدأَ اللّحنُ في ألسنةِ العوامِّ»

لذلكَ قامَ العلماءُ بترتيبِ الحروفِ وفقَ مخارجِها والحديثِ عَنْ صفاتِها مُنذُ وقتٍ مبكرٍ، فكانتْ محاولاتُ اللُّغويينَ في المعاجمِ كالخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيديِّ، ومحـاولاتُ النُّحاةِ كَسيبويهِ، ومحاولاتُ القُرّاءِ كابنِ الجَزَرِيِّ وَمَكِّيٍّ والشاطبيِّ.

ثمّ جاءَ ابنُ سينا في رسالتِهِ (أسبابُ حدوثِ الحروفِ) التي تُعدّ مصدرًا مهمّا في هذا الدّرسِ؛ فتناولَ مخارجَ الحروفِ والأصواتِ وصفاتِها؛ شارحًا مُكوِّناتِ الحَنجرةِ واللِّسانِ، واصفًا العمليّةَ العضويّةَ للأصواتِ والحـروفِ، كما خصَّصَ فصلًا للحروفِ الشَّبيهةِ بالحروفِ العربيّةِ في اللُّغاتِ الأخرى.

ثمّ قامَ العُلماءُ بِجمعِ اللُّغةِ وتصنيفِ المعاجِمِ، ولم يَكونوا بحاجةٍ إليها من قبلُ، إذ نَزلَ القُرآنُ الكريمُ والمخاطَبون بِهِ قومٌ عَرَب، أولو بيانٍ فاضلٍ، وفهمٍ بارعٍ، أنزلهُ جلّ ذكره بلسانهم، وَصِيغَةِ كَلَامهم الَّذِي نشؤوا عَلَيْهِ، وجُبلوا على النُّطْق بِهِ، فتدَرّبوا بِهِ يعْرِفُونَ وُجُوه خطابه، ويفهمون فنون نظامه، وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تعلُّم مشكلِهِ وغريبِ أَلْفَاظِهِ حاجةَ المولَّدينَ النَّاشئينَ فِيمَنْ لا يَعلمُ لِسانَ العَرَبِ حَتَّى يُعلَّمَه، ولا يَفهمُ ضُروبَهُ وَأَمْثَالَهُ، وطرقَهُ وأساليبَهُ، حَتّى يُفَهَّمَها.. فقامَ العُلماءُ بجمعِ اللُّغةِ وَوضعِ المعاجمِ وليَسهلَ على المسلمينَ فَهمُ المعنى والمشكِلِ والغريبِ.

٤. ولادةُ الدَّرسِ البلاغيِّ والبدءُ بالتّصنيفاتِ البلاغيّةِ؛ لأنَّ القرآنَ الكريمَ نَصٌّ بَلاغيٌّ مُعجزٌ، فبدأتِ التَّصنيفاتُ البَلاغيّةُ لِتعليمِ المسلمينَ مِنْ غَيرِ العَربِ كَيفيةَ تَذوُّقِ هذا النَّصِّ.

جُهودُ علماءِ العربيّةِ في العَصرِ الحديثِ لتَيسيرِ تَعليمِها للنّاطقينَ بِغيرِها :

على عُلماءِ العَربيّةِ ومُعلِّميها ألّا يَنظُروا إلى هذهِ الوظيفةِ على أنَّها عَملٌ لكسبِ العيشِ فَقَطْ، بَلْ عَلَيهم أنْ يَشْعروا بأنَّهُم مُرابِطونَ على ثَغْرٍ عَظيمٍ من ثُغورِ الإسلامِ مِنْ خِلالِ تَعليمِهِم اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، وأنّهم يَقومونَ بِوظيفةِ الأنْبياءِ– وإنْ لم يَكونوا كَذلكَ–أو أنَّهُم سُفراءُ إلى المسلِمينَ مِنَ النّاطقينَ بِغيرِ العربيّةِ، ولذَلِكَ عَلَيهم ألّا يَدَّخروا وُسعًا في تَيسيرِ تَعليمِها وتَقديمِها إلى الآخرِ بأنجَحِ أسلوبٍ وطريقةٍ.

طلبة مركز اللسان العربيّ الأجانب في مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة

وممّا لا يُنكَر في هَذا الميدانِ جُهودٌ كثيرةٌ تتلخَّصُ في إصدارِ المناهجِ والسَّلاسلِ التَّعليميّةِ المُعدَّةِ للنَّاطقينَ بغيرِ العربيّةِ، والأمثلةُ في هذا المجالِ كَثيرةٌ جِدًّا كسلسلةِ اللِّسانِ الأمِّ، والعَربيّةِ بَينَ يَديكَ، والعربيّةِ للنّاشئينَ، والعربيّةِ للمُسلمينَ، والعَربيّةِ لِلكبارِ، والكتابِ الأساسيِّ.. وما شابَهَ ذَلكَ، فَضلًا عَنْ إعدادِ اختباراتِ قِياسِ الكَفاءةِ اللُّغويّةِ المُختلفةِ على اختِلافِ البُلدانِ التي تُجريها، وبَعضِ المَواقعِ الإلكترونيّةِ على الشّابِكةِ، وحَوسبةِ المَعاجِمِ الّتي سَهَّلَتْ على المُستَخدِمينَ الرُّجوعَ إلى مَعاني المُعجمِ بِواسطةِ الأجهِزةِ الذَّكيّةِ، وهِيَ جُهودٌ لا يُستهانُ بِها قياسًا إلى الماضي، لكنَّها تَبقى دُونَ مُستوى الطُّموحِ بالنَّظرِ إلى طَبيعةِ المَرحلةِ الزّمنيّةِ.

وَإنَّ هذا التَّعدُّدَ والاختِلافَ في السَّلاسلِ التّعليميّةِ والاختِباراتِ لَيَشِي بِشعورٍ مِنْ عَدمِ الرِّضا عَنِ الموجودِ مِنْها، وهَذا بحدِّ ذاتِهِ مُشكلةٌ، فَضلًا عَنْ تَقصيرِنا في التَّعليمِ عَنْ بعدٍ، وفي التَّعلُّمِ التَّفاعليِّ، ومُواكبةِ التِّقنيةِ بالنَّظرِ إلى طَبيعةِ المَرحلةِ الزَّمنيّةِ.

لَقدْ أشرتُ سابقًا إلى أنَّ الجهدَ عظيمٌ بالقياسِ إلى الماضي؛ لكنَّهُ دونَ المُستوى في الوَقتِ الحالي، والسُّؤالُ: لماذا؟ ذَلِكَ لِسببينِ: الأوَّلُ مِنهُما: أنّ السَّلائقَ كانَتْ – على الرَّغمِ مِنْ تَفَشّي اللَّحنِ– كانَتْ أنقى، وكانَتِ العربيّةُ الفَصيحةُ سائرةً على ألسنةِ النّاسِ، ويُمكِنُ للمُتَعلِّمينَ الانْغماسُ اللُّغويُّ وممارستُها في كُلِّ مكانٍ؛ أمّا الآنَ فقَدْ سادَتْ لهجاتٌ عامّيّةٌ مختلفةٌ باختِلافِ الدُّولِ، وهِيَ مختلفةٌ في الدَّولةِ ذاتِها باختِلافِ الأقاليمِ، ومختلفةٌ في الإقليمِ الواحِدِ باختلافِ المناطِقِ والقُرى؛ أمّا الثّاني فَلأنَّنا – حَتّى الآنَ

– ما زِلْنا نَحبو في مجالِ رَقْمنةِ اللُّغةِ العَربيّةِ ودَمجِها بالتِّقنيةِ، فالهواتفُ الذَّكيّةُ صارَتْ في متناوَلِ يَدِ الجَميعِ، والاتِّصالُ بالإنترنت أصبحَ متوافرًا حَتّى في أفقرِ البُلدانِ؛ لكنَّ المُحتَوى التَّعليميَّ التَّفاعليَّ قليلٌ جدًّا، بَل أقلُّ مِنْ أنْ يُذكَرَ بالقياسِ إلى الآخَرِ، عِلمًا أنَّ تعليمَ لُغَتِنا للآخرينَ فيهِ منافعُ شَتّى: دُنيويّةٌ وأُخرويّةٌ، فعِندَما يَنظرُ الغَربُ إلى المنافِعِ الدُّنيويّةِ فَقَط، نَراهُم لا يَدّخرونَ جَهدًا في بَذلِ تَعليمِها بِالمجانِ لما يَجذِبُ تعليمُ لغتِهِم للآخرينَ مِن اسْتثماراتٍ وفوائدَ مادّيّةٍ لهُمْ، تَتَجلّى على شَكلِ نِسبةٍ لا يُستهانُ بِها في الاقتصادِ والدَّخلِ القَوميِّ.

إذنْ .. وما هو المطلوب؟

١. العَملُ على جَمعِ الرُّؤى والنُّقودِ حَولَ كُلِّ السَّلاسلِ التَّعليميّةِ السّابقةِ للُّغةِ العَربيّةِ.

٢. إنتاجُ سلسلةٍ ومناهجَ تعليميّةٍ تكونُ عندَ مُستوى الطُّموحِ وتَتلافى كُلَّ السّلبياتِ السّابقةِ.

٣. العَملُ على حَوسبةِ اللُّغةِ العَربيّةِ لأنّ ذَلِكَ مِفتاحُ لمشاريعَ مُتعدِّدةٍ في مجالِ التَّعليمِ.

٤. دراسةُ تجاربِ الأممِ الأخرى في التّعلُّمِ التَّفاعليِّ للُغاتِها مِنْ أجلِ العَملِ على إعدادِ تَعليمٍ تَفاعليٍّ للغةِ العربيّةِ.

٥. إنشاءُ تَطبيقاتٍ للأجهزةِ الذَّكيّةِ اللّازمةِ لتَعليمِ كافّةِ مهاراتِ اللُّغةِ العربيّةِ: الإدخاليّةِ مِنْها والإنتاجيّةِ الَّتي أرى أنَّها يجب أن تُراعِيَ خاصيّةَ الاتِّصالِ بالأنترنت، فيكونُ بعضُها ممّا يَعملُ باتّصالٍ، وبَعضُها ممّا يَعملُ مِنْ دونِ اتِّصالٍ.

٦. كلُّ ما سَبَقَ يحتاجُ إلى مَظلّةٍ حُكوميّةٍ تَدعَمُ هذا العَملَ الخَيريَّ وتموّلُهُ، وتَستقطِبُ لَهُ الكفاءاتِ وتُوجِّهُ الخطاباتِ لمُختلِفِ الدُّولِ ولا تَنظرُ إلى هَذا الميدانِ على أنّهُ مَيدانُ تَنافُسٍ بَلْ ميدانُ تكامُلٍ بينَ جَميعِ الدُّولِ الإسلاميّةِ.

يَبقى أنْ نَدعو اللهَ العليَّ القديرَ السَّميعَ المُجيبَ أنْ تجدَ هَذهِ المقالةُ طَرِيقَهَا إلى أذنِ أحدٍ مِنْ ولاةِ الأمرِ ممَّنْ يُريدونَ أنْ يَدَّخِروا شيئًا مِنْ دنياهُم لآخرتِهِم فيأخذَ بِها ويَعملَ الواجِبَ حيالَهَا.

سيرةُ كائنٍ اسْمُه الشِّعْر

شعر / حسن شهاب الدين

مُـذْ كـانَ طِـفْـلًا فـي ربـوعِ حِـجـازِه   يلهو بِدُمْيـةِ حرفـه وَمجازِه
يَـبْـنـي بِـرَمْـلِ الأبْـجـديَّـةِ عالَمًا   ما بينَ أنْدَلُسٍ إلى أهْوَازِه
وَيُـقـيـمُ بالكلماتِ مجدَ حضارةٍ   - ما حازَه كسرَى - على إعْوَازِه
يَحْدُو فتروي البِيدَ غيمةُ صوتِه   مِمَّا يُوَقِّعُه على أرجازِه
وَيَبُلُّ ريقَ هجيرِها بِنَشيدِه   فَيَسيلُ في نَهَوَنْدِه وَحِجَازِه
وَيكادُ يَسْتَبِقُ القَطا بِجَناحِه   وَيَمَسُّ سَقْفَ الغَيْبِ في أَجْوازِه
الجِنُّ - مِنْ شُعراءِ عَبْقَرَ - لم تَكُنْ   إلا الرُّواةَ له وَمِنْ رُجَّازِه
فـإذا أطـالَ انْـهالَ تلُّ لآلئٍ   في صوتِه وَالسِّحْرُ في إيجازِه
جُنَّتْ به الصَّحْراءُ تتبعُ صوتَه   في تيهِ أَبْجدِه وَفي هَوَّازِه
فإذا تَكَلَّمَ حاوَرَتْه جبالُها   وإذا اخْتَلَى هبَّتْ إلى اسْتِفْزَازِه
حَشَدَتْ عليه ظِباءَها فَرَمَيْنَه   سَهْمًا وَجدَّ الشِّعْرُ في إجْهازِه
يحنو عليه - كَمَنْ يُذَوِّبُ قِطْعَةً   مِنْ سُكَّرٍ في الروحِ - مِنْ إعْزازِه
وَشَكَا له الطَّلَلُ المُحيلُ شُحوبَه   لِيَصوغَه بيتًا لَدَى مُجْتازِه
وإذا تبرَّأَ سيفُه مِنْ غِمْدِه   أَضْحَى ابْتكارُ الموتِ في إبْرَازِه
وَغَدَا مليكُ الفُرسِ مِنْ أُسرائِه   ومشَى مليكُ الرومِ في عُكَّازِه *
وَاخْتَالَتِ الخيلُ المُغيرةُ باسْمِه   والشِّعْرُ يُرْقِصُها على مِهْمازِه
جيلًا، فَجيلًا، والقصيدُ مهاجِرٌ   حتى اكْتَفَى مِنْ عذْبِه وَنشازِه
فُصْحاه تَبْلَى في يدَيْ إعْجامِه   وَصدورُه تندكُّ في أعْجازِه
لا بدَّ مِنْ طفلٍ شبيهِ ملامحي   لم تدركِ الدنيا مدى إلغازِه
يرويه نيلًا سائغًا من حَرْفِه   إنْ غيرُه يسقيه مِنْ أكوازِه
أنا ذاك نصٌّ خارجٌ عن نصِّه   كالرسمِ حينَ يشبُّ عن بِرْوازِه
من صفحةٍ بيضاءَ يفتحُ كوَّةً   فَتُرَى حَيَاةُ النَّاسِ مِنْ تلفازِه
يومًا يُطَيِّرُ غيمةً ورقيَّةً   وغدًا يحلِّقُ في جناحَيْ بازِه
ويرى القصيدةَ دُميةً فيعافُها   ويفضُّ سرَّ الغيبِ في إعْجازِه
مَنْ ذا يُصَدِّقُ أنَّ طِفْلا شاعرًا   وَبخيطِ إبْرةِ حرفِه وَمجازِه
يكسو جدارَ البيتِ بيتِ إلهِه   بِمُعَلَّقاتٍ مِنْ أنيقِ طِرازِه

*المقصود بيت المتنبي
وَيَمشي بِهِ العُكّازُ في الدَّيْرِ تائِباً
وَما كانَ يَرضى مَشيَ أَشقَرَ أَجرَدا

ما كان مُستَقبلُ عربيّةِ الجاهليّةِ دونَ القُرآن الكريمِ؟

أ/د: عـادل مُحَلّــو
أستاذ اللّسانيات والصوتيّات
جامعة الشّهيد حمّة لخضر، الوادي، الجزائر

ما من شكّ في أن نزول القرآن الكريم كان الحدثَ الأبرزَ في تاريخ العرب بعامّة؛ فقد كان الدّافع الأساس لتغيُّرٍ نوعيّ في كلّ مناحي حياتهم دفعَهُم للانتقال من حياة البداوة إلى بناء حضارة عالميّة. ومن أبرز الجوانب التي تجلّى فيها هذا الانتقال: «اللغة»؛ حيث توسّعت بفضل نزول القرآن الكريم رقعة متكلّميها ومستعمليها، وتحوّلت من لغة قبائل بدويّة في الجزيرة العربيّة إلى لغة الدّين والحضارة والإدارة في إمبراطوريّة الإسلام الجديدة[١].

ولكنّ مسار العربيّة بعد نزول القرآن لم يكُن تصاعُديًّا بشكل دائم؛ بل مرّ بأحوال كثيرة «تقلّب فيها بين الصّعود والهبوط، والغزارة والنّزارة»[٢]، إلّا أنّ هذه اللغة بقيت صامدة على امتداد قرون طويلة، ولم تندثر ولم تمُتْ كما حصل للغات أخرى كانت معاصرة لها، وذلك –كما يعبّر د. حسين السّوداني- بفضل خصائصَ ضمنت لها الاستمرار والحيويّة، وعلى رأسها ارتباطها بالنصّ القرآنيّ ومرونة هذا النصّ لتنوّع قراءاته[٣].

في ضوء هذا التّقديم، تحاول هذه الورقة الإجابة عن السّؤال التّالي: كيف كانت طبيعةُ عربيّةِ الجاهليّةِ في ذاتها وفي علاقتها مع جاراتها؟ وما كانت مسارات مستقبل عربيّة الجاهليّة دون القرآن الكريم؟ وما أثر ذلك على الهويّة العربيّة وعلى الثّقافة الإنسانيّة؟

١ـ طبيعة اللغة العربية الجاهليّة:

لم تكُن عربيّةُ الجاهليّة، التي وصلتنا من خلال الشّعر والنّثر، فقيرةً ولا مضطربة البناء؛ بل كانت «مهذّبَة مصقولةً حتّى بلغت مستوىً عاليًا من الدقّة، دقّة الدّلالة وإحكام الصّياغة والعبارة»[٤].

(١) أعلام الفكر اللغوي: التقليد اللغوي العربي، كيس فيرستيج، تر: د. أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧، ص: ١٨.
(٢) اللغة وبناء الذّات، د. عبد الرحمن بودرع وآخرين، كتاب الأمّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، س ٢٤، ع: ١٠١، جمادى الأولى ١٤٢٥، ص: ٢٧.
(٣) انظر: لماذا عمّرت العربيّة ومات غيرها؟، د. حسين السّوداني، مجلّة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ع ٧١٠، يناير ٢٠١٨، ص: ٩٦-٩٧.
(٤) اللغة وبناء الذّات، ص: ٣٢.

ولم تكُن ، وهي لغة القبائل البدويّة غير الموحّدة سياسيًّا، لهجاتٍ متنافرةً متباعدةً؛ وإنّما كانت منسجمةً ومتناسقةً إلى درجة كبيرة، جعلَتْ ما بينها من فروقات واختلافات، لا يرقى –كما يقرّر كورنيليس ه. م. فارشتيغ– إلى «أنْ يُهدّد وحدة اللغة الجوهريّة»[٥].

ولم يقف هذا الانسجام والتناسق عند حدّ الفروق اللغوية؛ بل تعدّاها إلى الفروق الدينيّة، فقد وصلتنا عربيّة الجاهليّة دون أن تبرز فيها سمات الوثنيّة ولا المسيحيّة ولا اليهوديّة، وإنّما غلبت عليها سمةُ البداوة التي جمعت أتباع تلك الدّيانات في الجزيرة العربيّة[٦].

٢ـ عربيّة الجاهليّة وجاراتُها:

ظلّت اللغة عربية الجاهليّة معزولة عن اللغات المحيطة بها زمنًا طويلًا، وكان تفاعلُها معها يتمُّ عن بُعد عبر ما تجلبُهُ التّجارة –وبعض الأنشطة الأخرى[٧]– من ألفاظ، دون احتكاك اجتماعيّ حقيقيّ؛ فلقد ظلّ العربُ حينها يتعاملون مع الأمم المحيطة بهم، وخصوصا الروم والفرس، تعاملًا حذرًا يكاد يقتصر على المجال الاقتصاديّ، وكلّما ساءت علاقتهم بجيرانهم لجؤوا إلى قلب الجزيرة العربيّة المنيع، مما دفَع هؤلاء الجيران الأقوياء إلى مُصادقتِهم وطلب ودّهم[٨].

إذَنْ؛ لم تتعدَّ صِلةُ العربية الجاهليّة بجاراتها من اللغات، اقتراضَ ألفاظٍ تنقلُها قوافل التّجارة التي كانت تخترق الجزيرة العربية ذهابًا وإيابًا، ولا شكّ في أنّ بعض هؤلاء التّجار، أو وكلائِهِم، كانوا مُلمّين بلُغاتِ الأمم التي يُتاجِرون معها؛ فالاقتراض «يقتضي مُقدَّمًا وجود أفرادٍ ثنائيي اللغة»[٩]. ولا

(٥) تاريخ التفكير اللساني، سيلفان أورو، تر: عبد الرزّاق بنور، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط ١، ٢٠١٠، جـ ١، م ١، ص: ٣٨٣.
(٦) انظر: في شرف العربيّة، د. إبراهيم السّامرائي، كتاب الأمّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ع: ٤٢، جمادى الآخرة ١٤١٥، ص: ١٢٥.
(٧) نقصد بالأنشطة الأخرى بعض الشعراء والوفود الّذين حلُّوا ببلاط الأكاسرة خصوصا.
(٨) لمزيد من التفصيل في هذه النقطة انظر: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجريّ، نجيب محمد البهبيتي، دار الفكر، ط ٤، ص:٧ وما بعدها.
(٩) اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، تر: د. أحمد عوض، عالم المعرفة، المجلس الأعلى

ينبغي –كما أسلفنا– أن نُنْكِر وجود قنوات أخرى انتقلت عبرها ألفاظ من لغات أخرى إلى عربيّة الجاهليّة؛ فـ«التّجارة ليست هي نطاقَ الانتقال الوحيد للاقتباس المعجميّ، ولكنّها تقوم بدور حاسم بالنّسبة لإظهار الفروق في التّطوّر في كثير من المجالات كالإنتاج والتّكنولوجيا»[١٠].

٣ـ مسارا مستقبل عربيّة الجاهليّة قبل القرآن:

في ظلّ وضع العرب في العصر الجاهليّ، وفي ضوء طبيعة لغتهم في ذاتها وفي علاقتها بجاراتها، لم يكُن أمام هذه اللغة –قبل نزول القرآن الكريم– إلا أن تسلُكَ أَحَدَ مساريْن: إمّا أن تظلّ مُنغلقةً على نفسها، أو أن تنفتح على مُحيطها. وكلاهُما سيؤدّي بها إلى التّشرذُم والاندثار.

إذا سلَكَت المسار الأوّل وظلّت حبيسة جُغرافيتها، فإنّ ذلك الانسجام والاتّساق بين لهجاتها سيتحوّل إلى صِراعٍ بينها، مُفرِزًا لهجاتٍ مُهيمِنةً تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى لغاتٍ مُستقلّة؛ فما اللغة إلا لهجةٌ لاقتْ نجاحًا من النّاحية السّياسيّة[١١]، فـ«معدّل تعمير الألسنة البشريّة يناهِز الخمسمائة سنة، وما بلغ من اللغات هذا العمر فإنّ الأصل فيه أن يخرُج من دائرة الاستعمال، ويكون امتداده في اللهجات المتفرّعة منه لتحلّ مكانه»[١٢].

ولعلّ ذلك ما طالَ عربيّة جنوب الجزيرة، أو ما اصطلح عليه اللغويّون العرب بـ«لسان حِمْيَر»، الذي كان عربيًّا ثمّ انفصل بمرور الزّمن عن لهجة الشّمال، ليصفهُ أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) بقوله: «ما لِسانُ حِمْيَر وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيّتهُم بعربيّتِنا»[١٣]، أو هي على الأقلّ لغة عربيّة قديمة ليست لها فصاحة لغتنا[١٤] كما يقول ابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ).

أمّـا إذا سلكت عربيّة الجاهليّة، قبل نـزول القرآن الكريم، المسلكَ الثّاني وانفتحت على الاحتكاك بما جاورها من لُغات الأمم، فإنّ تلك اللغات التي حولها ستفترسُها؛ لأنّها لغات شعوبٍ أكثرَ تحضُّرًا، وأكثرَ عددًا. إنّ تلك الفروق في التطوّر في كثير من المجالات كالإنتاج والتّكنولوجيا ستُقصيها من الاستعمال شيئًا فشيئًا، حتى تنحصر في مجالات تواصل بسيطة تؤدّي إلى اندثارها واستبدالها باللّغة المُهيمنة، فاللّغات المُسْتَبْدَلَة تأخُذُ في التّدهوُر بأن تفقد «الوظائف العليا، مثل استعمال اللغة في الميدان العموميّ، بما في ذلك العادات الدّينيّة والسّوسيوسياسيّة»[١٥]، وهو ما سينعكس على بنيتها التي سوف «تعاني من تقلّصاتٍ تركيبية ومن تبسيط في النظام اللغويّ، هو (...) ما يُمكنُ أن يُوصف بأعراض التّدهور اللغويّ»[١٦].

لقد كان مصير عربيّة الجاهلية، قبل نزول القرآن الكريم، الموتَ والاندثار؛ فإمّا أن تَرِثَها بناتُها من اللّهجات بأن تحلّ إحدى/ بعض لهجاتها محلّها، وإمّا أن تموت على يد لغة أخرى بأن تحلّ محلَّها لُغةٌ من لغات الأمم المجاورة لها.

٤ـ مسارا مستقبل عربية الجاهليّة والهويّة العربيّة:

الظّاهِرُ أنّ المسار الأوّل كان سيكون أقلّ ضررًا، على مستوى الإنسان العربيّ والهويّة العربيّة للجاهليّين، من الثّاني؛ أي أنّ «تغيب عربيّتُهُ بالتّحوّل»، بأن «يتطوّر فيها الشكل اللغويّ، ويتمايز جُغرافيًّا في أثناء توسّع الشّعب الذي يتحدّث به ليولد عائلة من اللغات»[١٧]، بدلًا من أن «تغيب بالاستبدال» الذي «يحدث في كلّ مرّة تغيبُ فيها لغة مغلوبة تُهيمِنُ عليها لغةٌ غالبةٌ»[١٨].

للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ٢٦٣، ٢٠٠٠، ص:٣٣٤.

(١٠) السّابق، ص: ٣٤١.

(١١) أيّ مستقبل للّغات، لويس جان كالفي، تر: جان ماجد جبّور، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، ط ١، ٢٠١٨، ص:٨٢.

(١٢) لماذا عمّرت العربيّة ومات غيرها؟، ص: ٩٤.

(١٣) طبقات فحول الشّعراء، ابن سلّام الجمحيّ، تحـ: محمد محمود شاكر، دار المدني، جدّة، جـ ١، ص: ١١.

(١٤) انظر: الخصائص، ابن جنّي، تح: محمد علي النّجار، المكتبة العلمية، جـ ٢، ص: ٢٨.

(١٥) دليل السوسيولسانيات، تحرير: فلوريان كولماس، تر: د. خالد الأشهب و: د. ماجدولين النهيبي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩، ص:٥٧٥.

(١٦) اللغة والاقتصاد، ص: ٢١٧.

(١٧) حرب اللغات والسياسات اللغوية، لويس جان كالفي، تر: د. حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨، ص:٢٠٤.

إنّ انغلاقَ عربيّة الجاهليّة على نفسها واقتراضَها ألفاظًا ـ ولو كَثُرَتْ –من اللغات المجاورة لها، لا يُمثّل خطرًا عليها؛ إذ لا «دليل يُشير إلى أنّ الاقتراض على نطاق واسع هو مؤشّرٌ أو طورٌ من أطوار التّدهوُرِ اللغويّ»[١٩]؛ بل على العكس من ذلك، فـ«اللغات تحيا بالاقتراض المُتبادل فيما بينها»[٢٠]، وهذا التّبادُل يجعل اللغةَ أكثر كمالًا كما يقول الشّاعر الفرنسي رونسار (ت ١٥٨٥م)[٢١].

أمّا انفتاحها على لغات الأمم المجاورة، واندثارُها واستبدالُها بتلك اللغة المُهيْمِنة، فإنّهُ خطَرٌ على الهويّة العربيّة التي ستذوب في هويّة مجتمع اللغة الغالبة؛ «فالسّمات اللغويّة هي رباطٌ يقرن الفرد بالهويّات الاجتماعيّة، فاللّغة تقدّم أدوات لخلق هذا الرّبط ومن ثمّ التّعبير عنه»[٢٢]. وليس الأمر بالمقتصر على فقدان الهويّة العربيّة؛ بل هو أعمق من ذلك على صعيد الثّقافة الإنسانيّة؛ ففُقدان أيّة لغة يمثّل خسارةَ الإنسانيّةِ لإحدى طرق رؤية العالم وتصنيف الموجودات فيه، إذ تُـوافِـقُ كلُّ لغة «تحليلًا خاصًّا بمعطيات التّجربة. ومعطيات التّجربة هي ما نشير إليه في العادة أنّه العالم الذي نعيشُ فيه»[٢٣].

إنّ انغلاق عربيّة الجاهليّة على نفسها، وإن كان سيؤدّي إلى حلول إحدى/ بعض لهجاتها محلّها، فإنّه لن يُضيّع إرثَها، وهو –أيْ انغلاقُها– وإن كان سيقطع مسار نمائها واستمرارها، فإنّ تَركَتَها في مستوياتها الصّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة والمعجميّة، وما راكمَتْهُ مِن خبرات إنسانيّة ووجدانيّة، لن يضيعا سُدًى، على خلافِ ما كان سيُصيبُها لو انفتحت على اللغات المجاورَة لها. كما أنّ هذا المسار الثّاني كان سيغدو، من النّاحية الزّمنيّة، أسرعَ إجهازًا على عربيّة الجاهليّة؛ لأنّ «التّهديد الذي تواجهه لغةٌ ما يكون أدنى خطورة حين تكون منعزلة»[٢٤].

٥ـ المسار الثّالثُ لمستقبل عربيّة الجاهليّة:

(١٨) السّابق، الصفحة نفسها.

(١٩) السّابق، الصفحة نفسها.

(٢٠) اللغة والاقتصاد، ص: ٣٣٥.

(٢١) حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص: ٣٣٩.

(٢٢) انظر: المُولَّد: دراسة في بناء الألفاظ، جان بريفو و: جان فرانسوا سابليرول، تر: خالد جهيمة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠١٠، ص:٧٢.

(٢٣) ـ دليل السّوسيولسانيات، ص: ٦٨٤.

(٢٤) وظيفة الألسن وديناميتها، أندريه مارتينيه، تر: نادر سراج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩، ص: ٣٤٨.

افترضنا آنفًا مساريْن مُستنبَطيْن من تاريخ اللغات، ومن نتائج البحوث اللسانيّة المختلفة، لما كان سيصيب عربيّة الجاهليّة دون نزول القرآن الكريم. ولكن هناك مسارٌ ثالثٌ أجّلنا الحديث عنه إلى هذا العنصر الأخير من عناصر هذه الورقة. ويتمثّل هذا المسار في أن يتحوّل الجاهليّون إلى قوّة سياسيّة واقتصاديّة عبر تحوّل نوعيّ يطرأ على الحياة العربيّة.

وهذا المسارُ هو الّذي افتتحَهُ نزول القرآن الكريم، مُحْدِثًا التّحوّل النوعيّ الدّافع نحو التّحوّل من موقف الضّعف إلى موقف القوّة، والمفجِّر للطّاقات الكامنة في الإنسان العربيّ.

لقد «ظلّت الجزيرة العربيّة قوّة كبرى خلال العصور القديمة كلّها، تُعاصِر آشورَ وبابلَ ومصر القديمة، ثمّ بقيت قوّة كبرى بعد انحلال هذه الأمم وزوال سلطانها، تُعاصر من جديد ملْك الإغريق، وامبراطوريّة الاسكندر، ثمّ الرّومان وبارثيا وبيزنطة. وكانت تقوم في وسط هذه الدّول جميعًا... ترقّب سقوط من يسقط منها، ونهوض من ينهض»[٢٥].

وبنزول القرآن انطلق أهلُها فاتحين، حاملين معهم لغتهم إلى الأمم الأخرى دون خشية من صراعٍ لهجاتِها فيما بينها، فقد تكفّل القرآن الكريم بجمعها بين دفّتيه، تحت راية لهجة قُريش التي امتلكت السّلطة السّياسيّة والدّينيّة والاقتصاديّة، وقد جمعها في نصّ قرآنيّ مُوحَّد دون أن يقضي على تنوّعها، وذلك عبر تعدّد قراءاته[٢٦].

وانطلقوا حاملين لغتهم إلى الأمم الأخرى دون خوف من هيمنة لغةٍ أخرى عليها، لأنّها ارتبطت بنصّ مُقدّس، ودون أن يتملّكهم هاجس النّقص العدديّ أمام الشّعوب الأخرى، لأنّ «الوضع الاجتماعيّ اللّغويّ أكثر حسْمًا من العدد القليل للمتكلّمين»[٢٧]، وكذلك دون أن تُعرِضَ تلك الأمم عن لُغتهم لأنّ القرآن الكريم استوعب ألفاظًا من لُغاتِها قبل أن يصل إلى مُتكلّميها.

(٢٥) أيّ مستقبل للّغات، ص: ١٩٥.
(٢٦) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجريّ، ص: ٨- ٩.
(٢٧) انظر: لماذا عمّرت العربيّة وماتت غيرها؟، ص: ٩٦- ٩٧.

لم يكُن القرآن الكريم مجرّدَ حلقة من حلقات تاريخ اللغة العربيّة، ولا مجرد نُقطة تحوُّلٍ في مسارِها؛ بل كان ضرورة وجوديّة بالنّسبة لها. لقد كان القرآن الكريم طوق نجاة لعربيّة الجاهليّة؛ إذ دفع عنها الموت، وحصّنها من الاندثار، ومنحها القدرة على الاستمرار والنّماء، ونشرها في جهات الدّنيا بعد أن كانت لغة قبائل بدويّة في الصّحراء العربيّة.

إنّ نزول القرآن الكريم حوّلها –بلُغَة اللسانيات– من لغة «حاصِرة»؛ أي لا يستعملُها إلا العرب في التواصل فيما بينهم فقط ضمن حدود بيان اللّسان العربيّ، إلى لغة «ناشِرَة»؛ أي تتكلّمُها أجناس من النّاس مختلفو اللغات حين يتواصلون فيما بينهم[٢٨]، في فضاء اللّسان العربيّ المُبِين.

(٢٨) أيّ مستقبل للّغات، ص: ١٩٥.

مُحاولات تيسير النَّحو العربيّ
بين فاعليّة القـدمـــاء وفـشـل المحـدثـيـن

أ.د/ نـوار عبيـــدي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الشاذلي بن جديد ـ الطارف ـ الجزائر

صورة تخيلية لسيبويه

أخذَ موضوع (تيسير النَّحو) منذُ بداياتِ القَرنِ العِشرين حَيِّزًا كبيرًا من اهتماماتِ اللُّغويّينَ والعلماءِ العَرب، بالإضافةِ إلى اهتمامِ المؤسَّساتِ كالمجامِعِ العربيّةِ، وقد نتجَ هذا الاهتمامُ في ظرفٍ عَرَفَ فيه المجتمع العربيّ من الخليجِ إلى المُحيط اضْطراباتٍ جمّةً، أبرزُها ظاهرةُ الاستعمار الذي فَتَحَ سُبلَ اختلاطِ الثّقافاتِ وتلاقُحِها، فوجدَ الإنسان العربيُّ نفسَهُ ممزَّقَ التّلابيب بين لغاتٍ كثيرةٍ، أبرزها الإنجليزيّةِ والفرنسيّةِ والإسبانيّةِ والإيطاليّة.

وأمـام انبهارِ الإنسان العربيّ بمظاهر الحضارة الغربيّة الوافدة وقع ما يشبه الرّدة، فاتّهمَ نفسهُ بالتّخلّف، وزاد في تأكيد ذلك ادّعاءات بعض المُستشرقين وبَعْض المُستغربين لمكانَتِهم العِلْميّة، وَمن هنا وُجِّهت التّهمة مباشرةً إلى اللّغة العربيّة التي عُدّتْ هي سببَ هذا التّخلف لعدم قدرتها على استيعاب العلوم، فكانت هذهِ التّهمة الخطيرة الدّافع الأوّل في إعادة النظر في النحو وأبوابِهِ، ومن ثَمّ تحميله مسؤوليّة هذا التّخلّف، ثمّ كانت العاميّة العربيّة –باختلاف مناطِقِها– لغة الاستعْمال اليوميّ، وقد استطاعت العاميّة ببساطة قبولَ كثيرٍ من الألفاظِ الأجنَبيّة خاصّة الإنجليزيّة والفرنسيّة، ولعلّ هذا الاستيعاب أوهمَ كثيرًا من النّاس بقدرةِ العاميّة على إحْلال مكان العربيّة الفُصحى. ونأتي الآن لنَطرح هذهِ الأسئلة:

لماذا تيسير النّحو؟

هل لأنّ اللغة العربيّة صعْبة التّعلم؟

أو لأنّ مَناهج تعليمها ضعيفة؟

أو لأنّ هناك أهدافًا أخرى تختفي وراء هذه الدّعوى؟

وستتّضح لنا هذه الاحتمالات الثّلاثة من خلال عرضٍ وجيز لمجهوداتِ القدماءِ والمحدثين في عمليّة تيسير النّحو.

مجهودات القدماء

الكلّ يعرف أنّ (اللّحن) كان السَّبَبَ الأساس لظهورِ النّحو، وقد بدأَت البوادر مع أبي الأسود الدّؤليّ بتوجيهِ من عليّ بن أبي طالب ﷺ، لكنّ التّأليف الفعليّ للنّحو بَدَأ مع سيبويه (١٨٠هـ).

وعمل سيبويه الأساسُ تمثّلَ في رصد الظّاهرة اللغويّة ووَصْفِها، ونقصد بالظّاهرة اللغوية (الكلام) وهو المصطلح الأكثر اطِّرادًا في (الكتاب)، ويَقصد به عمومًا سَننَ العرب في كلامهم. يقول مثلًا في رفع المبتدأ: «قوْلُك عَمرٌو لقيتُه وزيد كلّمتُه؛ إنْ حملت الكلامَ على الأوّلِ»[١]، أي إن قصدت الرّفع. وقوله: «ومن جعل (رويدًا) مصدرًا قال: رويدَك نفسَك... كما قال: عليك نفسك، حيث حمَلَ الكلامَ على الكاف»[٢]. بل وجعل سيبويه (الكلام) مقابلًا للشّعر؛ إذ يقول: «اعلَم أنّه يجوز في الشّعر ما لا يجوزُ في الكلام، من صرف ما لا ينصرف»[٣]. ويقول: «... لأنّهم يدعون هذه (الهاء) في كلامهم وفي الشعر كثيرًا، وذلك ليس في شيء من كلامهم، ولا تكاد تكون في الشّعر»[٤]، أو قوله: «وتقول: ما زيد ذاهبًا ولا عاقلٌ عمرٌو، ولأنّك لو قلت: ما زيد عاقلًا عمرو، لم يكن كلامًا»[٥].

ويَظهر لنا بجلاء أن سيبويه لم يَكن يصف سوى كلام العرب، وكان يخاطِب النّاس بِلغة يفهمونها ببساطة ويستوعبونها دون عناء، فهل فعلًا كان سيبويه يقصد التّفلسف في وضع علم النّحو كما زَعَمَ الكثيرون، وهو في أغلب الرّوايات لم يتمم من عمره عقده الرّابع؟

يقول د. أنيس فريحة: «إنّ الغرض من تدوين أحكام أيّة لغة هو الحفاظ عليها من الفساد، وتسليمُها نقيّةً إلى الجيل الطّالع، وقد أدرك قدامى الصّرفيّين والنّحْويّين الغاية القصوى من ضبط اللغة في أحكام وقواعد، وقد أبدوا من الدّقّة العلميّة ومن العمق في التّقصّي ومن الجَلَدِ في البَحْث؛ ما جعلَ غيرَ المُستعربِ يُشيدُ بفضلِ العربِ على العلوم اللسانيّة »[٦].

إنّ عمل سيبويه ومن أتى بعده من عمالقة اللغة والنّحو لم يكن هدَفَهُمْ فيه سِوى بَسْط أساليب الكلام في العربيّة وتقريبها إلى النّاس من جهة، ومن جهة أخرى حفظ اللغة من العبَث باعتبارِها لغة وَحي.

(١) سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٦٦، ج ١ ص ٩٩.
(٢) م.ن، ج ١ ص ٢٥١.
(٣) م.ن، ج ١ ص ٢٦.
(٤) م.ن، ج ١ ص ٧٢.
(٥) م.ن، ج ١ ص ٦١.
(٦) أنيس فريحة، نظريّات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٣، ص ١٦١.

والذين جاؤوا من بعد سيبويه، كالفرّاء (٢٠٧هـ)، والمبرّد (٢٨٥هـ)، وابن جنّيّ (٣٩٩هـ)، والزّمخشريّ (٥٣٨هـ)، وابن يعيش (٦٤٣هـ) وصولًا إلى ابن هشام الأنصاريّ (٧٦١هـ) وأصحاب الحواشي؛ ألّفوا للغرض نفسه الذي قصده سيبويه، ولم يكن هدفهم سوى تبسيط العربيّة وتقريبها للنّاس، وكذا الحفاظ على القرآن الكريم.

وقد أدرك كثير من النّحاة في القرون الأولى نوعًا من الصّعوبة في النّحو ككلّ العلوم؛ ففرّقوا (منهجيًّا) بين نوعين من متلقّي النّحو، النّوع الأوّل هم المتخصّصون والنّوع الثّاني هو العامّة وأكثرهم الصّبيان. وقد جاءت محاولات القدماء لتيسير وتبسيط مسائل النّحو في مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى

حيث كتب الأخفش الأوسط (٢٢١هـ)، وهو من الرّعيل الأوّل للنّحاة (المسائل الصّغرى) موجهًا إياه للمبتدئين، وكتب أبو عليّ الفارسيّ (٣٧٧هـ) (الإيضاح) وكان بسيطًا فأتْبَعَهُ بـ (التّكملة) وهو للمتخصّصين، كما حاول السّيرافيّ (٣٦٨هـ) شرحَ كتاب سيبويه ولم يُتمِمْه.

المرحلة الثّانية

وهي مرحلة المنظومات، حيث عَرفت اللغة العربيّة، كباقي العلوم الأخرى، قالبًا جديدًا لصَوْن قواعِدها، وكانَ الهَدَفُ من المنظومةِ واحدًا وهو حفظ العلم كلّه بأيسر الطّرق وهو الشّعر، وقد عُرِفَ العربيّ أصْلًا بوَلَعِهِ وحبّه للشّعر، فكانت (المنظومات) من أعجب ما خلقته العربيّة دون كلّ لغات العالم في حفظ العلوم بأنواعها (الدّينيّة والمعرفيّة).

ولعلّ ألفيّة ابن مالك (٦٧٢هـ) منْ أشهر الأعمال في النّحو العربيّ التي حظيت بعشرات الشّروح، أهمّها أوضَح المسالِك لألفيّة ابنِ مالِكٍ لابنِ هشام الأنصاريّ (٧٦١هـ)، وشرح ابن عقيل (٧٦٩هـ)، والمكودي (٨٠٧هـ)، والأشمونيّ (٩٠٠هـ)، والسّيوطيّ (٩١٠هـ) وغيرهم كثير[٧]. وهناك حواشٍ ومنظومات أخرى كثيرة خلفها جهابذة العربيّة عبر القرون تُسهّل النّحو والإعراب.

المرحلة الثّالثة

وهي مرحلة متزامنة تقريبًا مع المرحلة السّابقة، ويميّز هذه المرحلة ابن مَضاء القرطبيّ (٥٩٣هـ) عندما كتب كتابه المميّز (الرّدّ على النّحاة)[٨]، وقد ظهر الكتاب أوّل مرّة سنة ١٩٤٧ بتحقيق د. شوقي ضيف، وقد أثار الكتاب ضجّة كبيرة، حيث دبّجه المحقّق بمقدّمة طويلة أشادَ فيها بعمل ابن مضاء حتّى قال: «وقد سدّد ابن مضاء سهام ثَورته إلى نظريّة العامِل التي أحالت كثيرًا من جوانب النّحو العربيّ إلى عُقد صعبة الحل عسيرة الفهم (...). إنّ كلّ ما تصوّره النّحاة في عواملهم النّحويّة تصوّر باطل»[٩].

فقد ثار ابن مضاء ثورة واضحة ضد (العامِل)[١٠]؛ حيث يعده مشكلة النّحو الأساسية. وقد وافقه على ذلك مصطفى إبراهيم الذي أرجَعَ اهتمام النّحاة بالعامِل إلى تأثرهم بالفلسفة الكلاميّة، وأدّت عنايتهم بالعامِل إلى إضاعة معاني الكلام في أوضاعه المختلفة[١١]. ويتبنّى مثل هذا الرّأي د. مهدي المخزوميّ في كتابه (في النّحو العربيّ نقدٌ وتوجيه)، وكذا محمود تيمور في كتابِه (مشكلات اللغة العربيّة).

وأكّدت د. منى إلياس تأثّر ابن مضاء بالفلسفة الظّاهريّة التي لا تؤمن بالقياس، وأنّ ابن مضاء «سلك في النّحو مسلك الظّاهريّة في الفقه والأصول»[١٢]. لكن د. بكري عبد الكريم فنّد هذه النّظريّة، وأكّد أنّه لم يكن مخلصًا له كل الإخلاص، ردًّا على من قال إنّه

(٧) انظر: خليفة حاجي، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والعلوم، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، ١٩٩٠.
(٨) ابن مضاء، الرّدّ على النّحاة، تح: شوقي ضيف، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧.
(٩) الرّد على النّحاة، م س، المقدّمة.
(١٠) عبد الكريم بكري، ابن مضاء وموقفه من أصول النّحو، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط١ ١٩٨٤ ص ١٢٥وما بعدها.
(١١) انظر: إبراهيم مصطفى، إحياء النّحو، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ١٩٣٧.
(١٢) انظر: منى إلياس، القياس في النّحو، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ط١/١٩٨٥. ص١٤٤.

الأخفش

د.شوقي ضيف

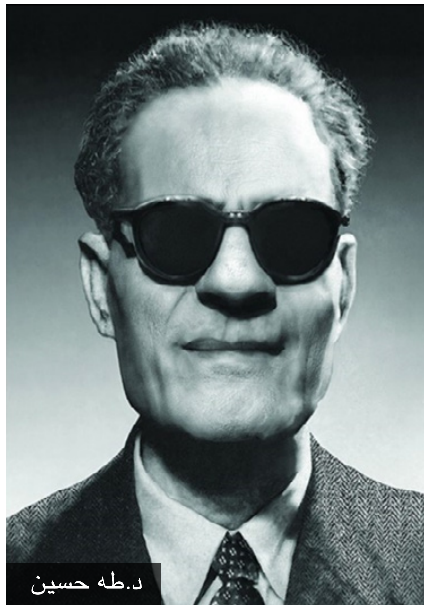
د.طه حسين

اتّخذ هذا الموقف لتدعيم سياسة معينة آنذاك[١٣].

لقد ناقش ابن مضاء مسألة العامل[١٤]، وطالب بصراحة بتخليص النّحو منه، بالإضافة إلى نقده لمسألة تقدير العوامل المحذوفة، ومتعلّقات المجرورات والضّمائر المستترة، وكذا مسائل التّنازع والاشتغال.

تلكم هي إذن بصورة موجزة محاولات القدماء التي في أغلبها أوضحت أنّ النّحو يحتاجه نوعان من النّاس: المتخصّصون والمبتدئون؛ فمن أرادَ سبر أغوار العربيّة والتّفقّه في أسرارها، فذلك متوفّر لدى كبار صنّاع النّحو، ومن أراد أن يتعلّم سنن العرب في كلامها، ويصقل لسانه فكتُب الشّروح والمنظومات متوفّرة.

محاولات المحدَثين

لعلّ أبرزَ محاولة في دعوى تيسير النّحو ما فعله إبراهيم مصطفى في كتابِه (إحياء النّحو) الذي صدَرَ سنة ١٩٣٧، وقد دبّج طه حسين هذا الكتاب بمقدّمة طويلة أشاد فيها بالكاتِب والكِتاب. يقول طه حسين: «وأنا أتصوّر النّحو على وجهين: الأوّل أنْ يقربّه النّحويّون من العقل الحديث ليفهمه ويستسيغه ويتمثّله، ويجري على تفكيره إذا فكر وعلى لسانه إذا تكلّم وعلى قلمه إذا كتب، والثّاني أن تشيع فيه القوّة التي تحبب إلى النّفوس درس ومناقشة مسائله (...)، وأشهدُ لقد وُفِّقَ إبراهيم إلى إحياء النّحو على هذين الوجهين»[١٥].

وهذه الشّهادة كانت دعمًا قويًّا لما ذهب إليه إبراهيم مصطفى من آراء، أقلُّ ما يقال عنها إنها تقليد ساذج لكتاب ابن مضاء، فكلّ ما امتاز به في هذا التّأليف هو أنّه «عرض كتاب (الرّد على النّحاة) عرضا جذّابًا وحاول تطبيقه»[١٦] كما قال عبد الكريم بكري، حيث إن إبراهيم مصطفى أنكر العامل وقال إنّ الحركات من عمل المتكلّم وليست ناتجة عن اللفظ، وكان هدفه الواضح التّقليل من أبواب النّحو.

وقد انبرى له آنذاك عدد من العلماء خاصّة من نحويي الأزهر الشّريف كما فعل الأستاذ محمد أحمد عرفة في كتابه (النّحو والنّحاة بين الأزهر والجامعة)، وقيل إن ردّه كان قاسيًا.

(١٣) انظر: ابن مضاء وموقفه من النّحو، م س، ص٣٤.
(١٤) والعوامل نوعان: لفظيّة، ومعنويّة. أمّا النّوع الأول: فهي إمّا عوامل قياسيّة وعددها سبعة (الفعل، اسم الفاعل، اسم المفعول، الصفة المشبّهة، المصدر، الاسم المضاف، الاسم التام). وإمّا عوامل سماعيّة وعددها ثلاثة عشر (حروف الجر، الحروف المشبّهة بالفعل، الحرفان (لا وما) المشبهان بـ (ليس)، حروف تنصب الاسم، وحروف تنصب الفعل المضارع، وحروف تجزم الفعل المضارع، أسماء تنصب ما بعدها على التّمييز، أسماء الأفعال، الأفعال النّاقصة، أفعال المقاربة، أفعال المدح والذّم). وأمّا النّوع الثّاني فهي الابتداء في رفع المبتدأ، وتجرّد المضارع من النّصب والجزم، وشبهه بالاسم ما يجعله مرفوعًا. للتفصيل انظر: محمد خان، مدخل إلى أصول النّحو، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط/١، د ت، ص٨٦.

(١٥) انظر إحياء النحو، م س، المقدّمة.
(١٦) ابن مضاء وموقفه من أصول النّحو، م س، ص ١٧٠.

أخطر المحاولات

ومن المحاولات الفرديّة الخطيرة محاولة محمود تيمور في كتابه «مشكلات اللغة العربيّة»، وهذه المحاولة تهدف أساسًا إلى التّخلص من النّحو تدريجيًّا حتّى تحلّ العاميّة المصريّة محلّ العربيّة بالكامل.

فالمرحلة الأولى تقتضي «تصفية القواعد الكثيرة وغربلتها (...)، وحتّى تتقارب لغة الكتابة والكلام (يقصد هنا العاميّة) يومئذٍ يقتصر على قدر ضئيل من نحو العربيّة»[١٧].

وقد بذل محمود تيمور جهدًا كبيرًا في هذا الكتاب، لإقناع غيره بضرورة التّخلّي عن العربيّة واستبدالها بالعاميّة لغةً كتابة وحديث، ويذهب تيمور أبعد من ذلك حين يرى أنّ العاميّة يمكن أن تعالج مشاكل الفصحى، فيقول: «الخير كلّ الخير في أن ندرّس قواعد العاميّة ومراجعتها من اللهجات العربيّة، عسى أن نستعين بها في إمداد قواعد الفصحى بما يوسع قيمتها، وما يعالج مشكلاتها التي تعانيها في الوفاء بحاجات مجتمعنا الرّاهن»[١٨].

ويرى أنّ التّعبير بالعاميّة أقوى من الفصحى حين يقول: «وفي كثير من الأحيان لا يكون للكلمة الفصيحة أو الجملة الطّويلة من الوقع على السّمع ومن قوّة التّأدية، ما يكون للكلمة العاميّة الدّائرة على أفواه النّاس في معناها المقصود»[١٩].

وأخطر ما دعا إليه تيمور هو استبدال الحروف العربيّة بالحروف اللاتينيّة؛ بدعوى أنّ المطبعة تحتاج إلى ٣٠٠ شكل للحرف العربيّ ما عدا أشكال الحركات، وهي الدّعوة التي نادى بها (عبد العزيز فهمي باشا)، يقول محمود تيمور عن الحلّ الأوّل في مشاكل الطّباعة العربيّة: «آثرت أن أبدأ به (أي استبدال الحروف العربيّة باللاتينيّة) تحيّة لأستاذنا صاحب المعالي عبد العزيز فهمي[٢٠] باشا متّعه الله بالعافية، فأدّى بهذا الحل في بيان لا أعدّه إلا وثيقة تاريخيّة من أنفس وثائقنا التي تعالج مشكلاتنا الثّقافيّة، ولذلك لم يجد بدًّا من اختيار هذه الحروف اللاتينيّة التي شاعت في أكثر لغات العالم، فهي وسيلة تقريب بين الأمم (...)، وقد اتّخذها معاليه أساسًا لطريقته، ولكنّه أدخل عليها من ضروب التّعديل ما يناسب ضبط الكلام العربيّ على أدّق وجه»[٢١].

ثمّ اقترح تيمور اختراع حروف جديدة تحلّ محلّ حروفنا العربيّة، ودعا الفنّانين والرّسامين إلى البدء في البحث.

ثم ّاقترح صيغة أخرى ويراها الحلّ الأنسب، وهي التّقليص من عدد أشكال الحرف الواحد والاكتفاء بشكلٍ واحد[٢٢].

إنّ المتمعّن في آراء تيمور لا يستطيع أن يعلّق عليها بشيء، ومثل هذه الدّعوات ردّ عليها الكثير من العلماء والباحثين الذين فهموا وعرّوا أهداف هؤلاء، في القضاء ليس على العربيّة فقط بل على الحضارة العربيّة والإسلاميّة جمعاء.

ومن أهم محاولات التيسير، نذكر الإصدارات الآتية:

-(لتحيا اللغة العربية، يسقط سيبويه) لمؤلفه شريف الشوباشي، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٤.

- (جناية سيبويه، الرّفض التّام لما في النّحو من أوهام) لمؤلفه زكريا أوزون.

ومن المؤلفات أيضًا:

– (تطوير الدّرس النّحويّ) لصاحبه حسن عون.

– (في إصلاح النّحو العربيّ) لصاحبه عبد الوارث مبروك.

– بالإضافة إلى مجهودات د. شوقي ضيف (تجديد النّحو طبعتان، وأعمال مهدي المخزوميّ، خاصّةً: (في النّحو العربيّ نقد وتوجيه).

هذا ويمكن أن نشير بإيجاز إلى محاولات بعض المؤسّسات

(١٧) محمود تيمور، مشكلات العربيّة، منشورات المكتبة العصريّة، بيروت، د ط، د ت، ص ١٦.

(١٨) م ن، ص ١٧٨

(١٩) م ن، ص ١٨١

(٢٠) وعبد العزيز فهمي عضو في مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة في دورة ١٩٤٣، زعم أنّ اللغة العربيّة تأخرّت قرونًا عديدة وانقطع ما بين قديمها وحديثها، وأنّ هذا التّأخر عاصر عهد التّطور الصّناعيّ والتّقدم الأوروبيّ. لكن المجمع رفض اقتراحه على الرّغم من أنّه دافع عنه طويلًا.

انظر: عبد المنعم الدّسوقي، مجمع اللغة العربيّة، دراسة تاريخية، الهيئة المصريّة العامّة. ص ٧١.

(٢١) م ن، ص ٥١

(٢٢) فالغين مثلًا لها أربعة أوجه: في أول الكلمة (غـ)، في وسط الكلمة (ـغـ)، في آخر الكلمة (غ)، منفصلة (غ)، وبالتّالي فإنّا نكتب لفظة مغرب هكذا (مـ غـ ر ب)، ولفظة بالغ هكذا (با لـ غـ)، و لفظة فارغ هكذا (فا رغـ)، ويقترح لنا نصا بهذا الشكل العجيب تحت عنوان (صحيفة المثال) انظر: م ن، ص ٧٣.

في هذا المجال، لعلّ أبرزها (لجنة تيسير النّحو)[٢٣] التي أنشأتها وزارة المعارف المصريّة سنة ١٩٦١، وقد اقترحت هذه اللجنة وجوب الاستغناء عن الإعراب التّقديريّ والمحليّ في المفردات والجمل، واقترحت مصطلحي (الموضوع والمحمول) بدل المسند والمسند إليه أو المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، كما اقترحت وجوب التّخلص من الفلسفة العالقة في النّحو وكثرة مصطلحاته، وجعلت كلّ المنصوبات تحت اسم واحد (التّكملة).

وقد واجه علماء الأزهر هذه اللّجنة آنذاك، وخلصوا إلى أنّ أعمالها ستحدث فجوة واسعة بين القديم والحديث، وستحرم الأجيال المقبلة من الانتفاع بما فيها من أفكار سامية ومعارف رائعة[٢٤].

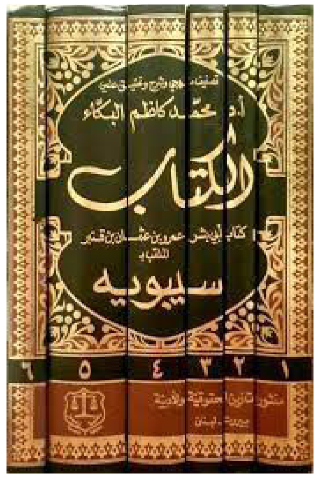

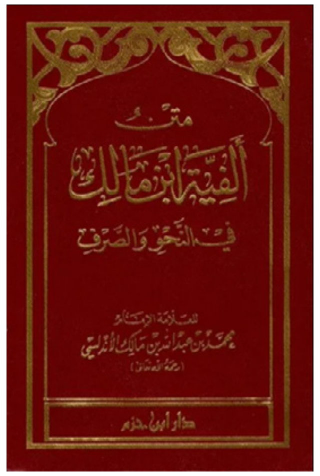

خاتمة

نخلص من كلّ ذلك، إلى أنّ محاولات تيسير النحو تراوحت بين هدفين:

الأول: جعل النحو في متناول الجميع وهو ما رأيناه عند القدماء، ونواياهم لم تخرج عن محور النّهوض بالعربيّة والحفاظ عليها، ومن ثمّ الحفاظ على القرآن الكريم.

الثّاني: اتّهام النّحو وإظهاره كبحر هائج يصعب دخوله للانتفاع بلآلئه، وتحميلُه سبب تخلّف الأمّة، والنّحو أساسًا بريء من هذه التّهمة براءة يوسف من دم الذّئب. وإذا كان الأمر كذلك فإنّا نرى أنّ محاربة التّخلف اللغويّ تكمن في أمور ستّة:

١ـ الاهتمام بلغة الطّفل، وتدريبُهِ منذ صغره على نطق العربيّة بحفظ القرآن الكريم والنّصوص الأدبيّة (شعرًا ونثرًا)، وتشجيعه على التّعبير الشّفوي بالعربيّة.

٢ـ محاربة الألفاظ الهجينة المنتشرة خاصّة في العاميّة، والتّنبيه عليها والتّحسيس بكافة الوسائل بخطورتها على اللسان العربيّ، حيث يحتوي معجم الألفاظ المتداولة في الجزائر مثلا على نسبة كبيرة جدًا من الألفاظ الفرنسيّة، فاستحال اللسان ينطقها دون تثبّتٍ، وذلك ما أسميناه باللاوعي اللغويّ[٢٥].

٣ـ الاستفادة من اللسانيّات لتطوير الأداء اللغويّ بالعربيّة، خاصّة في مجال اللسانيّات التّعليميّة.

٤ـ تحبيب الطّالب في مادّة النّحو العربي، وحثّه على الاستفادة منه لفهم الذّخيرة العربيّة والنّهل من الكنوز المعرفيّة القديمة، انطلاقًا من المستوى الابتدائيّ.

٥ـ عدم التّساهل مع طلّاب الجامعة (خاصّة في أقسام اللغة العربيّة وآدابها) في مقياس النّحو والصّرف، وجعلُه مادّةً ذات مُعامل كبير.

٦ـ وأخيرًا: التّصدي لكلّ محاولة تهدِف إلى الحطّ من النّحو العربيّ، ومن ثَمّ اللغة العربيّة لغة الوحي المقدّس.

(٢٣) أعضاؤها: طه حسين، أحمد أمين، علي الجارم، محمد إبراهيم، إبراهيم مصطفى.

(٢٤) انظر: ابن مضاء وموقفه من أصول النّحو، م س، ص ١٧٥.

(٢٥) نقصد باللاوعي اللغويّ عدم إدراك المتكلّم لكلامه تمامًا كالمغمي عليه باعتبار أن المتكلّم بالعاميّة الجزائريّة يتلفّظ بمئات الألفاظ الفرنسيّة معتقدًا أنّها عربيّة. وقد أحصينا في دراسة معجميّة أكثر من مائتي لفظة فرنسيّة تستعمل في المحيط المنزليّ فقط، أما الشّارع ففيه المئات الأخرى.

شعر: د. شهاب غانم

لكَ الحمدُ

لك الحمد في الأولى، لك الحمد في الأخرى ... فأنت الذي أنزلت من أجلنا الذكرا
كلام هو الإعجاز في كل آية ... بلفظ ومعنى، عدّه عتبةٌ سحرا
وأهديتنا السبع المثاني هداية ... لتملأنا حمداً وتَغْمُرَنَا شكراً
وسوَّيْتَها سبعاً طباقاً يضمها ... مَعَ الأَرْضِ ذَا الكرسيُّ يحفظها الدهرا
ومن فوقه العرش العظيم كأنه ... فلاةٌ بها الكرسيُّ كالحَلْقَةِ الصغرى
لك الحمد في الأولى، لك الحمد في الأخرى ... فأنت بعثت الأنبياء لنا تترى
وأرسلت خير المرسلين محمداً ... ليكمل دين الله ينشره نشرا
وأرسلته للآدميين رحمة ... وللجن، بل للعالمين لهم طرًّا
ولم يمضِ إلا بعد ترك محجة ... تشع بياضاً، مدُّها يقهر الجزرا
محجة نورٍ ليلُها كنهارِها ... عليها سيبقى كلُّ مستمسك حرّا
لك الحمد في الأولى، لك الحمد في الأخرى ... فأنت الذي أعطيتنا لغةً بحرا
فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتِها ... عن اللؤلؤ المكنون فيها ككمثرى؟
وقد وسعت آي الكتاب فهل ترى ... سيعجزها أن تَحْوِيَ الطبَّ والجبرا
هي الشَّهْدُ إلا أن من أُعْطِيَتْ لَهُمْ ... أُولُو ألسنٍ لا تعرف الشهد والقطرا
هي الوردُ إلا أن من أُعْطِيَتْ لهم ... أنوفُهُمُ لا تعرف الورد والعطرا
لك الحمد في الأولى، لك الحمد في الأخرى ... فأنت الذي أعطيتني الرزق والشِّعْرَا
وتمنحني النعماءَ في كل خطوة ... فلست أرى مِنْ بَعْدِ عَدٍّ لَهَا حصرا
تقلبني في الخير يمناً ويسرةً ... وتحفظني مِمَّنْ أَرَادَ بِيَ الشَّرَّا
وما زلتَ تَحْبُوني وأمضي مُقَصِّرًا ... فتسترني سترًا وترفعني قدرا
فهبني فؤاداً شاكراً كلَّ لحظةٍ ... وتوبةَ قلبٍ مسرفٍ تسبق القبرا

معنى الغريبِ

في اللُّغة واشتقاقه

د. نبيل قصاب باشي

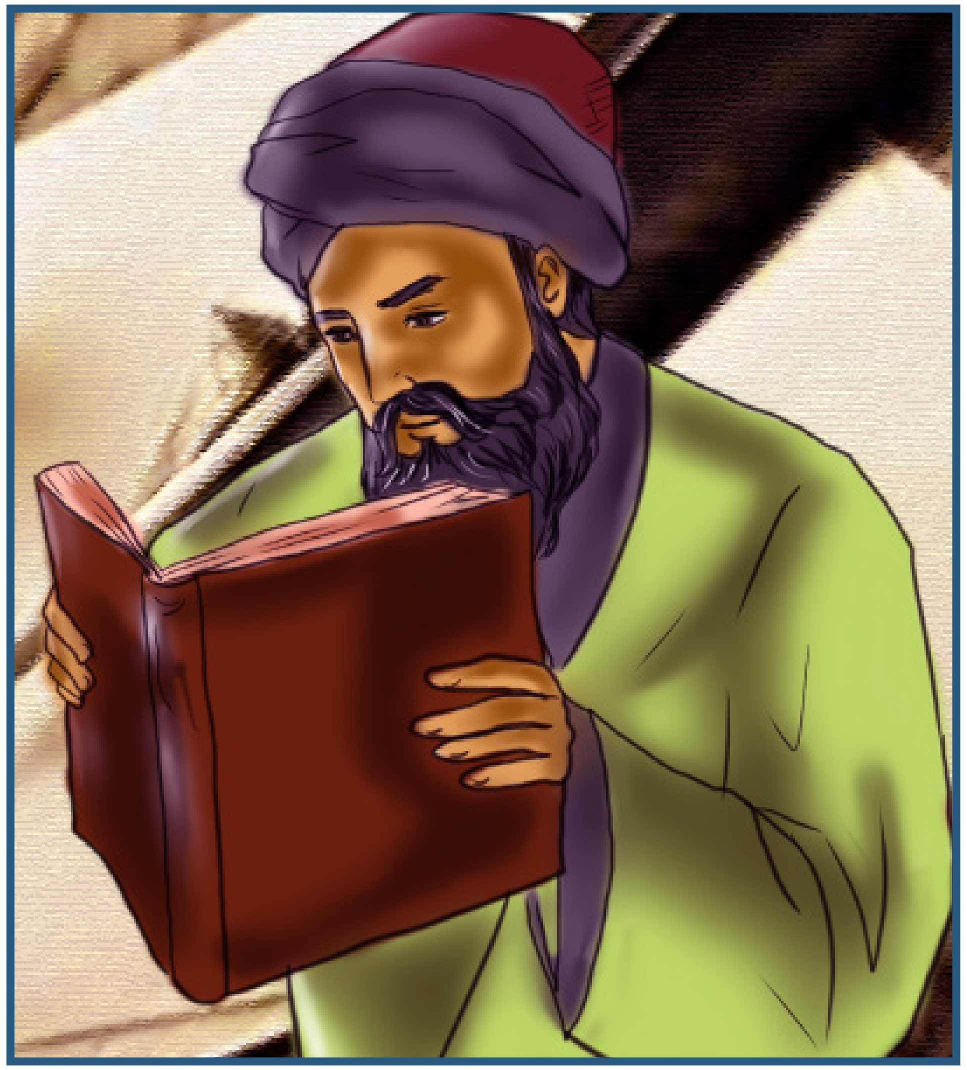

صورة تخيلية لـ الخطيب البغدادي

أولاً: الغريبُ في اللُّغةِ:

الغريبُ في اللُّغةِ هو الغامضُ من الكلامِ[١]؛ وأغربَ الرَّجلُ: جاءَ بشيءٍ غريبٍ[٢]. ويقالُ في كلامِ العربِ: غربت الكلمة غرابةً: إذا غمضت وخَفِيَتْ معنًى، وغرب الرَّجل يغرُبُ: إذا ذَهب الرَّجل وبَعُدَ[٣].

و«الغَريبُ منَ الكلامِ: إنَّما هو الغامِضُ البَعيدُ من الفَهْمِ، كالغَريبِ من النّاس: إنَّما هو البعيدُ عن الوَطنِ، المُنقَطِعُ عن الأهْلِ، ومنْهُ قولُك للرَّجلِ إذا نَحَّيْتَهُ وأقْصَيْتَهُ: اُغرُبْ عَنّي: أي ابعُد. ومِنْ هذا قولُهم: نَوًى[٤] غَرْبَةٌ أي بَعيدة، وشأوٌ مُغرِبٌ[٥] وعَنقاءُ مُغْرِب[٦] أيْ جائيةٌ من بُعدٍ. وكلُّ هذا مأخوذٌ بعضُه من بعضٍ؛ وإنَّما يختلِفُ في المصادِرِ فيُقالُ: غَرَبَ الرَّجُلُ يَغْرُبُ غَرْبًا: إذا تَنَحَّى وذَهَب. وغَرُب غُرْبَةً: إذا انْقطَعَ عَنْ أهلِه؛ وغَرُبَتْ الكلمةُ غَرابةً وغَرَبَت الشَّمسُ غُروبًا»[٧].

و«الغريبُ من الكلامِ، يُقالُ به على وَجهَين:

أحدهما: أنْ يُرادَ به أنَّهُ بعيدُ المعنى غامضُه، لا يَتناوَلُه الفهمُ إلا عَنْ بُعْدٍ ومُعاناةِ فِكرٍ.

والوجهُ الآخر: أنْ يُرادَ به كلامُ مَنْ بَعُدَتْ بِهِ الدّارُ، ونأى بِهِ المَحلُّ مِنْ شواذِّ قبائلِ العَرَبِ فإذا وَقَعَتْ إلينا الكلمةُ مِنْ لُغاتِهم استَغْرَبْناها؛ وإنَّما هي كلامُ القومِ وبيانُهم. وعلى هذا ما جاءَ عَنْ بَعضِهم وقال لهُ: أسأَلُك عن حَرْفٍ مِنَ الغريبِ؛ فَقالَ: هوَ كَلامُ القومِ. إنَّما الغَريبُ أنْتَ وأمثالُك من الدُّخَلاءِ فيه.

قالَ الخَطابي: أَخْبَرَني الحَسَنُ بن خَلّاد أَخْبَرَنا بن دُرَيد قالَ: قالَ أبو زيد: قلتُ لأَعرابيٍّ: ما المُحْبنطىء[٨]، فَقالَ: المُتَكَاكِىءُ[٩]، قُلتُ: ما المتكاكِىء، قالَ: المُتآزِفُ[١٠]، قُلتُ: ما المتآزِف، قالَ: اذهَبْ فأنْتَ أحمق»[١١].

ب- الغريبُ في مُصطلحِ الحديث:

مِنَ البَدهيِّ أنْ يُقال: الحديثُ ضِدَّ القديم؛ لأَنَّهُ يَحْدُثُ شيئًا فشيئًا، ويُستَعْمَلُ في قليلِ الكلامِ وكثيرِه[١٢].

والحَديثُ في الاصْطِلاحِ: هو أَقوالُ الرَّسولِ ﷺ؛ وقيلَ: هو أَقوالُ الصَّحابةِ والتّابعينَ لَهُم بِإحسانٍ وآثارهم وفتاواهم[١٣].

أمّا الغَريبُ في مُصطَلَحِ الحديثِ فهوَ الذي يَتفَرَّدُ به بعضُ الرُّواةِ. ومِنَ الغريبِ ما هو غَريبٌ مَتْنًا وإسنادًا، وهو الذي تَفرَّدَ بروايةِ مَتْنِه راوٍ واحدٌ. ومنهُ ما هو غريبٌ إسنادًا لا مَتْنًا، كالذي يَرْوي مَتْنَهُ جماعةٌ من الصَّحابةِ.

والغَريبُ في مُصطَلَحِ الحديثِ قِسْمان: صَحيحٌ، وغير صحيحٌ؛ وهوَ الغالبُ على أحاديثِ الغَرايبِ؛ وهذا النَّوعِ هو الذي قالَ فيه ابن حَنْبل: لا تَكتُبوا هذه الأحاديث الغرايب، فإنَّها مناكير، وعامَّتها عن الضُّعفاء[١٤].

ج- وأمّا غريبُ الحديثِ مِنْ حيث اللُّغة

فهو ما وَقَعَ في مَتْنِه مِنَ الألفاظِ التي خَفِيَ معناها وغَرُبَ لِدِقَّتِها وقلَّةِ استعمالِها[١٥]. ومَتْنُ الحديثِ ألفاظُه التي تقومُ بها المَعاني[١٦].

وهذهِ الأَقوالُ المَنْسوبةُ إلى الصَّحابةِ أو التّابعين، متى جاءَتْ مِنْ طَريقِ المُحدِّثين، تأخُذُ حُكْمَ الأَقوالِ المَرْفوعةِ إلى رَسولِ الله ﷺ، مِنْ جِهةِ الاحْتِجاجِ بها في إِثْباتِ لفْظٍ لُغويٍّ، أو وَضْعِ قاعدةٍ نحويَّةٍ[١٧].

وليسَ المُعوَّلُ في فَنِّ غريبِ الحديثِ أنْ نَتَوخّى منْه معرفةَ صناعةِ إسنادِه وما يَتَعلَّقُ به؛ وإنَّما المُعوّلُ عليه فَهمُهُ وعِلْمُه

---

(١) اللسان والتاج (غرب) .

(٢) اللسان (غرب) .

(٣) اللسان (غرب) .

(٤) النوى : المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك . اللسان (غرب) .

(٥) شأو مُغرِّب ، ومغرَّب بفتح الراء : بعيدٌ . اللسان (غرب) .

(٦) عنقاءُ مغربٌ ومغربةٌ ، وعنقاءُ مغربٍ على الإضافة طائر عظيم يبعد في طيرانه ، وقيل : هو من الألفاظ الدالة على غير معين ، والعنقاء المغرب . قال أبو علي : هكذا جاء عن العرب بغير هاء . اللسان (غرب) .

(٧) الخطابي : غريب الحديث ١/ ٧٠ - ٧١ .

(٨) المُحبنطىء : السمين ، ضخم البطن .

(٩) المتكاكىء : القصير .

(١٠) المتآزف : القصير . اللسان (أزف) وانظر : السيوطي : المزهر ١/ ٤١٣ .

(١١) الخطابي : غريب الحديث ١/ ٧١ .

(١٢) اللسان (حدث) .

(١٣) النواوي : تدريب الراوي ٢/ ١٨٤ .

(١٤) مقدمة ابن الصلاح ١٣٦ بتصرف .

(١٥) انظر في هذا : معرفة علوم الحديث ٨٨ ومقدمة ابن الصلاح ١٣٧ والتقريب ٣٢ (مقدمة شرح الكرماني) والباعث الحثيث ١٦٧ وتدريب الراوي ٢/ ١٨٤ .

(١٦) الخلاصة ٣٠ وتدريب الراوي ٢/ ١٨٤ -١٨٥ .

(١٧) انظر بحث : ((الاستشهاد بالحديث في اللغة)) . لمحمد الخضر حسين . عن مجلة مجمع اللغة العربية . القاهرة ٣/ ١٦٧.

والعَمَل به[١٨].

ولا جَرَم أنَّ الخوضَ في هذا الفَنِّ يَتطلَّبُ دِرايةً جمَّةً ومعرفةً مُتقَنَةً. قال المُحدِّثون: الخَوضُ فيه صعبٌ، فَلْيَتَحرَّ خائضه[١٩].

ورُوِيَ عن الإمامِ أحمد بن حنبل (ت-٢٤١)، أنَّهُ سُئِلَ عن حَرفٍ مِنْ غريبِ الحديثِ فقال: «سَلوا أَصحابَ الغريبِ، فإنِّي أكرَهُ أنْ أتكلَّمَ في قولِ رسولِ الله ﷺ بالظَّنِّ فَأُخطئ»[٢٠].

ثانيًا: دواعي التَّأليف في غريب الحديث:

إنَّ السَّببَ الأساسَ الذي روَّجَ لهذا الفنِّ، وحثَّ على التَّصنيفِ فيه؛ إنَّما هو اختلافُ الرُّواةِ في تأديةِ الحديث بألفاظٍ عدّة تحتَها معنى واحد، ولذلك – أيضًا – دوافِعُ ودواعٍ أُخرى ذَكرها الخطابي في قوله: «إنَّه ﷺ بُعِثَ مبلِّغًا ومعلِّمًا؛ فهو لا يَزالُ في كلِّ مقامٍ يقومه، وموطنٍ يَشهدُهُ؛ يأمرُ بمعروفٍ، ويَنْهى عن مُنكرٍ، ويُشرِّعُ في حادثة، ويُفتي في نازلةٍ؛ والأسماعُ إليهِ مُصْغية، والقلوبُ لما يَرِدُ عليها من قولِه واعية؛ وقد تختلفُ عنها عباراتُه ويتكرَّرُ فيها بيانُه، ليَكونَ أوقَعَ للسَّامعين، وأقرَبَ إلى فَهْمِ مَنْ كانَ منهم أقلَّ فقْهًا، وأقربَ بالإسلامِ عهدًا.. وأولو الحِفظِ والإتقانِ مِن فُقَهاءِ الصَّحابةِ يُوعونَها سَمْعًا ويستوفونها حفظًا، ويؤدّونها على اختلافِ جِهاتِها فَتَجتَمِعُ لذلكَ في القضيَّةِ الواحدةِ عِدَّةُ ألفاظٍ تحتَها معنى واحد، وذلك كقولِه عليه السَّلام: «الولَدُ للفِراشِ وللعاهِرِ الحجر»[٢١]، وفي رواية أخرى: «وللعاهِرِ الإِثْلِب»[٢٢]، وقد مَرَّ بِمَسامِعي ولَمْ يَثبُتْ عندي: «وللعاهِرِ الكِثْكِث»[٢٣] – بِفتحِ الكافين وكَسْرِهما-.

وقد يَتكلَّمُ ﷺ في بعضِ النَّوازلِ، وبِحَضرتِه أخلاطٌ من النّاسِ، قبائلُهم شَتّى، ولُغاتُهم مختلفة، ومَراتِبُهم في الحِفظِ والإتقانِ غيرُ مُتَساوية؛ وليس كلّهم يتيسّرُ لِضَبطِ اللّفْظِ وحَصْرِه، أو يَتَعمَّدُ لِحفظِه وَوَعيه؛ وإنَّما يستدرِكُ المُرادَ بالفَحوى ويتعلَّقُ منه بالمعنى ثُمَّ يُؤدِّيه بلُغته، ويُعبِّرُ عنهُ بِلسانِ قبيلتِه، فَيَجتَمِعُ في الحَديثِ الواحِدِ إذا انشعَبَت طُرُقُه عدَّةُ ألفاظٍ مُختلفَةٍ مُوجِبها شيءٌ واحد، وهذا كما يُروى: أنَّ رجلًا كان يُهدي إلى رَسولِ الله ﷺ كلَّ عامٍ (راوية خمر)، فأهداها عامَ حُرِّمَتْ فقال: إنها حُرِّمَتْ، فاسْتَأذَنَه في بيعِها، فقال له: إنَّ الذي حَرَّمَ شُربها حرَّمَ بَيْعَها، قال: فما أصنَعُ بها؟ قال: سُنَّها في البَطْحاء، قال: فسَنَّها، وجاءَ في روايةٍ أُخرى: فَهَتَّها، وفي روايةٍ أخرى: فَبعَّها.. والمعنى واحد.

ولِكَثرةِ ما يَرِدُ مِنْ هذا ومِنْ نَظائرِه، يَقولُ أبو عُبَيدة مَعمَرُ بن المُثنَّى: أعيانا أنْ نَعرِف أو نُحصي غريبَ حديثِ رسولِ الله ﷺ، قالَ أبو سُليمان: حدَّثَنيه أحمد بن مالك، حدثنا الدّغولي عن المُظفَّريّ قال: قال ذلك أبو عبيدة[٢٤].

ويَحصُر ابن الأثير الدَّواعي التي أدّت إلى وَضْعِ هذا الفَنِّ بقوله:

١- كانَ ﷺ يُخاطِبُ العربَ على اختلافِ شُعوبِهم وقبائلِهم وتبايُنِ بُطونِهم وأَفْخاذِهم وفَصائلِهم، كُلًّا منهم بما يَفْهَمون، ويُحادِثُهم بما يَعلَمون، ولهذا قال صدَقَ الله قوله: «أُمِرتُ أنْ أُخاطِبَ النَّاسَ على قَدْرِ عقولِهم»[٢٥].

ثُمَّ يقول ابن الأثير: «واستمَرَّ عَصْرُه ﷺ إلى حينِ وَفاتِه على هذا السَّنن المستقيم، وجاءَ العصرُ الثَّاني –وهو عَصرُ الصَّحابة– جاريًا على هذا النَّمَط، سالكًا هذا المنهج، فكانَ اللِّسانُ العربيُّ عندهم صحيحًا محروسًا لا يَتداخَلُه الخَلَل، ولا يَتطرَّقُ إليهِ الزَّلَل»[٢٦].

٢ – ويُتابِعُ ابنُ الأثيرِ قولَه: «إلى أنْ فُتِحَت الأمصار، وخالَط العربُ غيرَ جِنْسِهم من الرّومِ والفُرْسِ والحَبَشِ والنَّبَط، وغيرِهم مِنْ أنواعِ الأُمم، وتَداخَلت اللُّغاتُ ونَشَأَ بينَهم الأَولاد، فَتَعلَّموا من اللِّسانِ العربيِّ ما لابُدَّ لهمْ في الخِطابِ منه، وحَفِظوا من اللُّغةِ ما لا غِنى لهُمْ في المُحاوَرَةِ عنه، وتَركوا ما عَداه لعَدَمِ الحاجةِ إليه، وأهمَلوهُ لِقلَّةِ الرَّغبةِ في الباعِثِ عليه، فَصارَ بعد كَونِه مِنْ أهَمِّ المَعارِفِ مُطَّرَحًا مهجورًا، وبعد فرضيّتِه اللّازمَةِ كأَنْ لَمْ يَكُن شيئًا مذكورًا»[٢٧]. ويُتابِعُ ابنُ الأثيرِ قولَه أيضًا:

٣ – ثُمَّ استحالَ اللِّسانُ العربيُّ عندَ التَّابعين –أعجميًا أو كاد-، فلا ترى المُستقِلَّ به والمُحافِظَ عليه إلّا الآحاد»[٢٨].

ويَرفُض السَّيِّد (محمّد عظيم الدّين) – وهو رَفْضُ مُنْصِفٍ واعٍ – أنْ يكونَ ما زَعمَه ابن الأثير تحتَ الرَّقَمِ الثَّاني والثّالث سببًا ملائمًا للتّأليفِ في هذا الفَنِّ، ثُمَّ يطرَحُ تعليلَه قائلًا: «لأنَّ العلماءَ بَذَلوا جهودَهم في جَمْعِ غريبِ الحديثِ ونوادِرِه، لإدراكِ معنى الحديثِ والتَّفقُّهِ في الدّين، لا لِمَعرفةِ كلامِ تبعِ التّابعين الذين أصبحَ اللِّسانُ العربيّ أعجميًا في عَصرِهم، كما زَعَمَ ابنُ الأثير»[٢٩]. ثُمَّ يَنتَهي «عظيم الدّين» إلى كلامٍ حَسَنٍ في هذا الصّدَدِ فيقول: «ومَهما كان من وُجوهِ التّأليفِ وأسبابِه؛ فإنَّ الفَنَّ أصبحَ من اللَّوازمِ التي لابُدَّ منها في فَهْمِ الحديث، وإدْراكِ مَعانيه، وممّا لا شَكَّ فيهِ أنَّ السَّلَف إذا وَجَدوا كلمةً غريبةً، أو معنًى مُستَغلقًا في مَتنِ القرآنِ والحديثِ، ولم يَكُن النَّبيُّ ﷺ ولا صحابتُه موجودين لإيضاحِ غريبِ اللّغات، وتأويلِ العبارات، رَجَعوا إلى كلامِ العربِ وأشعارِهم للبَحثِ عن مادَّتها ولاستكشافِ معانيها، فأصبَحَت نتائجُ البحثِ والتَّحقيقِ عِلْمًا مُستقِلًّا بذاته، وبَدَأ العلماءُ يُؤلِّفون الكُتُبَ حول غريبِ الحديثِ مِن ابتداءِ القَرنِ الثّاني الهجريِّ»[٣٠].

ثالثًا: حركةُ التَّأليف في غريب الحديث مِنْ مطلع القَرْنِ الثّالث حتّى الرّبع الأخير من القرنِ الرّابعِ الهجريّ:

نَشَأَ فنُّ التَّصنيفِ في هذا العِلْمِ في أواخِرِ القرنِ الثّاني ومطالعِ القرنِ الثَّالث الهِجْرِيَّيْن، وقد تناول (ابن النّديم) في (فهرسته)[٣١] ذِكْرَ نَفَرٍ غيرِ قليلٍ مِمَّن ارتادَ سبيلَ هذا العِلْمِ ولَزِمَ طريقَتَه؛ وكذلك فعلَ (الخطّابيّ) في مقدّمة كتابه (غريب الحديث)[٣٢]؛ وابن الأثير في مقدّمة (نهايته)[٣٣]، والخطيب البغدادي في (تاريخه)[٣٤]؛ وغيرهم كثير مِمَّن ترجَموا لِرجالِ هذا الفَنِّ وأئمّتِه.

ومِنَ المُفيد –ههنا– أَنْ نأتيَ إلى ذِكْرِ ما أَورَدَه مُحقِّقَا

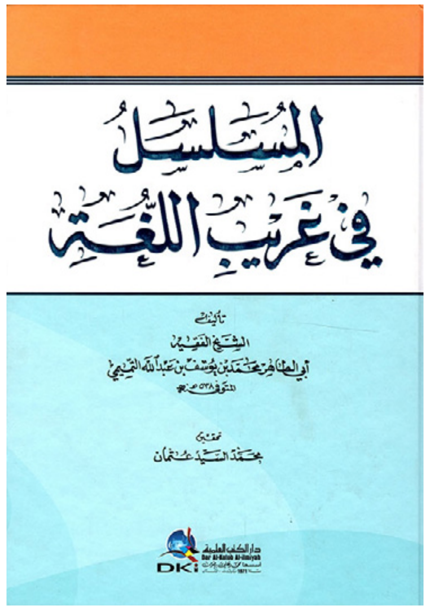

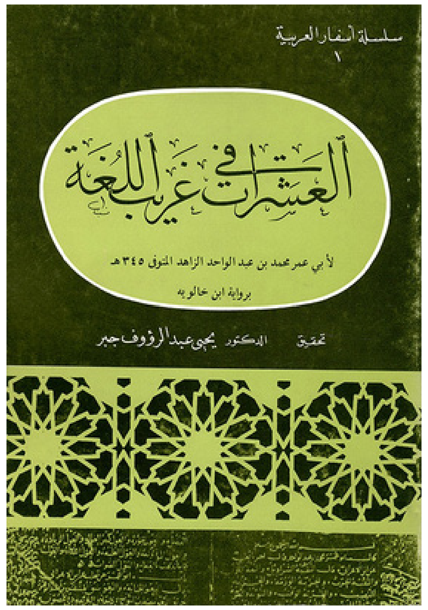

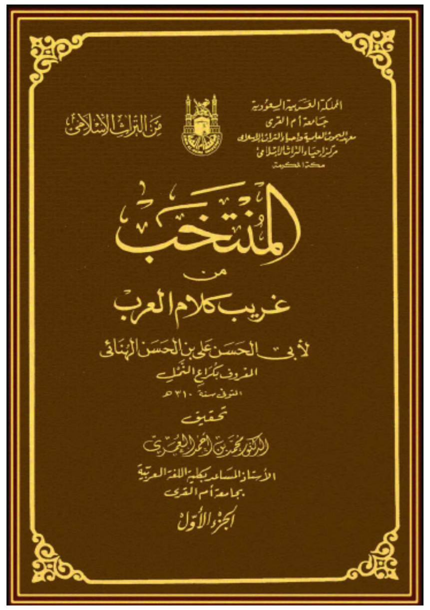

(١٨) انظر: الباعث الحثيث ١٦٧- تعليق حول مصطلح غريب الحديث من حيث تصنيفه في أصول الحديث.
(١٩) تدريب الراوي ٢/١٨٤. ومقدمة ابن الصلاح ١٣٧.
(٢٠) المصدر السابق ٢/١٨٤ – ١٨٥.
(٢١) الخطابي: غريب الحديث ١/٦٨، أخرجه البخاري ٤/٤، ومسلم ٢/١٠٨٠ وغيرهما.
(٢٢) المصدر السابق ١/٦٨، رواه ابن حنبل ٢/١٧٩، ٢٠٧، من حديث ابن عمرو.
(٢٣) المصدر السابق ١/٦٨.
(٢٤) المصدر السابق ١/٦٨، ٦٩.
(٢٥) ابن الأثير: النهاية. المقدمة ١/٤.
(٢٦) المصدر السابق. المقدمة ١/٥.
(٢٧) المصدر السابق ١/٥.
(٢٨) المصدر السابق ١/٥.
(٢٩) أبو عبيد القاسم بن سلام: غريب الحديث. مقدمة المحقق محمد عظيم الدين ١/ج.
(٣٠) المصدر السابق: غريب الحديث. مقدمة المحقق محمد عظيم الدين ١/ج و د.
(٣١) فهرست ابن النديم ١٢٩.
(٣٢) الخطابي: غريب الحديث. المقدمة ٤٦.
(٣٣) ابن الأثير: النهاية. المقدمة ١/٥ – ٦ – ٧.
(٣٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٢/٤٠٥.

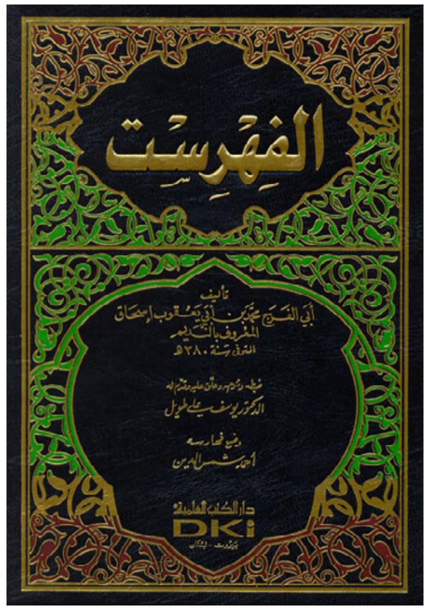

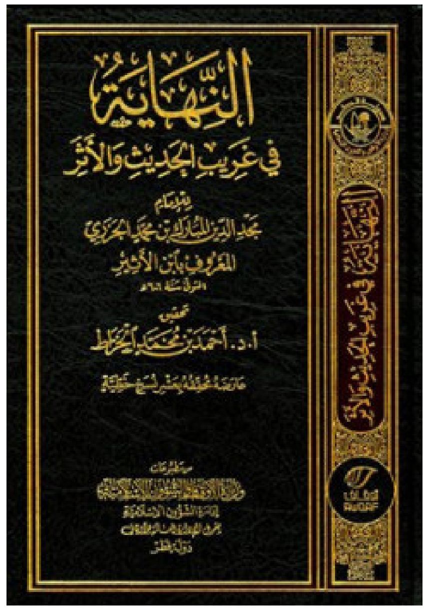

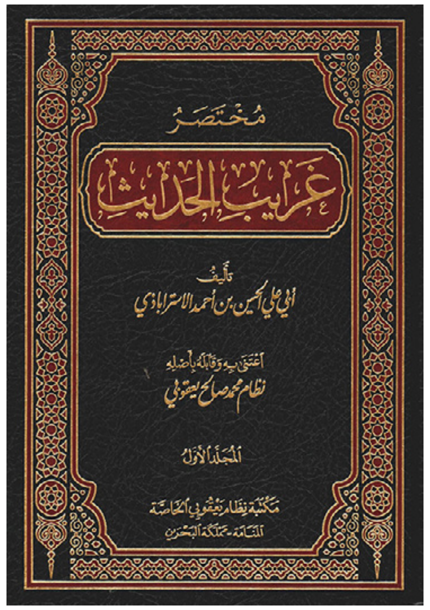

(النّهاية) من مُصنَّفي غريب الحديث في مقدّمة كتابَيهما إلى أواخرِ القرنِ الرّابع الهجريّ، وذلك لِنُدرِكَ أهميَّة ما بَذَلَه علماء العربيَّة والمُحَدِّثون من جُهدٍ جَهيدٍ في العَمَلِ بهذا العِلْمِ من جهة، ولِنَقِفَ على قيمَتِه العلميَّةِ واللُّغويَّةِ من جِهَةٍ ثانية.

مُصنِّفو غريب الحديث في القرن الثّالث الهجريّ:

- النَّضر بن شميل المتوفّى سنة (٢٠٣هـ)[٣٥] .
- الحسن بن محبوب السرّاد. من أصحاب الإمام الرضا، المتوفى سنة (٢٠٣هـ).
- محمد بن المستنير، قُطْرُب[٣٦] المتوفّى سنة (٢٠٦هـ) واسم كتابه (غريب الآثار).
- أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى التّيميّ، المتوفّى سنة (٢١٠هـ)[٣٧] .
- أبو عمرو الشّيبانيّ، إسحاق بن مرار، المتوفّى سنة (٢١٠هـ).
- أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعيّ الأخفش الأوسط، المتوفّى سنة (٢١١هـ)[٣٨] .
- عبد الملك بن قريب الأصمعيّ، المتوفّى سنة (٢١٦هـ)[٣٩] .
- ابن الأعرابيّ، محمّد بن زياد، المتوفّى سنة (٢٣١هـ)[٤٠].
- عليّ بن المُغيرة الأثرم، المتوفّى سنة (٢٣٢هـ)[٤١].
- أبو مروان عبد الملك بن حبيب المالكيّ الإلبيري، المتوفّى سنة (٢٣٨هـ)[٤٢].
- أبو عبيد القاسم بن سلّام، المتوفّى سنة (٢٤٤هـ)[٤٣].
- أبو جعفر محمّد بن حبيب البغداديّ النَّحويّ المتوفّى سنة (٢٤٥هـ).
- أبو جعفر محمّد بن عبد الله بن قادم[٤٤].
- شمر بن حَمْدَوَيه الهرويّ، المتوفّى سنة (٢٥٥هـ).
- ثابت بن أبي ثابت، ورّاق أبي عبيد القاسم بن سلّام.
- ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مسلم المتوفّى سنة (٢٧٦هـ)[٤٥].
- أبو مجد سلمة بن عاصم الكوفيّ[٤٦].

(٣٥) فهرست ابن النديم ٧٧ .
(٣٦) المصدر السابق ٣٨ .
(٣٧) المصدر السابق ٧٩ .
(٣٨) ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ٤٠٥/١٢ .

(٣٩) فهرست ابن النديم ١٢٩ .
(٤٠) فهرست ابن النديم ١٢٩ .
(٤١) المصدر السابق ٨٣ و ١٢٩ .
(٤٢) المصدر السابق ١٢٩ .
(٤٣) المصدر السابق ١٢٩ .
(٤٤) يذكر السيوطي في (البغية ص٥٩) أن أبا جعفر خرج من بيته ولم يرجع سنة (٢٥١هـ) .
(٤٥) فهرست ابن النديم ١٢٩ .
(٤٦) قال ابن الجزري : توفي بعد السبعين ومائتين فيما أحسب . طبقات القرّاء ٣١١/١ . وذكر صاحب كشف الظنون أنه توفي سنة ٣١٠ هـ . كشف الظنون ص ١٧٣٠ .

- أبو اسحق إبراهيم الحربيّ المتوفّى سنة (٢٨٥هـ).
- أبو العباس محمّد بن يزيد المبرّد. المتوفّى سنة (٢٨٥هـ) .
- محمّد بن عبد السّلام الخُشَنيّ. المتوفّى سنة (٢٨٦هـ) أو (٢٨٤هـ).
- أبو العبّاس أحمد بن يحيى، ثعلب، المتوفّى سنة (٢٩١هـ).
- ابن كيسان، محمّد بن أحمد بن إبراهيم. وكتابه نحو أربعمائة ورقة[٤٧].
- محمّد بن عثمان الجعد، أحد أصحاب ابن كيسان[٤٨].
- ومن رجال القرن الرّابع الهجريّ:
- أبو محمّد القاسم بن محمّد الأنباريّ المتوفّى سنة (٣٠٤هـ).
- أبو موسى الحامض، سليمان بن محمّد بن أحمد، المتوفّى سنة (٣٠٥هـ)[٤٩].
- قاسم بن ثابت بن حزم السّرقسطيّ، المتوفّى سنة (٣٠٢هـ).

وتوفّي أبوه ثابت الذي أكمل عمله سنة (٣١٣هـ).

- ابن دريد، أبو بكر محمّد بن الحسن، المتوفّى سنة (٣٢١هـ)[٥٠].
- أبو بكر محمّد بن القاسم الأنباريّ المتوفّى سنة (٣٢٨هـ) وقيل: إنّ مصنّفه في غريب الحديث خمسة وأربعون ألف ورقة[٥١].
- أبو الحسين عمر بن محمّد بن القاضي المالكيّ المتوفّى سنة (٣٢٨هـ).
- أبو عمر محمّد بن عبد الواحد الزّاهد، غلام ثعلب، المتوفّى سنة (٣٤٥هـ). وكتابه على مسند أحمد بن حنبل.
- ابن دُرُسْتُوَيه، أبو محمّد عبد الله بن جعفر، المتوفّى سنة (٣٤٧هـ)[٥٢].
- أبو سليمان الخطّابي، حَمَد بن محمّد بن إبراهيم بن الخطّاب البُستي الشّافعيّ المتوفّى سنة (٣٨٨هـ)[٥٣].

(٤٧) معجم الأدباء ١٣٩/١٧ . وقد ذكر الخطيب أنَّ ابن كيسان توفي سنة ٢٩٩ هـ . تاريخ بغداد ٣٣٥/١. ومثله في إنباه الرواة ٥٩/٣ . وفيه قال الزبيدي : وهذا التاريخ لوفاته غلط . وقال ياقوت في معجم الأدباء ١٤١/١٧ : الذي ذكره الخطيب لا شك سهو ، فإني وجدت في تاريخ أبي غالب همام بن الفضل : أن ابن كيسان مات في سنة عشرين وثلاثمائة .
(٤٨) فهرست ابن النديم ١٢٩ .
(٤٩) فهرست ابن النديم ١٢٩ .

(٥٠) فهرست ابن النديم ١٢٩ .
(٥١) وفيات الأعيان ٤٦٤/٣ .
(٥٢) فهرست ابن النديم ١٢٩ .
(٥٣) انظر مقدمة محققي النهاية ٣/١-٦ . وانظر ما نقله حاجي خليفة (١٢٠٤/٢ -١٢٠٧) عن مقدمة ابن الأثير (النهاية ٦٠٣/١) في تعداده لأوائل من ألفوا في غريب الحديث . وانظر ما جاء في ((تسمية الكتب المؤلفة في غريب الحديث)) لابن النديم . الفهرست ١٢٩ . دار المعرفة بيروت ١٩٧٨

مفهوم الشّعر عند ذي الرّمّة

إنّ تحديدَ مفهومٍ تقريبيٍّ للشّعرِ عندَ ذي الرّمّةِ ينبعُ منْ قناعةٍ مَفادُها أنّ الشّاعرَ لم يكنْ يبدعُ بلا بوصلةٍ هاديةٍ أو تصوّرٍ سابقٍ أو غايةٍ محدّدةٍ، وتزدادُ هذه القناعةُ رسوخًا إذا استحضرْنا مكانةَ الشّاعرِ في عصرِه من حيثُ كونُه إمامَ مدرسةِ البيانِ بشهادةِ النّقادِ وعُلماءِ اللغةِ والشّعراءِ المُنافسين، فهو إمامُ الوَصْفِ، و«أحسنُ الإسلاميين تَشْبيها»[1]، وأقدَرُ الشّعراءِ على نقلِ نبضِ الصّحراءِ. إنّ شاعرًا، هذا ديدنُهُ وتلكَ صفاتُهُ، لا بُدّ أنْ يَصدرَ عنْ تصوّرٍ خاصٍّ للعمليّةِ الإبداعيّةِ، وفهمٍ لوظيفتِها التي تَضْطلعُ بها، وتظهرُ هذه الوظيفةُ في الأغراضِ التي يركّزُ عليها، فَمِن الشّعراءِ مَنْ يبرعُ في إتقانِ الصّنعةِ دونَ عنايةٍ بوظيفةٍ خارجَ الوظيفةِ الفنيّةِ، وهناكَ مَن يجعلِ المضمونَ أكبرَ مَطلبٍ يصبُو إليه، ومِنْ أولئكَ مَن يجعلِ الجانبَ الوظيفيَّ والفنّيَّ متوازيين يسيرانِ في خطٍّ واحدٍ، وذو الرّمّةِ من التّيّارِ الأخيرِ.

د / سعيد بكور

نركّزُ في محاولةِ تحديدِ مفهومِ الشّعرِ عندَ ذي الرّمّةِ وعلاقتِه بالنّزعةِ البيانيّةِ على نُقطتين كَفيلتينِ بتكوينِ صورةٍ عامّةٍ عنْ تصوّرِ الشّاعرِ للشّعرِ، هما: تحديدُ وظيفةِ الشّعرِ عندَ الرّجلِ، وتسليطُ الضّوءِ على تصوّرِه لمفهومِ الجودةِ الفنيّةِ.

١-وظيفةُ الشّعرِ:

يُسلِمُ تتبّعُ شعرِ ذي الرّمّةِ إلى أنّهُ يراهنُ على العنايةِ بأمرين هما: التّعبيرُ عنْ صَدى النّفسِ، ووَصفُ الصّحراءِ، إذْ يجعلُ لهما مِنْ شعرِه نصيبًا وافرًا. والنّاظرُ في مقدّماتِهِ الطّلليةِ، وما فيها من بَوحٍ وشكوى وحَنينٍ إلى ماضٍ أفَلَ وكثْرةِ ذكرِ الدّمعِ، يلْحَظُ أنّ العنايةَ بالجانبِ النفسيِّ كانتْ حاضرةً في تَصوّرِهِ ونظرتِهِ للشّعرِ ووظيفتِهِ التي ينْبَغي ألّا تُعزلَ عمّا هو نفسيٌّ، وما الشّعرُ إلّا تعبيرٌ عنْ صَدى النّفسِ في علاقتِها بما هو وجوديٌّ.

ينظُرُ ذو الرّمّةِ إلى الشّعرِ على أنّهُ وسيلةٌ للتّعبيرِ عنْ صدى النّفسِ ومكْنوناتِها، وميدانٌ تعبيريٌّ لوصفِ الواقعِ وعالمِ الصّحراءِ بكُلِّ تفاصيلِه وجزئيّاتِهِ، وهو بعدَ ذلك تعبيرٌ جماليٌّ أنيقٌ يُعتنى فيهِ بالجانبِ الجَماليِ حقّ العنايةِ، مما يجعلُهُ ينقلُ الصّورةَ والمعنى في قالبٍ فنّيٍّ تصويريّ عليهِ أُبّهةٌ وطَلاوةٌ.

يشكّلُ الابتداءُ بالأطلالِ سُنّةً شعريّةً عندَ ذي الرّمّةِ، لا يتخلّى عنْها في قصائدِه، ومِن عادتِه أنْ يُضمّنَ مُقدّماتِهِ الطّلليةَ والغزليّةَ تعبيرًا عنْ موقفٍ وجوديّ مِنَ الحياةِ والكونِ في سيرورتِهما وتغيّرِهما، ويقفُ مَوقفًا فلسفيًّا عميقًا عندَ ظاهرةِ الموتِ والفَناءِ التي تتجلّى بوضوحٍ في تقلّبِ الدّهرِ ومَآلِ ديارِ الأحبّةِ التي تحوّلتْ بفعلِ عواملِ التّعريةِ الزّمنيّةِ (والطبيعية) إلى بقايا ديارٍ تشهدُ على ماضٍ آهلٍ فنِيَ وماتَ، وهذهِ النّظراتُ الفلسفيّةُ العميقةُ التي يصدرُ عنها الشّاعرُ في مقدّماتِهِ تؤكّدُ نزوعَهُ نحوَ إعطاءِ الجانبِ النّفسيّ القدْرَ الأوفرَ من اهتمامِه.

ولوصفِ الصّحراءِ مكانُ الصّدارةِ في شعرِ ذي الرّمّةِ، فهي معشوقتُهُ التي لا يفارقُها في أسفارِه وأشعارِه، وقد حظيتْ بالنّصيبِ الأوفرِ من جُغرافيا قصائدِه، ووصلَ ولعُهُ بها إلى أنْ وصفَ كلَّ ما يدورُ في عالمِها من تحوّلاتٍ وصراعاتٍ ودقائقَ، إذْ نظمَ فيها ما يقاربُ الألفي بيتٍ. وهو يصفُها «وصفَ مَنْ يندمِجُ فيها ويفنى»[2]. ويُظهِرُ هذا الولعَ بالصّحراءِ وعالمِها المسجورِ بالغموضِ اقتناعًا بوظيفةِ الشّعرِ في نقلِ العالَمِ الخارجيّ ووصفِه، فالشّعرُ – حسْبَ تصوّرِ ذي الرّمّةِ – ليسَ بَوحَ وجْدانٍ أو تألّقَ خيالٍ أو لعبًا بيانيًّا أو محضَ صناعةٍ لغويّةٍ، بلْ هو محاولةٌ لصياغةِ الواقعِ في قالَبٍ جَماليّ، بما يبتعدُ بالشّعرِ عن التّوثيقِ الحرفيّ التّسجيليّ، ويقرّبُهُ مِنْ غايتِهِ الفنيّةِ التي لا تنفصِلُ عن

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ج١٧-٢٤، تحقيق دار إحياء التراث العربي

(٢) التطور والتجديد في الشّعر الأموي، شوقي ضيف، دار المعارف، ص ٢٥٠.

الوظيفةِ المضمونيّةِ.

وممّا يميّزُ تصوّرَ ذي الرّمّةِ الإبداعيَّ، أنّهُ ابتعدَ عن الأغراضِ المركزيّةِ (المدح، الهجاء، الرّثاء) وأخلصَ شعرَهُ لوصفِ عالمِ الصّحراءِ بتفاصيلِهِ وكلٍّ ما يعجُّ فيهِ، ولعلّ الابتعادَ عن هذهِ الأغراضِ لم يكنْ يعبّرُ عن نقصِ شاعريّةٍ بقدرِ ما كان يدلُّ على خيارٍ فنّيٍّ نابعٍ من تصوّرٍ خاصٍّ للعمليّةِ الإبداعيّةِ وفهمٍ لوظيفتِها، ودليلُ ذلكَ أنّ مدائحَ كثيرةً لذي الرّمّةِ ذاتُ جودةٍ من حيثُ المعنى والصّورةِ. ويُضافُ إلى ما سبقَ طرحُهُ بخصوصِ رؤيةِ ذي الرّمّةِ للشّعرِ، أنّهُ يُخلصُ للوظيفةِ الجماليّةِ، ويظهَرُ ذلكَ في ولعِهِ وعنايتِهِ المفرطةِ بالتّشبيهِ وآليّاتِ البيانِ، بشكلٍ يعكسُ النّظرةَ الفنيّةَ والرّؤيةَ البيانيّةَ التي يؤمنُ بها ويحاولُ إيصالَها بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ، ولعلّ عنايتَهُ الظّاهرةَ بالتّشبيهِ جعلَتْ شعرَهُ ذا وظيفةٍ جماليّةٍ بيانيّةٍ لا تلغي غيرَها مِنَ الوظائفِ ولا تهمّشُها، بلْ تضيفُها إليها ليتعالقَ المضمونيّ بالفنّيّ أبهى تعالقٍ.

ولم يكنِ التّشبيهُ عندَ ذي الرّمّةِ مجرّدَ حليةٍ يُقصدُ بها التّزيينُ واستعراضُ العضلاتِ، بل كانَ مُحدِّدًا أساسيًّا من محدِّداتِ الشّعريّةِ، وركنًا ركينًا من فلسفتِهِ الشّعريّةِ ورؤيتِهِ الفنّيّةِ، وملمَحًا مميّزًا لأسلوبِهِ الشّعريّ. وقد بدا ذلك واضحًا في قصائدَ صارتْ لوحاتٍ بيانيّةً تنطقُ جمالًا، وتنضحُ مائيّةً، وتشعُّ سحرًا.

- الجودةُ الفنّيّةُ:

منْ ناحيةِ الرّؤيةِ الفنّيّةِ لقضيةِ الجودةِ الفنّيّةِ وعواملِها التي يمكنُ استخراجُها مِنْ تتبّعِ إبداعِ الشّاعرِ، يعلنُ ذو الرّمّةِ في كثيرٍ مِنْ أشعارِهِ والأخبارِ المرويّةِ عنهُ عن تصوّرِهِ للجودةِ الفنّيّةِ وعواملِها المنتجةِ لها، فهو ينتمي إلى مدْرَسةِ المحكّكينَ التي يُعنى شعراؤُها بتنقيحِ الشّعرِ وتجويدِهِ، فلا يخرجونَهُ إلا بعدَ فترةٍ طويلةٍ من الزّمنِ خوفًا منَ الخطأِ واتّهامًا للنّفسِ، ولا شكَّ أنّ النّاظرَ في شعرِهِ، ودرجةِ تماسكِهِ، ودقّةِ تشبيهاتِهِ يخرجُ باستنتاجٍ مفادُهُ أنّ الرّجلَ يُعنى بمعاودةِ النّظرِ فيما يبدعُهُ، فلا يخرجُهُ إلّا بعدَ أنْ يطمئنَّ لهُ.

ومِنْ فرطِ عنايتِهِ بالصّنعةِ المعادلةِ للتّنقيحِ والرّعايةِ، يُروى أنّهُ كانَ ما يزالُ يعيدُ النّظرَ في بائيّتِهِ إلى أنْ ماتَ، ويدلُّ ذلكَ على رغبةٍ في البلوغِ بالقصيدةِ إلى غايةِ الإتقانِ، والحرصِ على المتابعةِ الدّائمةِ للإبداعِ وصولًا إلى الجودةِ.

والحقُّ أنّ ذا الرّمّةِ مِنَ المنتمينَ إلى مدرسةِ الصّنعةِ التي كانتْ «تعتمدُ على الأناةِ والرّويّةِ وتقاومُ الطبعَ والاندفاعَ في قولِ الشّعرِ مع السّجيّةِ، فكثُرَ عندها التّشبيهُ والمجازُ والاستعارةُ واتّكأتْ في وصفِها على التّصويرِ المادّيّ وأنْ يأخذَ الشّاعرُ نفسَهُ بالتّجويدِ والتّصفيةِ والتّنقيحِ ثمّ التّأليفِ»[٣].

ولا شكَّ أنّ جانبًا كبيرًا من العنايةِ بالشّعرِ إبّانَ فترةِ معاودةِ النّظرِ ينصرفُ إلى الشّكلِ والصّياغةِ وتدقيقِ النّظرِ في الصّورِ والأساليبِ بُغيةَ إخراجِها مكتملةَ الصّورةِ، ما استطاعَ الشّاعرُ إلى ذلكَ سبيلًا، ومِن أشعارِهِ التي تصفُ سياستَهُ التّنقيحيّةَ ونظرتَهُ إلى الجودةِ الفنيّةِ، قولُهُ:

وشعرٍ قد أرِقْتُ له غريبٍ
أُجنّبُهُ المساندَ والمحالا
فبتُّ أُقيمُهُ وأقدُّ منــهُ
قَوافِي لا أعـدّ لهـا مِثـالا
غرائبُ قد عُرِفْنَ بكلِّ أفقٍ
مِنَ الآفاقِ تفتعلُ افتعالا

أي: لا أعدُّ لها مثالًا مِنْ شعرِ غيري، أي: لا أحْذوها على شيءٍ سمعْتُهُ، أقولُها أنا[٤].

نلاحظُ في أشعارِ ذي الرّمّةِ عنايةَ بالصّنعةِ الفنّيّةِ الإيجابيّةِ التي لا تكلُّفَ فيها ولا تصنُّعَ، فالصّورُ لا تُجتلبُ اجتلابًا، ولكن تُستدْعَى في سياقِها المناسبِ وتوضَعُ في مكانِها، وتعكسُ هذهِ الصّنعةُ تجويدًا للشّعرِ وعنايةً بهِ، وحِرْصًا على أن يخرجَ جَميلاً مبرّأً مِن الإعاقاتِ والعيوبِ التي تقدحُ فيهِ تركيبًا، ونظْمًا، وتصويرًا.

نستفيدُ ممّا سبقَ أنّ لكلِّ شاعرٍ تصوّرَهُ الخاصَّ للعمليّةِ الإبداعيّةِ الذي ينطلقُ فيهِ من رؤىً محدّدةٍ تمهّدُ لهُ الطّريقَ، وذو الرّمّةِ مِنَ الشّعراءِ الذينَ مثّلوا تيّارًا شعريًّا مميّزًا في عصرِه، فقدْ عُدَّ رائدَ التّيّارِ البيانيّ، وسلكَ لنفسِهِ مذهبًا عُدَّ فيهِ الإمامَ، هو مذهبُ وصفِ الصّحراءِ.

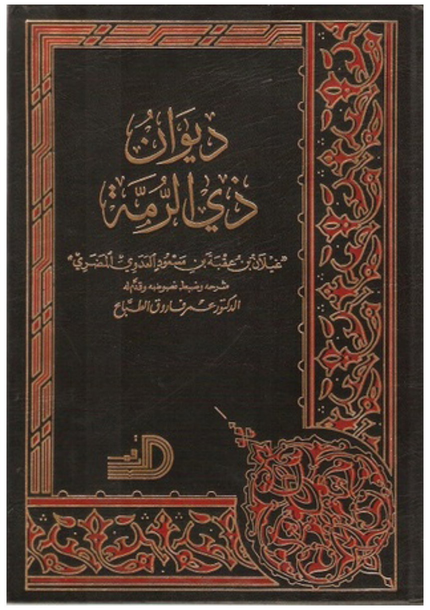

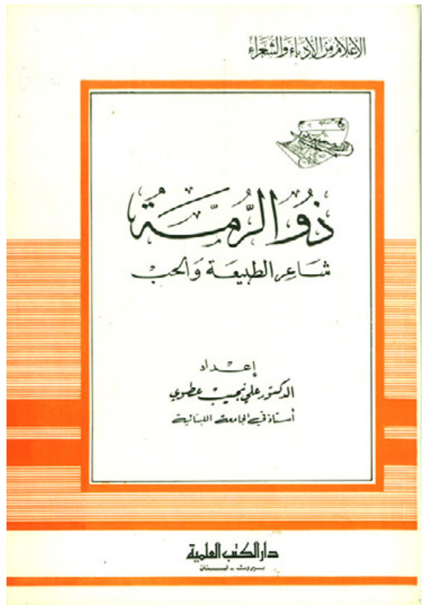

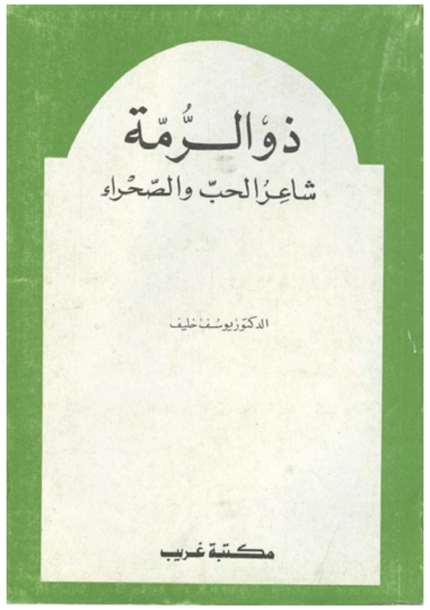

(٣) الفن ومذاهبه في الشّعر العربي، دار المعارف، ط١٠، ص: ٢٥٠.

(٤) ديوان ذي الرّمّة ، شرح الباهلي صاحب الأصمعي، تحقيق: د. عبد القدوس أبو صالح، دار الإيمان بيروت، ج٣/ ص: ١٥٣٢-١٥٣٣.

مفـهــوم اللـغــة:
قراءة المفكّر المغربي
عبــد الكريـم غــلاب

موضوعُ اللُّغةِ ليسَ كَكُلّ المواضيع، لِكَونه مسألةَ وجود، مسألةَ تاريخ، مسألةَ حضارة، لذلك كانَ وسَيَبْقى الحديثُ عنهُ مفتوحًا، خصوصًا اليوم في ظلِّ العَولمةِ وما تَفْرِضُه من تحدّيات جسميةٍ، خصوصًا بالنّسبة إلى دولِ العالمِ الثّالث، ولعلَّ أكبرَ تحدٍّ هو اللُّغة، التي هي تعبير عن هوية ضاربة في عمق التاريخ. في مقالِنا هذا نَتَوَقَّفُ مع المُفكّر المغربيّ عبد الكريم غلّاب وقراءتِه الخاصَّة للُّغة.

د/ عـزيـز كـريـوب
تخصص الدراسات الإسلامية
جامعة القاضي عياض- مراكش المغرب

يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ
أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ **سورة البقرة**

عبد الكريم غلّاب

يَتَضّحُ من الآيةِ أنَّ الأسماءَ هي الأساسُ الأوَّلُ في اللُّغة. حتّى في عَصرِ التَّدوين لم يَهْتَدوا إلى أساسٍ أهمَّ من الاسم، والفعلُ لمْ يَكُنْ إلّا للدّلالةِ على عَمل، والحرْفُ لم يَكُنْ إلّا رابطةً، وللدَّلالة على شكليَّةِ الفعل، ويَبْقى الاسمُ الأساسَ الأوَّل. لذلك خصَّ الإنسانَ بِتَعليمِه أساسَ اللُّغةِ وهو الاسم.

فالاسمُ هنا رمزٌ للُّغةِ جميعِها، وهو شَرَفٌ لآدم، حيثُ كانتِ اللُّغةُ عنوانَ آدميَّتِه المتميِّزة، وكانت كذلك كَيْنونَتَه. فالإنسانُ كما يَذهَبُ إلى ذلك المُفكِّر غلّاب، لم يَسْتَطِعْ أنْ يحتَفِظَ بَقَبيلٍ واحد، ولا بِوَطَنٍ واحدٍ، ولا بِقَوميَّةٍ واحدةٍ، ولا بحضارةٍ واحدةٍ، ولا باقتصادٍ واحدٍ، ولا بعقليَّةٍ واحدةٍ. والاختلافُ لم يَطعَنْ في وحدةِ إنسانيَّتِه، وإنَّما كانَ تنوُّعًا داخلَ الوحدة، التي تَتَبلوَرُ في الفِكْر والإنسيَّةِ والمصلحَةِ المُشتَرَكَةِ. وكلَّما تَنَوَّعَ في العقليَّة والتَّفكير والوَطَن والحضارة والآداب والدّين والفعل الحياتيّ والتّاريخ تنوعَّ في اللُّغة. ولذلك لَمْ تَكُن اللُّغات نتيجةَ اختلافٍ قَبَليٍّ فَحَسْب، وإنَّما هي نتيجةُ حضارةٍ، قد تَكونُ عريقةً في القِدَم، حافلةً بالتّاريخِ المُتنوّعِ الرَّوافدِ، قويَّةً بالعطاءِ الفكريِّ والأدبيِّ والدّينيِّ والحياتيِّ، وقد تكون حضارةً عابرةً لم تَسْمُ بتاريخٍ ولا سما بها، لمْ يَحفَلْ بها زمان، ولا عَمَّقَتْ وُجودَها في الإِنسان.

من هذا المُنطَلَق يَرَى المُفَكّر غلّاب، أنَّ اللُّغةَ تأخُذُ قيمَتَها مِنْ نوعيَّةِ الحضارةِ التي تَعيشُ مَعَها، تَرتَفِعُ مكانَتُها، تَسْمو مَنزِلَتُها وقيمتُها في الحياة مع مَكانَةِ الحضارةِ، وقدْ تَنزِلُ إلى أنْ تَضْمَحِلَّ إذا ما اضْمَحلَّت الحضارة، ولو مرَّتْ بِفَترةٍ طويلةٍ في أمجادِ التّاريخ. حضارات عاشَتْ: آشوريّة، وفرعونيّة، ورومانيّة، اندَثَرَت الحضارةُ فانْدَثَرَتْ لُغَتُها، رغم ما خلَّفَتْ من آدابٍ وفَلسَفاتٍ وعلوم. والحضارات التي خلَّفَتْها ابتكرَتْ، أو اقتبَسَتْ واشتَقَّتْ لها لغاتٍ أُخرى أَخَذَتْ مكانَتَها مع الحضارةِ الجديدة، نَمَتْ وارتقَتْ وأبدَعَتْ، وأخذَتْ ميزَةً من ميزةِ الحضارةِ الّتي عاشَتْ ضِمْنَها، بل إِنَّها كانت الفِكْرَ الذي يُحَرِّكُ هذه الحضارة، أكثرَ ممّا كانَتْ أداةً

للتَّعبيرِ عنها فقط، فاللُّغةُ إذَنْ فِكرٌ أكثرُ ممّا هي أداة.

وقد أكَّدَ المفكِّرُ غلّاب، على «صراع الحضارات» لا يقتَصِرُ على صراعِ المعلوماتِ والتّقنيّاتِ والصّناعاتِ واكتسابِ المالِ، بل هو صِراعٌ حضاريٌّ بكُلِّ ما يحمِلُ صراعُ الحضاراتِ مِنْ مضامين، وفي مُقدِّمتِه صراعُ اللُّغات؛ حيثُ تعملُ الدُّولُ ليلَ نهارٍ من أجلِ نشْرِ لُغتِها بوَضْعِ برامجَ مدروسَةٍ كي تَتَمَكَّنَ مِنْ مُواجَهَةِ لُغاتٍ غيرِها، كما هو الحالُ بالنِّسبةِ للفرنسيَّةِ والإنجليزيَّة. في ظلِّ ذلك لا بُدَّ مِنَ التَّأكيدِ أنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ ما تزالُ ضاربةً بأُصولِها العميقةِ في التّاريخِ الحضاريّ، حاضرةً في الأداءِ الكِتابيِّ والقَوليِّ والقِرائيّ، عَرفَتْ تَطوُّرًا ملحوظًا قبلَ القرآنِ بقرون. وجاءَ القرآنُ فَمَنَحَها قوةً وقُدرةً وغِنًى وطاقةً كُبرى على التَّعبيرِ والأداءِ وتحمُّلِ الأفكارِ والنَّظريّاتِ والمَعارفِ المُتطوِّرةِ والمُتوقَّعةِ والغَيبيَّةِ والمُتخيَّلة. وبفضلِ القرآنِ أصبحَتْ لغةَ العلمِ والمعرفة.

وبالنَّظرِ إلى اللُّغةِ كَقيمةٍ حضاريَّةٍ، أكَّدَ المُفكِّرُ غلّاب أَنَّها أَهمُّ مِنْ تُراثٍ كثيرٍ مِنَ اللُّغاتِ المُتطوِّرَة، إذْ لَمْ تَمُرَّ بعدُ بِفترةِ مَوتِ الآشوريَّةِ والهيروغليفيَّةِ والآراميَّةِ والعبريَّة، وظَلَّتْ حيَّةً في أفواهِ القارئينَ والمُتكلِّمينَ والكاتبين، رغم فترةِ خمودٍ وضَعفِ تطوُّر. ثمَّ إنَّها قابلةٌ للتَّطوُّرِ العلميِّ والتّقنيِّ والفكريِّ إذا ما تطوَّرَ النّاطقونَ بها علْميًّا وتقنيًّا. يُضيفُ المُفكِّرُ أيضًا أنَّه إذا كنّا لا نَشُكُّ في أنَّ العربيَّةَ لَمْ تُسايِرْ العلمَ لأنَّ النّاطقينَ بها لَمْ يُسايِروه حتّى الآن، فإنَّنا لا نَشُكُّ في قُدْرتِها على ذلك، ليسَ لأنَّ تُراثَها يؤكِّدُ على هذه القُدْرَةِ فَحسْب، ولكن لأنَّها لغةٌ مَرِنَةٌ شَهِدَتْ تطوُّراتٍ كُبرى في تاريخِها، وأكبَرُ تطوُّرٍ عَرَفَتْهُ هو القرآنِ الذي أحدَثَ فيها انقلابًا كبيرًا لَمْ تعرِفْهُ أيَّةُ لُغَةٍ حيَّةٍ في التّاريخ؛ فَلُغَةُ القرآنِ لَيسَتْ هي لُغَةَ الشُّعَراءِ والخُطَباءِ قَبْلَه. والمَضامينُ التي تَحدَّثَ عنها القرآنُ ليسَتْ هيَ المَضامينَ التي عَرَفَتْها الإنسانيَّةُ قبل، حتّى الدّياناتُ السّابقةُ والفلسفاتُ لَمْ تَأْتِ بما أَتى بهِ القُرآن.

قضيَّةٌ جوهريَّةٌ ذاتُ أهميَّةٍ وَقَفَ عندها المُفكِّرُ غلّاب، وهي الحُكْمُ على اللُّغةِ بالعُقْم، وهنا يَرُدُّ عليهم بأَنَّ مفهومَ اللُّغةِ غيرُ واضحٍ في عقولِ هؤلاء، بل وَصَفَهُم بالمُسْتَلَبين، الذين ما يَزالون يَعتقِدونَ أَنَّ اللُّغةَ أداةُ اتّصال، وهذا الإحساس بالمَهانةِ لدى هؤلاء، من الأكيدِ أنَّه يُطمِعُ الآخرينَ في مَزيدٍ مِن استلابِ الشُّعوبِ المستعمرة، ولذلك وُجِدَ ما يسمّى بالأنكولوفونيّةِ والفرنكوفونيّة، وهُما نِظامانِ لإحلالِ اللُّغتينِ الانكليزيَّةِ والفرنسيَّةِ في البلادِ المُسْتَلَبَة، قد تبدأُ بالمدرسَةِ عن طريقِ المَسالِكِ المُزدوجَةِ لتَنْتَهي إلى المَسْلَكِ الوحيد، ثم بوسائلِ الاتّصالِ السّمعيَّةِ والبصريّة وبينهُما المسالكِ الاقتصاديّة. بهذا الأسلوبِ إذَن تُستَلَبُ البلادُ مِنْ لُغتِها، ليسَ لأنَّ المُتعلّمينَ فيها يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّموا ويُتقِنوا لُغاتٍ أخرى، فَيَنْفَتِحونَ بها على العالم، ولكن لأنَّ المُتعلِّمينَ وغيرَ المُتعلِّمينَ يَحتقِرونَ لُغتَهم فيَنْصَرِفونَ عنها -حتّى في الحديثِ اليَوميِّ والعائليِّ- إلى اللُّغةِ المُسْتَلِبة، وبذلك يَنهارُ كِيانُهُمُ الوطنيُّ مِنْ حيثُ لا يَشعُرونَ بأَنَّ اللُّغةَ هي أَحَدُ أعمدةِ هذا الكِيان.

ما يجِبُ تأكيدُه -ونَحْنُ نُنْهي مقالَنا- أَنَّ قضيَّةَ اللُّغةِ هي قَضيَّةُ وَطَن، بها يكونُ لهذا الأخيرِ حضورٌ ووَزْنٌ في علاقاتِهِ بِغَيْرِه من الأوطانِ، والتَّفريطُ في اللُّغةِ هو تفريطٌ في الوطن، ومن هنا، فالمسؤوليَّةُ بالدَّرجةِ الأولى مُلْقاةٌ على المَسؤولينَ السّاهرينَ على البرامجِ التَّعليميَّةِ والمناهجِ الدّراسيَّةِ في أوطانِنا العربيَّة.

لغتنا الزاهرة

أسامة الزقزوق
مصر - سوهاج

سأكتبها قصائدَ نيراتِ تُشِيحُ النَّومَ عن أهلِ السُّباتِ
على أيكِ الفؤاد تلُوحُ عشّا فتقصدها جموعُ الشادياتِ
سأجعلُها نجوماً في ضياها سحاباتٍ إلى الأرضِ المواتِ
وَأَغْزِلُهَا رداءً من حروفي خيوطاً من حريرٍ ناعماتِ
أُصَيِّرُها زوارقَ في قُلُوبٍ تسافرُ بالمعاني الصافياتِ
أشَيِّدُها مآذنَ شامخاتٍ وفي محرابها أبني صلاتي
ويعلوها مجازُ القولِ تَاجًا ينير الناصياتِ المظلماتِ
على دَرَجِ البيانِ تطوفُ روحي فتَعْرُجُ فِي النُّجُومِ السابحاتِ
وَكَيْفَ يُضَام عاشقها بلومٍ وقد ملَكَت قُلوباً ذَائِبَاتِ
وَبَزَّتْ فِي صفاءٍ كلَّ نَبْعٍ وقد فاقت ورودا يانعاتِ
فبنتُ الضّادِ حَازَتْ كل مجدٍ أطاحت في الوغى بالعَادِياتِ
وفي القرآن معجزةٌ تحدَّت لسانَ الفَخْرِ في كلِّ اللغاتِ
وقادَ الأوَّلون بها رِكاباً وسادوا في الأُلَى بالمُحْكَمَاتِ
وحيَّر حُسنُها المستشرقين و راودَ بدرُها المستشرقاتِ
و أيَّدَها ملاكُ الوَحْيِ بِـ ﴿اقْرَأْ﴾ فَضَاءَ سراجُها طولَ الحياة
وكعبٌ نالَ بالأبيات عِزًّا بِمدحِ المُصطَفَى خيرِ الهداةِ
وكم من شاعر جافاه عيش تنعَّم في ثيابٍ من هِبَاتِ
فحَبِّبْ في مَقَالتها بَنِينَا تكون دَلِيلَهُمْ حتّى المَمَاتِ
وَعَوِّدْهم على ترديد شِعْرٍ لتعذبَ فِيهِمُ كلُّ الصِّفاتِ
ولا تَحْفل بمن قد حاد عنها وساقوا أَلْسُنًا نَحْوَ الشَّتَاتِ
فقد يأتي زمانٌ فيهِ نَحْيا وتجمعُ شَملنَا أمُّ اللغاتِ

الهُوية والتّحوّل الحضاريّ في شعر حبيب الصّايغ

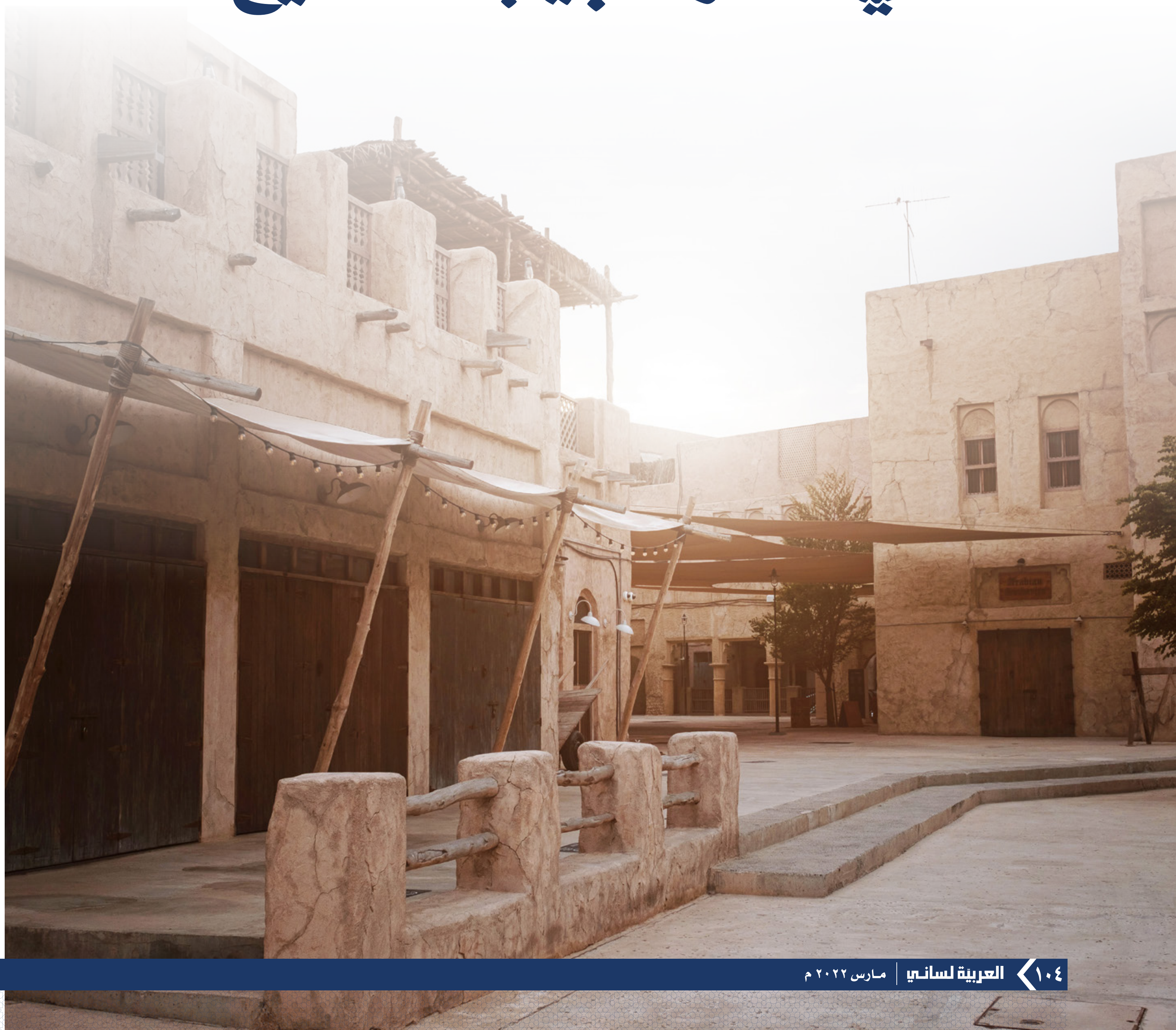

مع التّحوّلات التي عرفتها منطقة الخليج العربيّ إثر تدفّق الثّروة النّفطيّة والانفتاح على مختلف الجنسيّات والثّقافات الوافدة تشكّل واقع اجتماعيّ واقتصاديّ وثقافيّ جديد، أحدث تغيرًا عميقًا في تلك المجتمعات التي انتقلت من حياة البداوة وبساطتها إلى مرحلة علت فيها حضارة جديدة وئدت- في جانبها السلبيّ- مقوّمات أصيلة من هُويّة المجتمع وثوابت ماضيه.

ومع أنّ العالم العربيّ لم تَسلم أي من مدنه من تلك التّحوّلات الحضاريّة والاجتماعيّة- على اختلاف أسبابها ومظاهرها وقوتها وتلاحقها- التي مسّت شيئًا من هوية مجتمعاته، فإن المجتمع الخليجي كان أكثر تأثرًا بتغيرات تلك الحضارة الجديدة التي أسلمت أبناءها لاغتراب روحي، وشعور حاد بقلق التذويب نتيجة افتقاد القدرة على التلاؤم مع هذا الواقع الذي أخذ يهدّد خصوصيّتهم الثّقافيّة بقوة.

د/ عادل نيل
أستاذ الأدب والنقد المساعد
بجامعة الأزهر

ولقد كان الأديب الخليجي واعيًا بتلك المهدّدات وخطورتها، فلم تستطع إغواءات تلك القفزة الحضاريّة أن تبتلع وعيه وإدراكه، ولم تجرفه دعة هذا الواقع الجديد إلى الانبهار بمستجدات تقطع تلك الصّلة بينه وبين إرثه الثّقافي، وإنما شكّلت أزمة الهويّة حضورًا كبيرًا في إبداعه– شعرًا ونثرًا– بوصفها قضيّة مصيريّة وهمًّا ذاتيًّا واجتماعيًّا من هموم الإبداع الذي أظهر أصداء هذا التّحوّل ومهدّداته لمقومات الهويّة ومفردات الثّقافة.

والشّاعر حبيب الصّايغ[1] –رحمه الله– من الشعراء الذين أتت تجربتهم الشعريّة صدًى لقلق الهويّة في ذاته الشّاعرة، وشكوى الاغتراب في عالم شكلته تحوّلات عميقة، أوجدت لديه إحساسًا بالتّلاشي وسط واقع انقطعت في كثير منه علاقة الماضي بالحاضر، وهو ما تركه– هو وغيره ممن تملّكهم هذا الإحساس– لشعور جارف بالحنين إلى الماضي بكل ما فيه، حين عجزت روحه عن التوافق مع حاضره، ولم يجد أمامه غير الهروب إلى ماضيه، فيقول في قصيدته (غد) التي يومئ عنوانها إلى تجاوز توجّسات مرحلة الآنيّ/ الرّاهن إلى استشراف قلق الآتي، ليبقى استدعاء الماضي بين هذا وذاك هو المهرب:

في الركن الأقصى شمس طفولتنا
وسماء الدفتر بيضاءُ
وأيدينا بيضاءُ
وحبر السّاحل أبيضُ
والأشجارُ
وفضاءات اللونْ

(الأعمال الشعرية الكاملة، جـ١، صـ٢٨٠)

يشكّل المكان في النص– وفي حيّز كبير من تجربة الصايغ– محورًا رئيسًا في هذا الصراع الذي يعيش الشاعر في أتونه، المكان بدلالاته الحسية في بساطة مكوناته التي تختزنها ذاكرة الطفولة في الأركان والسّاحات التي مست براءتها يد التّغيير، والمكان بدلالاته المعنوية في تلك القيم الروحيّة التي تلاشت مع هذه الأيادي البيضاء، فالواقع الجديد لم يكن مجرد تحوّلات عمرانيّة في حيز المكان الذي اختزنت صورته القديمة ذاكرةُ الماضي، وإنما هي تحولات إنسانية تصدعت معها ثوابت شبّ عليها، وانعكست أصداؤها في تكوينه النّفسيّ، وشعوره العميق بتباينات تلك الحياة الجديدة ومفارقاتها؛ وهو ما يجعلنا نقرأ رمزيّة اللون الأبيض المهيمن على تلك الصّورة المستدعاة التي اكتست بنقائها الأشياء من حوله قراءةً تجسّد مشهدًا نفسيًّا يتّشح بقتامة الواقع في عينيه، فمع تلك التّحوّلات التي أحالت الأشياء إلى نقيضها غدت فضاءات اللون الأبيض في الدّفاتر والسّاحات

(١) حبيب يوسف الصايغ: شاعر إماراتي من مواليد ١٩٥٧م بإمارة أبو ظبي، رَأس مجلس إدارة اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، كما يشغل شَغَلَ منصب أمين الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، أصدر عدة دواوين جمعت في أعماله الكاملة الصادرة في جزأين. توفي عام ٢٠١٩م (يُنظر: دليل الأدباء بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، من إصدارات الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠٠٨م، صـ٤٦).

والأيادي فضاءات سوداويّة ترسم معها موقفه الرّافض بوضوح لواقعه الجديد.

ولذلك سنجد في استدعاء هذا الماضي شواهد من التّاريخ القديم التي استقرت في وجدان الشاعر، وغدت لديه معنًى من معاني هويّة الذات ومهربًا لها من تلك التّحولات، كالأحياء العتيقة، وميدان (الرّولة) الذي أخذ اسمه من شجرة عتيقة تستدعي تاريخ الآباء والأجداد وما فيه من معانٍ وقيم أصيلة، وكما في قصيدته (الحفلة)[٢] التي يبكي فيها ماضيًا كانت فيه الحياة بسيطة ببيوت الحصى والطّين، والأسواق المسقوفة، وألعاب الصِّبا في الظهيرة، وخربشات الجدران التي يرسم عليها الأطفال طفولتهم وبساطة أحلامهم، تلك الأحلام المكتوبة في دفاتر الذاكرة والوجدان التي كبرت مع أهلها.

وقد أدى الخلل السّكاني الذي أفرزه توافد العمالة الأجنبية على المدينة الخليجية إلى وحشة أبنائها بين زحام رسم وجهًا مشوهًا لتلك المدينة الصاخبة بجلبة الغرباء، بعد أن أصبح مواطنوها قلّة بين جنسيات متباينة الثّقافات والعرقيّات والعادات، وقد عمّقت تلك المفارقة الاغتراب الرّوحيّ الذي يعيش فيه الشّاعر، يقول في قصيدته (نفق):

عشرات تدخل في هذا الجانب

ومئات تخرج من هذا الجانب

عرب وأجانب!

هل يخرج من يدخل

أم يتداعى بعض الناس

في تجربةٍ

أو أغنيةٍ

أو إحساسٍ؟

أو معركة؟!

هل نحصي الداخل في هذا الجانب؟

والخارج من هذا الجانبْ

ونعد المفقودينْ

(الأعمال الشعرية الكاملة، جـ١، صـ٣٦٠)

يلقي عنوان القصيدة بـدلالات العتمة التي تحيا فيها ذات الشاعر، ويعبّر عن ذلك التيه الذي يعيش فيه من يمضي في درب يحكمه مسار حتمي لا يعرف له نهاية، فضلًا عن تلك الحيرة النّفسيّة التي نلمسها في تلك التّساؤلات التي تحملها أسطره، وكأنه في اعتراك نفسيّ أوجده ذلك الشّتات الذي يحكم دروب مدينته بين الدّاخل والخارج، العربيّ والأجنبيّ، المواطن والوافد:

من نافذتي المرشوشة بِماء الورد

أراقب صحراء الشارع

هل يبتدئ اليوم بهذا العامل

من أين أتى؟

هندي أم إيراني

مصري هو أم أفغاني؟

لا أدري من أين أتى؟!

(الأعمال الشعرية الكاملة، جـ٢، صـ١٨٥)

ومع تلك التّبدلات كان الإحساس بالوحدة والعزلة الذي يرتبط بهذا الشعور الاغترابي المنفصل عن الواقع قهرًا وإجبارًا لا طواعية واختيارًا، فهو يقع تحت سلطة الشّعور الفاصل بينه وبين واقع حضاريّ جديد لم يجد معه ألفة روحيّة، دفعه افتقادها إلى وحدة يرثي فيها ذاته، ويستحضر معها مشهدًا من السقوط والضياع والتلاشي والانتهاء يوازي مشهد التصدع والتّساقط في مقومات الهوية وخصوصية الذات، وهو رغم عواصف الاقتلاع لا يزال متشبثًا بالثّوابت، حين يختار البداية الأولى/ الصحراء، في مشهد النهاية، إذ إن الصحراء تشكل رمزًا لمنظومة من القيم ومفرداتها التي ارتضى في الدفاع عنها عزلة أو رحيلًا، وكلاهما رفض للواقع:

وحيدٌ أنا

ضائع كالفصول الشريدة

(٢) يُنظر: حبيب الصايغ، الأعمال الشعرية، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، أبو ظبي، ط٢، ٢٠١٢م، جـ٢، صـ٤٣، والديوان ذاته: جـ٢، صـ٢١٣.

إن الرثاء انتهاء الحضارات

فلتربطوني إلى شاهد القبر

كيما أغني

وحيدٌ أنا

البيد حولي

ترسمني من جديد

وتركض نحو السواحل

مجنونة الخطو

زوادتي فوق ظهري

وعمري تراجع عني

وحيدٌ

وحيدٌ

وحيدٌ

وحولي المسافات

تسخر مني

(الأعمال الشعرية الكاملة، جـ٢، صـ٥٢٣)

وهذا الشّعور القاتم المُلِحُّ على الشّاعر بالوحدة مثلما دفعه إلى الارتباط بالصّحراء وما تستدعيه من قيم ترتبط بهويّة الإنسان ومصيره، فقد دفعه كذلك إلى الارتباط المصيري بالبحر الذي يفسر فيه واقعًا نفسيًّا يرتبط بالموت، فهو في اختيار النهاية لا يريد أن يفارق ما ارتبطت به هويته، لأنّه يبحث عن الرّاسخ وسط التحولات، والثابت وسط التصدعات؛ ولذلك راح في قصيدته (أنا والبحر) يبث شعورًا بالألم النفسي مع ما شكل معه ثنائية يتوحد فيها المصير:

أنا والبحر أول موتْ

أنا والبحر آخر موتْ

وكلانا هباء

وكلانا جبال من المال والكبرياء

ووشوشة وهدير

وصمت غزير غزير

حبيب الصايغ

وكلانا دماء

أنا والبحر صوتان أو جثتان

نأي ناي عن الأغنية

واغتيال الهنيهات في جذوة الاشتهاء

وبكاء الزمان

(الأعمال الشعرية الكاملة، جـ٢، صـ٣٤)

ولكن محاولات التشبّث بالهويّة التي تشكّل حياة البحر جزءًا منها تنتهي بالسّراب، وتتجلّى في القصيدة تلك المفارقة التي تصوغ العلاقة بين البحر والشّاعر، بين بداية الموت ونهايته، وبين رسوخ الجبال وهباء الرّياح، وبين الصّوت والجثّة، هذه العلاقة التي تجتمع فيها تلك الضدّيّات تفسّر لنا وجعًا من التّحولات النّفسيّة التي يعيش فيها الشّاعر، حين يلجأ إلى ملاذه الأخير لينشد في مناجاته وذكرياته معه نقاء ماضيه وبساطته،

الألعاب الشعبية الإماراتية القديمة

«فيتخذ الشّاعر من البحر وجزئياته محاور يبثها شكواه، ويشركها في آلامه وأحزانه، ويبحث من خلالها عن ذكريات باتت بعيدة يتمنّى لو تعود ثانية، ويشكل من خلالها صورة للصّراع بين الذات والوجود»[٣].

لقد أضحى البحر لدى الشّاعر جزءًا من هذا الصّراع، فهو حين يعجز عن أن يناجيه– كما في الماضي– في ثرثرة الندماء، ومسامرة الأخلاء يبكي واقعًا تصدّعت فيه علاقته بالبحر مع ما تصدع وتهاوى:

ليس للبحر سوى أن يستقيل الآن
من أشرعتي
ليس للبحر سوى أن يستقل الآن
من ثرثرتي
ساخطًا أمضي إليه كغريق
نادمًا أسأله عن دفتر ضيعته فيه
ولم يرجعه
يا بحري الذي قد كنت بحري وصديقي
آهِ.. يا بحري الذي كنت- على الأيام-
بحري وصديقي

(الأعمال الشعرية الكاملة، جـ٢، صـ٧٤)

ولعل في انهيار تلك العلاقة بين البحر والشاعر رغم عمقها وامتدادها بل وارتباطها بوجوده دلالة أكثر عمقًا تشير إلى انهيار العلاقات الاجتماعية التي تأثرت بطفرة حضارية أصابت أدواؤها المجتمع، لِذا لم يعد للإنسان في هذا المكان ما يعصمه وسط عواصف هذا الشتات والتمزق، فما يلجأ إليه الشاعر غدا مصدرًا للوجع والشكوى، وهو ما يفسر تلك المشاعر الكثيفة من الاغتراب والمشاعر القاتمة التي تمكنت من ذات الشاعر الخليجي في حضارته الجديدة:

ماثلا لم أزل كالبكاء
فلا تسألوني عن الألق المتيبس في داخلي
إنه قطعة من ظلام كثيف
نورس مغمض العين
يستنشق البحر
يشنقه البحر
للبحر رائحة الجسد المشتهي
وله حيرة الأرض بين العطاء وبين النزيف

(الأعمال الشعرية الكاملة، جـ٢، صـ٤٨١)

لقد تحول البحر من لوحة موصوفات يتغنى بها الشعراء، ولا سيما لدى شعراء تلك البيئة التي تأخذ منه أبرز مظاهرها الحضارية، إلى صورة رامزة لتلك المعاناة، والاقتران بالشكوى والحزن الذي يحيل إلى أزمة تحولاته، وهي معانٍ يكاد يشكل حضورها لازمة في نصوص الشاعر:

وبحر مالح الأحلام شب
فشابت الأحلام والماء
وأسماءُ
تعرينا.. نعريها
كأن قبورها فينا
كأن قبورنا فيها
تعرينا
وتمضي للعناوين البعيدة
تلتقي في وقتنا الآتي
وتمضي نحو ماضيها
أسماءٌ
تعبر دون معنى عن أساميها

(الأعمال الشعرية الكاملة، جـ٢، صـ١١٥)

ومع أن صوت الأنا الفرد يظهر بوضوح في نصوص الشاعر فإن قصائده تعبر عن الأنا الجمعية، كما أن أزمة الهوية التي تتعلق بمظاهر التحول الحضاري في بيئته لم تنفصل في هموم إبداعه عن أزمة هويته الكبرى التي شكلها نزوعه القومي، كما في قصيدتيه (الهوية، الحصار) من ديوانه (التصريح الأخير للناطق الرسمي باسم نفسه)، وكما في ديوانيه (هنا بار بني عبس الدعوة عامة، ميارى) اللذين أتى كل واحد منهما في قصيدة واحدة، معبرًا عن أزمة حضارية تشمل المجتمع العربي كله، «وهذا الدمج تم في نفسية واحدة، شخصية الشاعر ذاته الذي انخرط بعدة توحدات»[٤]، ويسوّغ لذلك وحدة الوجع المرتبط بالأرض، وكذلك وحدة الثقافة التي يهددها ما يحتشد به واقع الشخصية العربية التي تواجه مصير أوجاعها.

والصايغ لا ينطلق في موقفه الرافض لتلك التحولات من موقف يعادي التطور الحضاري ومظاهر التقدم ودعة الحياة التي أحدثتها تدفقات الثروة النفطية، وهو أيضًا لا ينطلق من نزعة متعصبة، رافضة للآخر، ولا يعادي الاندماج والمثاقفة الإنسانية؛ فالإيمان بالتنوع الثقافي للشعوب تقتضيه سنة الله في أرضه، وإنما يرفض أن يحدث هذا التطور قطيعة بين حاضره وماضيه، ويرفض طمس هويته بالانفتاح غير المنضبط الخاضع لتبدلات تلك الحضارة الإسمنتية التي شكلت الوجه الأبرز لتحولات حياة ما بعد النفط.

يبقى سؤال: هل سيظل الإبداع الخليجي– مع أجياله المتعاقبة– وفيًّا عبر نصوصه لحضارة الصحراء التي تشكل إرثًا روحيًّا يعبر عن عمق الانتماء إلى البدايات الأولى؟ أم أن يومًا ما سيتجاوز تلك النبرة التي تشكو تصدع هويتها، وتخضع لتحولات حضارة ما بعد النفط، بالتخلي عن ذلك الموقف الرافض– في حدته وأثره النفسي– للاندماج؟ الإجابة يحكمها أثر هذا التحول الحضاري وعمقه في أجيال تلك المجتمعات، ومدى حاجتهم الحقيقية لهذا الإرث كلما تباعدت بهم الحقب واتسعت الفجوة، وهو ما يُدخل تلك المجتمعات في تحدٍ حقيقي في تمسكها بثوابت هذا الإرث وسط عواصف التّحوّلات وأعاصير التّغيّرات، استبقاء على مفردات هويّتهم التي تشكل حضارتهم القديمة جزءًا أصيلًا من مقوّماتها.

(٣) هيا محمد عبد العزيز الدرهم، صورة البحر في الشعر العربي الحديث بالخليج، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٦م، صـ٦٧ بتصرف.

(٤) فايز محمود، دراسة في ديوان حبيب الصايغ، المجلة الثقافية، الأردن، العدد السادس، ١٩٨٥م، صـ٢٠١.

أهميّة التّعالق الدلالي في الخطاب

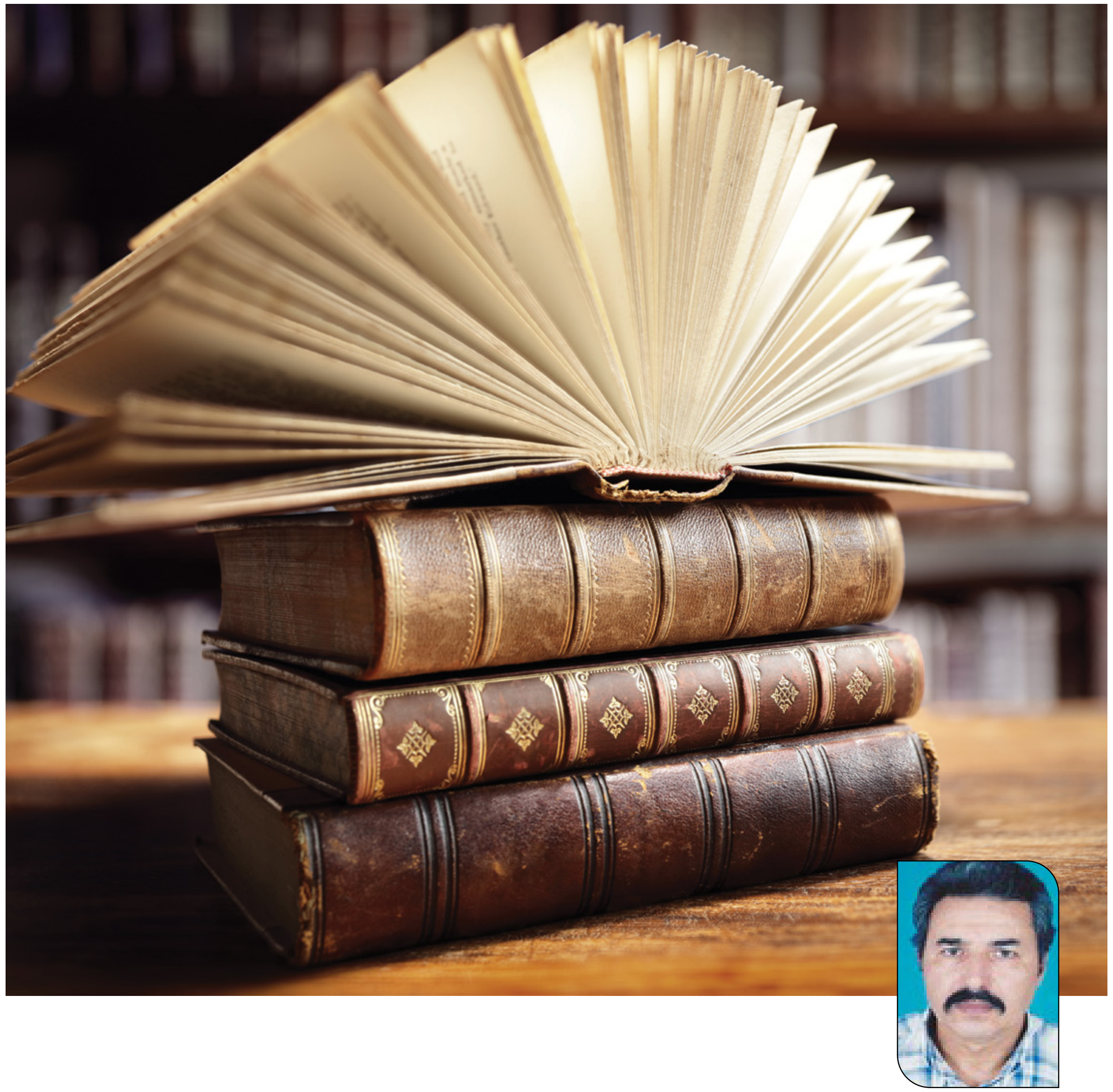

د. هلال بن حسين

للعربيّة خصيصتها التي أكسبها إيّاها القرآن الكريم، وهي أنّها تنمو تراكميًا ولا يُصيبها ما أصاب الألسن الأخرى من الانقسام. ولكنّ هذا التّراكُم وخاصّة المُعجميّ منه بحاجة مُتجدّدة إلى التّعهّد بالوصف الذي يكون مُلائما للعصر ولحاجات المُتكلّمين خاصّة في زمننا هذا الذي يتميّز بسرعة الإنجاز المُعتمدة على التّقنيات المُتقدّمة والحوسبة. ولنا في العربيّة فيما يخصّنا في هذا الموضوع إرث مُعجميّ هائل يُنتظر منه أن يضطلع بدوره في التّعبير عن الحياة المُعاصرة للعربيّ وَيَنْهَض بها في مجالاتها الدّينيّة والاجتماعيّة والعلميّة جميعها لكونها وحدة لا انفصام لها.

وننحصر القول في هذه الصفحات القليلة في موضوع حُسن القول الذي هو في درجة عليا في سلّم الفصاحة. وننحصر حسن القول في كيفيّة نجاح المتكلّم في انتقاء المفردة المناسبة للتعبير عن فكرته، وفي نجاحه في انتقاء التّأليفيّة المناسبة لتلك المُفردة.

ونورد مثالين: أوّلهما يبيّن عمليّة تدريب على إنجاز هذا الأمر تتضمّن الخطأ والتّعديل، وثانيهما يُبرز قولا ناجحا في اختيار المفردات وإقامة نسيجها التّأليفيّ.

فالمثال الأوّل هو ما أورده ابن الجوزي في كتاب الأذكياء: أنّ رجلا قال لهشام بن عمرو القرطبي: كم تعُدُّ ؟ قال: من واحد إلى ألف ألف وأكثر؛ قال: لَمْ أُرِدْ هذا، قال :فما أردت؟ قال: كم تعُدُّ من السِّنّ؟ قال: اثنتين وثلاثين سِنَّةً: سِتّ عشرة من أعلى، وستّ عشرة من أسفل؛ قال: لم أرد هذا، قال: فما أردت؟ قال: كم لك من السنين؟ قال: ما لي منها شيءٌ، كلُّها لله عزّ وجلّ؛ قال: فما سنك؟ قال: عظْم؛ قال: فابن كم أنت؟ قال: ابن اثنين أب وأم ؛ قال: فكم أتى عليك؟ قال: لو أتى عليّ شيءٌ لقتلني؛ قال: فكيف أقول؟ قال: قل كم مضى من عُمُرك؟

فهشام في هذه القصّة مُعلّم لكيفيّة ترجمة الفكرة إلى نصّ لا لبس فيه، والرّجل السّائل مُتعلّم. والفكرة التي يريد السّائل أن يصوغها في نصّ هي السؤال عن العمر. ولم يُفلح في ذلك لأنّه ارتكب الأخطاء التّالية:

١ ـ أساء استعمال فعل «عدّ»؛ فهو محمول ذو موضوعات أو فواعل دلاليّة تعكس الأطراف النحوية من فاعل ومفاعيل. وإذ إنّ الرجل لم يُحدّد طبيعة المعدود، فقد ترك للمستمع حريّة اختيار هذا العنصر، فاختار الأرقام مفعولا لفعل عدّ، ولم يحصل السائل على مُراده.

٢ ـ تدارك الرجل خطأه، فحدّد المعدود بأنّه «سنّ»، إلاّ أنّه ارتكب خطأ آخر عندما لم يُحسن التّعامل مع هذا اللفظ. فـ«سنّ» لفظ من المُشترك الدّلاليّ، ولهذا اللفظ من الدّلالات أ: العظم الذي ينبت في الفكّ، وجمعه أسنان؛ ب ـ العُمْر/ وتُجمع على سنين؛ ج ـ التِّرْب؛ د ـ كلّ جزء مُحدّد من الشيء: سنّ المشط، سنّ المنجل..؛ هـ ـ الحبّة من رأس الثوم..

وكذلك فعل «أتى» من المُشترك الدّلالي إذا كان لازما أو مُتعدّيا. فإن كان لازما دلّ على المجيء والحُضور؛ وإن كان متعدّيا دلّ على المجيء: أتى المكانَ أو الرجلَ؛ ودلّ على التّنفيذ: أتى الأمر بمعنى فعله؛ ودلّ على المُباشرة: أتى المرأة؛ ودلّ على الانتساب: أتى القومَ بمعنى انتسب إليهم. وإذا تعدّى بواسطة حرف «على» دلّ على الإتمام: أتى على أمرٍ مّا: أنْفده؛ وإذا كان الفاعل هو الدّهر أفاد الإهلاك: أتى عليه الدّهر أهلكه. وهذا هو المعنى الذي ذهب إليه هشام في القصّة، ولم يقصده الرجل السّائل.

فحسن التّعامل مع الألفاظ المُشتركة دلاليًا هو استحضارها في الذهن في حقولها الدّلاليّة التي تتضمّن هذا العدد من الدّلالات، واعتبار كلّ دلالة وحدة مُعجميّة، وأن يُدرك المتكلّم أنّه يستعمل في الخطاب وحدات مُعجميّةً لا ألفاظا، لأنّ التّأليفيّة التي هي ركيزة الخطاب لا تتمّ إلاّ بين وحدات مُعجميّة التي من شروطها أن تكون أحاديّة المعنى.

ويُحوصل جواب هشام النّهائي «قل كم مضى من عُمُرك؟» حلول هذه المسألة. فإنّ هِشَامًا انتقى من لفظي «سنّ» وعُمُر» لفظ «عُمُر» لأنّه أقلّ اشتراكا دلاليًا، أي أقلّ لبسا، إذ لا يتضمّن حقله الدّلاليّ سوى وحدتين مُعجميّتين، هما «عُمُر» بمعنى مُدّة الحياة، و« عُمْر» بمعنى لحم اللثة.

ويبرز دور التأليفيّة في تحديد الوحدة المُعجميّة من خلال اختيار فعل «مَضى». فإنّ «مضى» تستدعي حتما «عُمْر» بمعنى مُدّة الحياة، فيُقال مضى العمر؛ ويستحيل أن تقبل مُصاحبة « عُمْر» بمعنى لحم اللثة. وبذلك يكون الحلّ الذي قدّمه هشام نهائيًا ولا لبس فيه.

ومثال المُفلح في عمليّة انتقاء المُفردات المُناسبة للتعبير عن فكرته ونسج التآليفات المناسبة لتلك المُفردات أمّ معبد رحمها الله في وصفها للرّسول صلّى الله عليه وسلّم عندما شاهدته أوّل مرّة وهي بعدُ لا تعرفه ولا تعرف الإسلام. فمن وصفها: رَأَيْتُ رَجُلًا... أَبْلَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ... وَسِيمٌ، قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ/غَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهَلٌ/ صَحَلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجُّ، أَقْرَنُ... رَبْعَةٌ... مَحْفُودٌ، مَحْشُودٌ..

فإنّ أمّ معبد شاهدت الرسول ﷺ فقدح منظره زناد معجمها الذّهني المتعلّق بجسم الإنسان، فانتقت الوحدات المُعجميّة المناسبة لكلّ موضع من مواضع جسمه ووصلتها بمُصاحباتها من الوحدات المُعجميّة الواصفة. فصاحبَت كلّ صفة الاسم الذي تأتلف معه. فكان الوجه أبلَجَ، وكان الخلْق حَسَنًا، وكان جسمه وسيما قسيما، وكانت عيناه دعجاوين، وكان أوطَفَ الأشْفَارِ، صَحِلَ الصّوتِ، ساطِعَ العنق، كثّ اللحية، أزَجّ الحاجبين، ربعة القامة، محفودا محشودا. فهذه مُصاحبات لغويّة ترجع إلى الأسلوب. ولا غنى عن حفظها لمن أراد أن يَرْتَقِيَ إلى أعلى درجات الفصاحة. وبفعل هذا الوصف أدرك زوج أمّ معبد أيّ شخص الموصوف وأعلمها ما سمعه عنه وقرّرا الالتحاق به.

ومن القصّتين نستنتج:

١ ـ أنّ المتكلّم والمُخاطَب كليهما يحتاجان إلى معرفة جميع أنظمة اللسان الذي يستعملانه في الخطاب، ويحتاجان فوق ذلك إلى حفظ عِباريّته(Phraseology)[١]، أي جملة تعابيره التي ليس لها تفسير في ذلك النّظام: المتكلّم للتبليغ السّليم بصياغة الأفكار في نصوص[٢]، وهو ما فعله هشام وأمّ معبد في القصّتين، والثّاني للفهم السّليم بتفكيك النّصوص وإعادتها إلى أفكار وهو ما فعله الرجل السائل وزوج أمّ معبد.

٢ ـ لا يتأتّى للمُفردات أن تنسج لها علاقات بمُصاحباتها إلاّ إذا كانت وحدات معجميّة، أي مُفردات أُحاديّة الدّلالة[٣]، وتُستخرج من اللفظ المُشترك دلاليًا، وتكونُ اللفظ نفسه إذا كانت أُحاديَّة الدّلالة[٤]. وقد رأينا أمثلة من ذلك في القصّتين نذْكر منها بمثال « عُمْر». فهذا لفظ مُشترك دلاليّ، استخرجنا منه وحدتين مُعجميّتين على عدد المعاني التي تضمّنها: « عُمْر» بمعنى مُدّة الحياة، و« عُمْر» بمعنى لحم اللثة.

٣ـ رأينا في القصتين أنّ الوحدات المُعجميّة ترد في شكل مُتتاليات، وتنتظم في أقوال مُتَعالِقة تعالُقا حرّا كـ«رأيتُ رجلا»، وتعالقَ مُصاحبة/تلازُم كـ«أبلج الوجه».

و نوع آخر ليس له وُجود في القصّتين ولكنّ له وُجودا في المُعجم، وفيه تقوى علاقة المُصاحبة حتّى تصير تكلّسا كـ«أبوال البِغال (سراب)».

فالمُصاحبة ضرب من التّأليفات المُعجميّة يتمثّلُ في نزوع وحدتين مُعجميّتين أو أكثر إلى التّصاحب والتّآلف في الاستعمال تآلفا يتجاوز دلاليًا وتركيبيًا علاقة التّركيب الحُرّ ولا يبلغ درجة التّكلّس، فتكون الوحدتان أو الوحداتُ إذن من المُصاحبات.

والمُصاحبات هي عـادة زوج من الوحدات المُعجميّة: قاعدة ومُصاحِب. فالمُصاحبة «وجه أبلج» تتكوّن من «وجه» قاعدةً، ومن «أبلج» مُصاحبا. وتُختارُ الوحدةُ المُصاحبة بحسب الوحدة المُعجميّة الأساسيّة أو القاعدة. أي أنّ دلالة القاعدة تتّسم بالثّبات ودلالـة المُصاحبة تابعة لها. ومثال ذلك «وجـه أبلـج» فـإنّ «وجه»يُمثّل قاعدة المُصاحبة، ويُمثّلُ «أبلج» المُصاحِب، وقد تطلّب وصف الوجه بالإشراق اختيارَ «أبلج» مُصاحِبا له.

وتُميِّز المُصاحبات المعاييرُ التّاليـة:

١. مُكوّناتها شفّافة ومُحافظة على كياناتها[٥] لأنّها لم تبلغ بعد درجة التّكلّس.

٢. يخضع التّعالق الدّلالي بين مُكوّناتها إلى قيود الاستعمال.

٣. تكتسبُ مُكوّناتها من مُصاحبتها دلالة تأليفيّة[٦].

٤. المُصاحبات في تكوّنها تخضع لقواعد التّركيب[٧].

٥. الوحدة المعجميّة المتكوّنة من مُصاحبات تُستبدل كامل عناصرها بوحدة بسيطة[٨].

٦. لا تقبل الزّيادة الوسطيّة[٩].

٧. لا تقبل ـ شأنها شأن المُفردة البسيطة ـ إلاّ توزيعا مُعيّنا إذ لكلّ وحدة مكانها في التّوزيعيّة التّركيبيّة للسان[١٠].

٨. معايير تحديد المُصاحبات حسب غلبار دلاليّة (اجتماع المكوّنات على الإحالة إلى مفهوم مُعيّن) وسياقيّة (التّأليف يتم بين اسم وصفة أو بين اسم واسم ..)[١١].

والمُقاربة التي من شأنها أن تُبيِّن صلة المُصاحبة أو التّكلّس أو التّسييج بخصائص الوحدات المُعجميّة بحسب مقاييس مُعجميّة دلاليّة، وتُتيح اختيار اللفظ المُناسب داخل حقل مُعجميّ مَا وتضمن حُسْن صوغ تأليفيّته هي المُقاربة التي تعتمد الوظائف

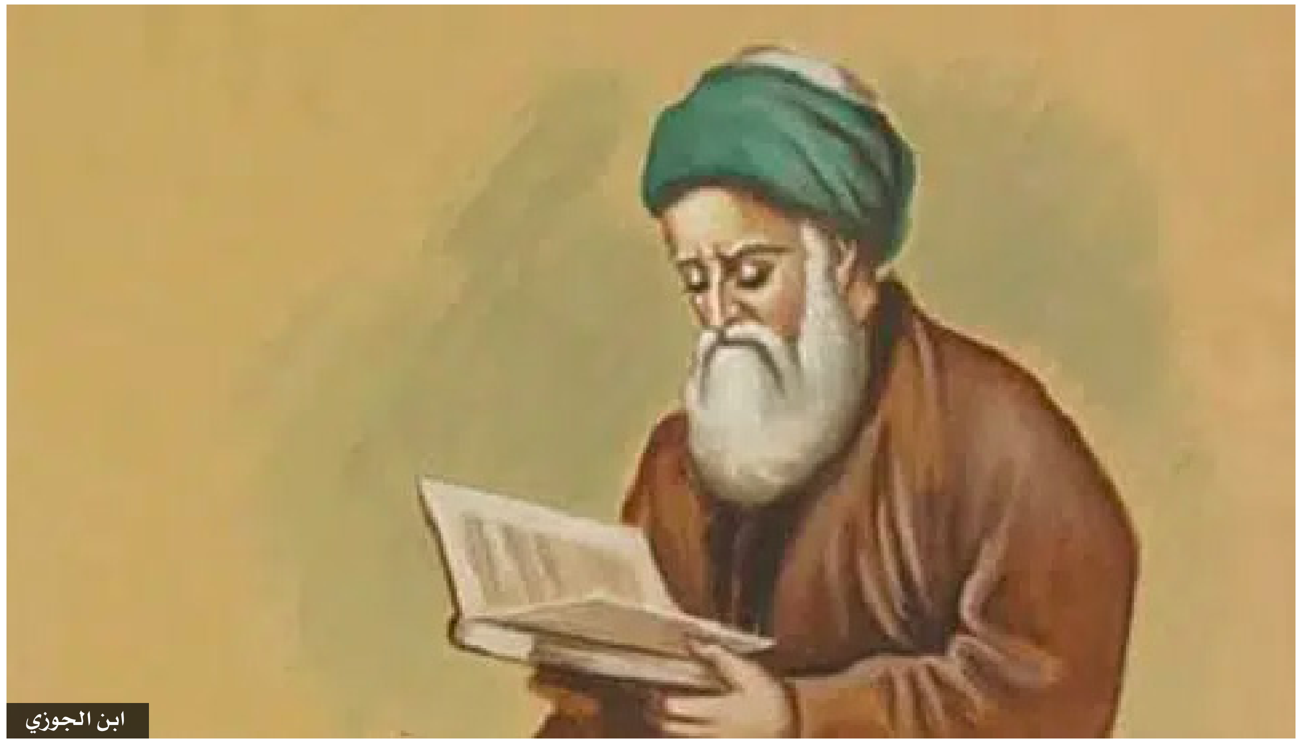
ابن الجوزي

(١) Vocable، يُنظر في مفهوم اللفظ: إيغور مالتشوك، أندري كلاس، ألان بولغار: مُقدّمة لمُعجميّة الشّرح والتأليفيّة، ترجمة هلال بن حسين، المركز الوطنيّ للترجمة، تونس ٢٠١٠ ص ٣٠٩، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٦٠ ، ٤١٣ / Igor Mel'cuk, André Clas, Alain Polguère: Introduction à la lexicologie explicative et Combinatoire, Duculot 1995(I.L.E.C), pp156,159,160, 163, 167, 184..

(٢) وضع ملتشوك في إطار المعجميّة نظريّة المعنى والنصّ، يُنظر مثلا في الدّرس الافتتاحي : MEL'CUK, Igor. (1997) Vers une linguistique Sens-Texte, leçon inaugurale faite le vendredi (faite le Vendredi 10 janvier 1997), Collège de France, Chaire internationale

(٣) Milner : Introduction, p 325؛ Tournier: Précis de lexicologie, p 10 – 13.

(٤) ملتشوك ومن معه: م م ش ت ص37 /Mel'čuk & al: I.L.E.C. p 16 .

(٥) هليّل (مُحمّد حلمي): «الأسس النّظريّة لوضع مُعجم المُتلازمات اللفظيّة العربيّة»، مجلّة المُعجميّة، ١٢ و ١٣ (١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ـ ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م)، ص ص ٢٢٥ ـ ٢٤٣ (معجم المُتلازمات)، ص ٢٢٧ .

(٦) نفسه، ص ٢٢٧.

(٧) نفسه، ص ٢٢٨ .

(٨) ينظر Précis de lexicologie française, Nathan، ١٩٧٧ (Précis de lexicologie)، p١٦.

(٩) ibid: p ١٦.

(١٠) TOURNIER (Jean): Précis de lexicologie anglaise, Paris, Nathan, ١٩٩٣ (Précis de lexicologie anglaise), p 64.

(١١) GUILBERT (Louis): La formation du vocabulaire de l'aviation, Paris, Larousse, 1965 (La formation du vocabulaire), pp334-335.

المُعجميّة التي وضعها ملتشوك في نظريّته المعجميّة التّأليفيّة[١٢] فإنّ الوظيفة المُعجميّة من النّاحية الشّكليّة دالّة بالمعنى الرّياضيّ، ويُمكن التّمثيل لها بحسب الطّريقة التقليديّة على النّحو التّالي: و (س)= ص[١٣]، حيث أنّ «س» معمول[١٤] للوظيفة، وأنّ «ص» قيمةٌ لها.

ونظرا إلى أنّ معنى الجمال مثلا معنى عام يُمكن أن تشترك فيه وحدات مُعجميّة كثيرة، ولكن تختلف الوحدات التي تعبّر عنه، فإنّه يُمكن أن يُمَنْوَل بواسطة الوظائف المُعجميّة، فوُجود أكثر من قيمة أو طريقة تعبير لأداء معنى مُتدرّج يُتيحُ للمُتكلّم أن ينتقيَ العبارة المُناسبة لدرجة المعنى الذي يُريد التّعبير عنه (الوظيفة «و») وللوحدة المُعجميّة التي يتعلّق بها ذلك المعنى (وهي الوحدة الرّئيسة (س) في الوظيفة المُعجميّة)[١٥]. ليتسنّى للمتعلّم أن يحفظ هذه العبارات:

جمال (وجه)= أبلج/صبوح، والعبارة الناتجة عن علاقة هذه المُصاحبة: هي «وجه أبلج»

جمال (خَلْق)= حَسَن، والعبارة الناتجة عن علاقة هذه المُصاحبة: هي «خلق حسن»

جمال (شخص)= وسيم/قسيم، والعبارة الناتجة عن علاقة هذه المُصاحبة: هي «شخص وسيم/قسيم»

جمال (عين)= دعجاء، والعبارة الناتجة عن علاقة هذه المُصاحبة: هي «عين دعجاء»

ويُمكنُ إظهار هذه العلاقات في شكل مُعادلات رياضيّة يكون البسط فيها المعنى المُحوِّر للوحدة المُعجميّة أو هو الوظيفة المُعجميّة، ويكون المقام فيها هو الوحدة المُعجميّة المُحوَّرَة[١٦]:

أبلج		حَسَن		وسيم		دعجاء
ــــــ	=	ــــــ	=	ــــــ	=	ــــــ
وجه		خَلْق		شخص		عين

(١٢) ملتشوك ومن معه: م م ش ت ص Mel'čuk & al: I.L.E.C.p 126 / 247.
(١٣) f(x) = y.
(١٤) Argument.
(١٥) ملتشوك ومن معه: م م ش ت ص Mel'čuk & al: I.L.E.C.p 127 / 249.
(١٦) يُنظر: ملتشوك ومن معه: م م ش ت ص ص Mel'čuk & al: I.L.E.C./ 253 - 250 127-pp 129.

ولا يعني هذا أنّ «أبلج» و«حَسَن» و«وسيم» و«دعجاء» مُتساوية دلاليًا وتركيبيًا، ولكن يعني أن نسبة التّحوير الدّلاليّ الذي تُدخله الوحدة المُعجميّة «أبلج» على «وجه» تُساوي ما تدخله «حسن» على «خلْق» وما تُدخله «وسيم» على «شخص» وما تدخله «دعجاء» على «عين».

فالمُصاحبة تُظهر قوّة التّعالق المُعجميّ أي قدرة الوحدة المُعجميّة السّياقيّة. وهي لذلك على صلة بظواهر أخرى أهمّها التّكلّس الذي تبلغه إذا قويت فيها علاقة المُصاحبة.

• التّكلّس[١٧]:

ويُصنّفُ التّكلّس عادة ضمن الخُصوصيّات اللسانيّة، وله من حيث الشّكل والدّلالة درجات تتميّز أقواها باللاتحليليّة: فهو من جهة الصّرف التّركيبيّ مُتتالية من اللفاظم لا تقبل الإقحام الدّاخليّ. وليس لمُكوّناته من حيث الدّلالة استقلال في المعنى وإنّما للوحدة المُتكلّسة معنى إجماليّ ليس له صلة بمعاني المُكوّنات. وتقوى إمكانات التّحليل بقدر ما تضعف درجة التكلّس، والعكس صحيح. فالمُركّبات التّالية: «أبوال بغال»(سراب) و«بزّ الخادم» (تمر) و«بُزاق القمر» (حجر) على سبيل المثال مُتكلّسة[١٨] دلاليّا تكلّسا تامّا ومُتكلّسة من حيث الشّكل جزئيّا.

فإنّها من حيث الدّلالة قد فقدت صلاتها بمراجعها الأصليّة فصارت لها دلالة مُفردة حاصلة من التّلازم وقد عوّضت دلالتي العنصرين منفصلين، وهي لم تعد من حيث الشّكل من المُركّبات النّحويّة ولكنّها احتفظت رغم ذلك بالإعراب[١٩] لأنّ تكلّسها ليس مُطلقا خلافا لمُتكلّسات أخرى مثل التّعابير المُعجميّة.

ومثال التّعبير المُعجميّ «عمّي خذني معك» (نبتة البلسكاء) فإنّها مُتكلّسة تكلّسا تامّا فلا يُداخلها إعرابٌ ولا تُحلّلُ تركيبيّا

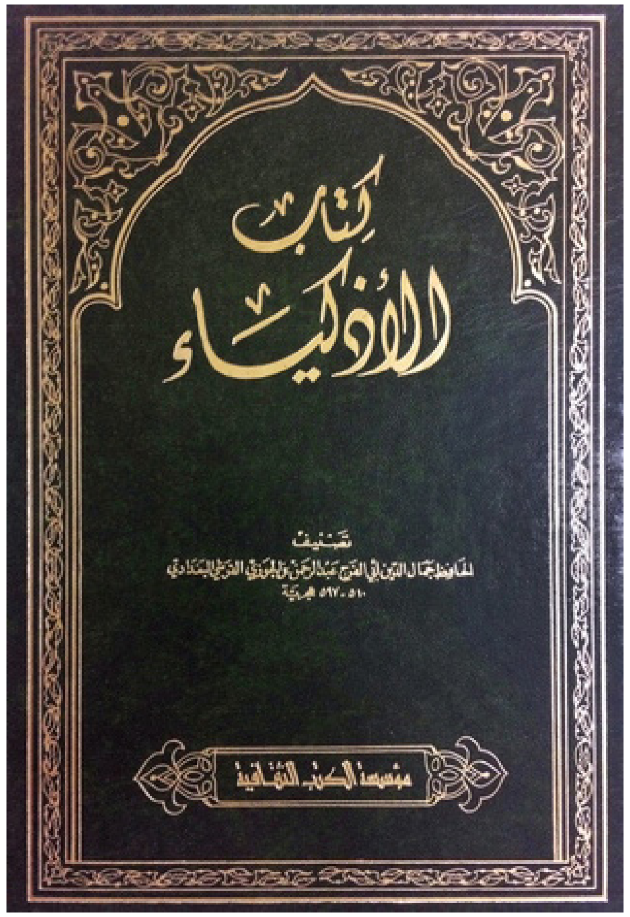

ولا دلاليّا، وإنّما تُختزن في المعجم باعتبارها وحدة معجميّة وتُستعمل في السّياق في مواضع المفردات البسيطة فنقول «قطعت البلسكاء» أو«قطعت عمّي خذني معك». فالمُتكلّسات إذن وحدات في المُعجم ومداخل في القاموس. والعلاقة بين الدّال والمدلول التي هي في الأصل اعتباطيّة يُمكنُ أن تُصبح مُبرّرة بالنّسبة إلى المُتكلّسات. فلقد أُطلق على نبتة البلسكاء «عمّي خذني معك» لأنّها تعلق بثياب من تلامسه.

• التّكلّس والتّسييب[٢٠]:

وخلاف التّكلّس هو التّسييب. وله به علاقة، إذ التّسييب يُلغي العلاقات المُقيّدة من ناحية، ويُعيد العلاقات الحُرّة من ناحية ثانية، وقد يُؤدّي إلى تكلّس جديد. ويُشيرُ مُصطلح التّسييب إذن إلى

(١٧) Figement / Idiomaticity .
(١٨) Locution figée/Set phrase/fixed expression/Idiom.
(١٩) نقولُ: ١ ـ بزُّ الخادم لذيذ، ٢ ـ أكلتُ بزَّ الخادم، ٣ ـ أعجبني طعمُ بزِّ الخادم (بزّ بالرّفع في الحالة الأولى والنّصب فيَ الحالة الثّانية والجرّ في الحالة الثّالثة).
(٢٠) Unfreeze/Défigement.

نُزوع مُعاكس لوجهة المُصاحبة أي أنّ فيه فكّا لعلاقة التّصاحب بغرض خلق علاقة جديدة، ويُمكنُ نعت الوحدات المُعجميّة التي تمرّ بهذا الطّور بأنّها من المُسيّحات.

ومن أمثلة ذلك:

المتكلّسة: «أقام الدّنيا وأقعدها»، ومن صور تسييحها: «أقام الدّنيا ولم يُقعدها»

المتكلّسة: «أكل عليه الدّهر وشرب»، ومن صور تسييحها: «أكل عليه الدّهر ولم يشرب بعد»

المتكلّسة: «قوّة المنطق»، ومن صور تسييحها: «منطق القوّة»

المتكلّسة: «تجري الرياح بما لا تشتهي السّفن»، ومن صور تسييحها: « تجري الرياح كما رادت لها السّفن».

فلقد تمّ التّسييح في المثالين الأوّل والثّاني بإحلال النّفي محلّ الإثبات في الجملة الثانية من نصّ القولة المتكلّسة، وتمّ التّسييح في المثال الثّالث بإجراء تبادل موقعي المُضاف والمُضاف إليه في نصّ القولة المتكلّسة، وتمّ التّسييح في المثال الرّابع بإحلال الإرادة محلّ غياب الإرادة.

وإذا قارنّا بين التّكلّس والتّسييح، فلا شكّ أنّ حريّة المُتكلّم أجلى في التّسييح. فإذا اعتبرنا المُعجم مجالا للتّكلّس فإنّ التّسييح يُعدّ عامل زعزعة لهذا التّكلّس وكأنّه يُعارضُ العرف الذي أدّى إليه أو أنّه يلهو به بواسطة ضرب من اللعب بالكلمات لإضفاء جماليّة على الأسلوب. ولكن أغلب المُسيّحات لا تلبث أن تتكلّس بدورها وتُصبح عُرضة لتسييح جديد مُحتمل بدليل أن نسبة استعمال المتكلّسة والمُسيّحة تكاد تكون الآن واحدة بالنّسبة إلى المثالين الأوّل والثّالث.

وللتّكلّس والتّسييح علاقتان إحداهما بالمُفردات وخصائصها وخاصّة منها الخصائص الدّلاليّة والإحاليّة، والثّانية بمقام التّخاطب مُتمثّلا في المُتكلّم والظّروف التي تحفّ بإنجاز خطابه.

فالتّحوّلات الاجتماعيّة والسّياسيّة لها أثرها في استعمال الوحدات المُركّبة وأفعال القول المُتكلّسة أي في العِباريّة. والتّكلّس والتّسييح يتمّان في المجالات التي لها حُضور مكثّف في حياة الجماعة اللغويّة مثلا الأكل والجنس.

وتُصاغ المُصاحبات التي تُؤدّي إلى تكلّس أو تسييح في شكلها العام بحسب القواعد الصّوتيّة العربيّة أي ما يقتضيه المجهود الأدنى من تآلف الأصوات وما يتطلّبه ذلك التّآلف إن لم يكن مُتوفّرا من تغييرات صوتيّة.

وتوجد وحدات يُراعى فيها الجانب الصّوتي على نحو أساسيّ، وهي التي يُصطلح على تسميتها بالإتباع، وهو ضرب من المُفردات السّماعيّة تـتْبعُ فيه مُفردةٌ مُفردةً أخرى على وزنها تزيينا للتّعبير أو في سبيل مدح أو ذمّ[٢١] وأمثلتها: «بِلْغٌ مِلْغٌ» في معنى خبيث لئيم، و«حَسَن بَسَن» في معنى حسن، و«حَلَقِيٌّ بَلَقِيٌّ » في معنى شتيمة، و«خاق باق» في معنى الفرج، و«خصيّ بصيّ»: في معنى مخصيّ، و«صلَنْقَع بَلَنْقَع» في معنى قفر.

والعِباريّة التكلّسيّة التّسييحيّة ليست مُجرّد أشكال من الحذف والقوالب الجاهزة بل هي أحيانا أعمال قول لها أثر كبير في النّفوس إذ لا يكتفي المُتكلّم بالإخبار بل يُحدث أثرا في المُتقبّل، وأهمّ طريقة له في ذلك هي التّلاعب باللغة في إطار ما هو معقول ومقول.

وقد يلتبس التكلّس بالتّعبير الحرّ، والمقام هو الذي يُحدّد طبيعة العلاقة، إن كانت تعبيرا حرّا أو تلازما. ومثاله: «فاض الكأس»: فهذه العبارة من التّعبير الحرّ إن قيلت في المقهى في وصف كأس حقيقيّة؛ وهي مُتكلّسة إن قيلت في حالة غضب لا صلة لها بوجود كأس حقيقيّة.

(٢١) هليّل: معجم المتلازمات، ص ٢٢٦.

تهنئة

صاحب السمو الشيخ الدكتور

سلطان بن محمد القاسمي

بمناسبة مرور خمسين عاما على تولّيه حكم إمارة الشارقة

خمسون عامًا من البذل والجود والعطاء،
ونصف قرن من النّصح والتّوجيه والتّسديد،
وعمرٌ مديد في التّربية والتّعليم والتّرشيد.
عقلٌ مدبّر، وذهنٌ مفكّر، وقلمٌ معبّر، وقلبٌ مؤمن صادق، ولسانٌ بالحقّ ناطق.
حاكمٌ بالشّعب رؤوف، وبالمسكين والفقير عطوف.
الكتاب أنيسه، والقرآن جليسه،
والفكر الصّحيح سلاحه،
وبالحجّة البالغة فلاحه.
مثلٌ في الأخلاق يُحتذى،
وأسوةٌ به يقتدى ويُهتدى،
لله درّه من حاكم عالم،
ومثقّف بالحقّ قائم.
سكنت محبّته القلوب،
وهامت بمودّته شعوب وشعوب،
فطوبى له من حبيب محبوب،
موفّق مسدّد موهوب.
إنّه سلطان القاسمي شرف القواسم وسنامها، ومجدها وفارسها وهُمامها.
رافع راية العلم والعرفان،
وحامل لواء الثّقافة والبيان،
في شارقة الخير والجود والإيمان.

مع أخلص تحيّات موظفي مجمع اللغة العربية بالشارقة

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

إصدارت مجلة العربيّة لساني السابقة

المدينة الجامعية - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة
مبنى مجمع اللغة العربية - الدور الأول
هاتف : 400 60 51 6 971+ ، فاكس : 410 60 51 6 971+ ، ص.ب : الشارقة ، 1973
البريد الإلكتروني : info@alashj.ae ، الموقع الإلكتروني : www.alashj.ae

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع اللغة العربية بالشارقة
ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

المعجم التاريخي للغة العربية

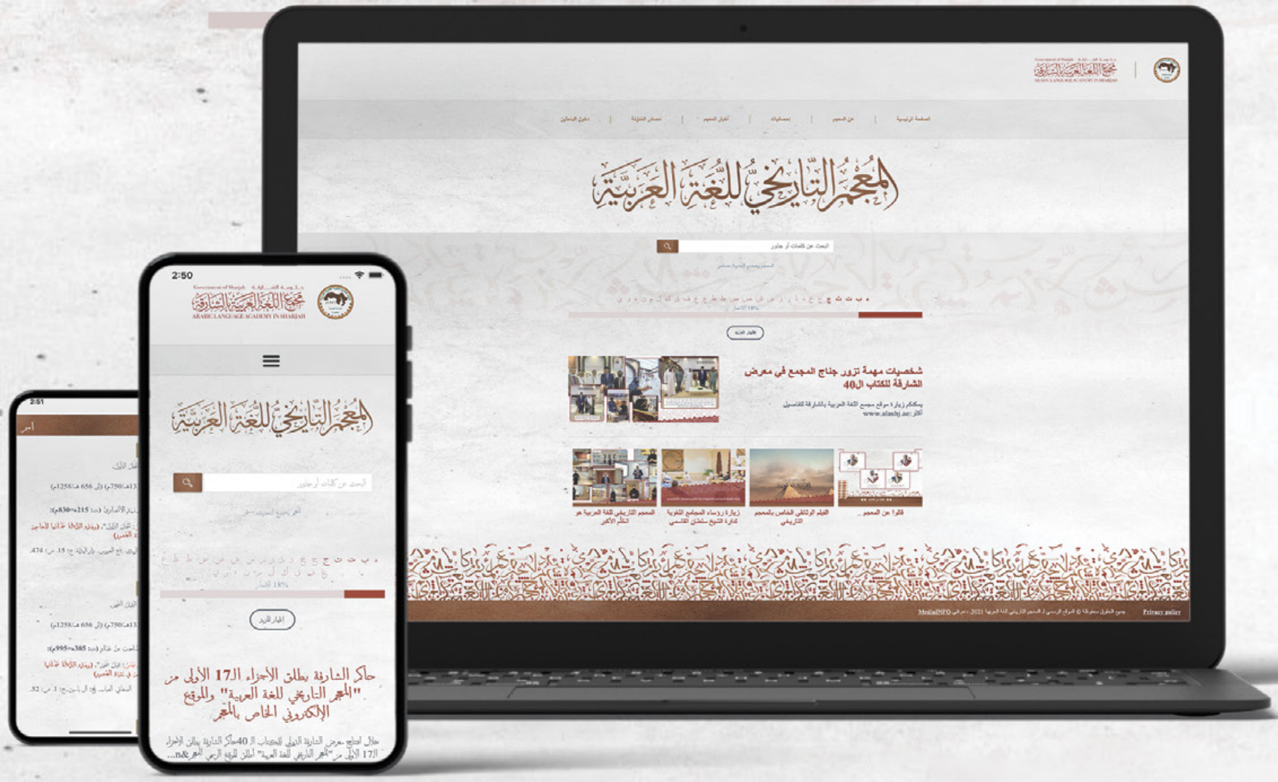

تطبيقنا الذكي متوفر على

Download on the App Store
GET IT ON Google Play
EXPLORE IT ON AppGallery

www.almojam.org